دكتور
طه حبيشى
استاذ بجامعة الأزهر

فى ساحة النبى ﷺ

الطبعة الأولى
١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م

رقم الايداع بدار الكتب المصرية
١٠٠٢١ لسنه ٢٠٠٢
مطبعة رشوان

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيـــــد

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى ،،،، وبعد .

فإن الأعوام تمر عاما بعد عام ، ويشهد الناس مرورها ويعيشون أحداثها فالزمان وعاء الأحداث .

وقد يقع الحدث فى الزمن الماضى فيكون له من التأثير وشدة الوقع على النفوس ما يجعله يأخذ بالألباب حين وقوعه ، وما يجعله يدهش القلوب ساعة يفاجئ القلوب لأول مرة .

والأحداث التى تقع فى الزمان ويكون لها نفس التأثير تصنع معالم على مساحة الزمان ، تتباهى بها العصور التى وقعت فيها على سائرها .

وحين يمر التاريخ تذكر الأجيال هذه الأحداث التى صنعت هذه المعالم فى نشوة وإكبار ، وفى إعزاز وتقدير .

والأجيال تذكر هذه المعالم وتتخيلها لحظة وقوعها ، وتأخذ رحيق آثارها فتدخله إلى عقولها وأرواحها ، كى تتمثله وتنتفع به انتفاعا يساعدها على استقبال الحياة بهمة لا يعتريها فتور ، وبنشاط لا يخامره كسل .

إن الأجيال لتنظر إلى هذه المعالم على خريطة الزمان كلما مر بها التاريخ واستدار بها الزمان على هيئته التى خلقه الله عليها ، فتعجب بهذه المعالم وتسموا بآثارها ، وتذكر الأسلاف الذين وقعت على أيديهم هذه الأحداث التي شكلت هذه المعالم على جبين الزمان ، فتتفاخر بعظمتهم ويسموا كل واحد منهم بالانتساب إليهم .

يحدث هذا كله فى كل جيل يكون خير خلف لخير سلف .

ويحدث هذا كله فى كل أمة جاءت بعد الأمة التى صنعت هذه العظمة ونسجت لحمتها وسداها .

وما أعرف أمة فى التاريخ تنكر خلفها لسلفها مهما كان النكر كثيرا أو

قليلاً إنما الذى أعرفه من خلائق الأمم أنهم جميعا يتفاخرون بأسلافهم ويذكرون للأسلاف ما وقع على أيديهم من خير ، وما تسببوا به فى رفع شر.

والأمة التى تحترم عظماءها هى الأمة التى يحترمها الزمان ويسمو بها المكان ، ويتفاخر بها الكون كله .

والقبح لا يتحدث فى شئ قدرما يتجسد فى أمة اعتدت على عظماءها وتنكرت لخير الأخيار فيها .

ما شئ أقبح فى التاريخ من جيل رأى أن يقطع صلته بالماضين ويدعى فى حمق أنه نبت شيطانى لا يعرف له أصلا ، ولا يهتدى له بين الأمم إلى تاريخ .

أما أسوياء الناس فهم أولئك النفر الذين يعلمون أن الإنسان من بين سائر الكائنات هو الكائن الذى يصنع أفراده تاريخه .

وإن أسوياء البشر هم الذين يدركون أن الله قد كلفهم بعمارة الأرض وصنع الحضارات فى مبدأين عظيمين .

الأول : أن يتحملوا منهج الله فى الأرض يرسون قواعده ، ويقيمون من أنفسهم سدا منيعا فى وجه كل عدو أو شيطان يريد أن يعبث بمنهج الله أو يحاول أن يطفئ نور كلمته .

والثانى : أن يقوموا جميعا بعمارة الأرض بصنع الحضارات عليها ودفع كل شئ فيها إلى الأمام بتحسينه ، وتنميقه ، وتحويله إلى وجه أفضل يمكن بنى الإنسان من أن ينتفعوا به على أحسن وجوهه .

إن أسوياء البشر على كل حال إنما هم الذين يحترمون أسلافهم الذين التزموا هذين المبدأين ، وعالجوا الحياة على أساس منهما .

وما من أمة من الأمم توفر لها من العظماء كما وكيفا قدر ما توفر لأمة الاسلام .

وهذه ليست دعوة تطلق هكذا بغير دليل أو بغير ضابط ، وإنما هى دعوة يؤديها العقل والمنطق ، ويقوم بالاستدلال عليها الواقع المشاهد المحسوس ويحتفظ التاريخ فى سجلاته بكم هائل من الوقائع يغنينا عشر معاشرة عن المقال ويغنينا عشر معشاره عن أن نحتاج إلى إقامة حجة ، أو الاحتياج إلى استدلال.

وسنام قمة العظمة فى التاريخ كله قد احتفظ به الكون لنبى الإسلام ورسول الله للمسلمين يتربعه وحده ، ولا يتربعه معه سواه ، فيبقى هو المخلوق الوحيد قد شهد الله له بعظمة الخلق " **وإنك لعلى خلق عظيم** " [1]

ويبقى هو المخلوق الوحيد قد احتفظ الله له بدرجة القدوة ووجه عباده إلى أن يقتدوا به " **لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنه لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا** " [2]

وهذه القدوة المطلقة حين تمثلت فى النبى صلى الله عليه وسلم ، وفق الله نبيه إلى أن يربى جيلا يكون الواحد منهم محل القدوة فى جانب من جوانب الأخلاق تكون فيه فى محل الظهور ، لا تخفى على أحد إلا كما يخفى نور الشمس على من فى عينيه عطب .

وهذا الجيل نفسه قد سلم الراية للجيل الذى يليه فكان فى الجيل التالى لهم أفذاذ شهد التاريخ لهم بالعظمة كما شهد لأسلافهم .

فاتسعت رقعة الحضارة الإسلامية حتى عمت كثيرا من البقاع وشهدت لهم الأمم إلا من كان فى قلبه شنآن عليهم .

وأنت لا يغضبك شئ يا صاحبى قدر ما يغضبك مجموعة من الطباع انتظمت أناسا من البشر شكلت جماعات وأمم قد وضعوا جميعا فى مزابل التاريخ على توالى العصور وكلما دخلت أمة إلى مزبلة من مزابل التاريخ

---

[1] القلم : ٤

[2] الأحزاب : ٢١

لعنت أختها حتى إذا اداركوا فيها جميعا قالت أخراهم لأولاهم إنكم أنتم المسئولون عنا حيث صببتم الضلال فى آذاننا صبا .

أما أولاهم فإنهم قالوا لأتباعهم حين استقر الجميع فى مزابل التاريخ ما كان لكم علينا من فضل ، وإنما سعيتم كما سعينا إلى إضلال الناس عن مقاصدهم حين لبسنا لهم جميعا لباس العلماء والمصلحين ، ابتغاء أن نحصل منفعة تملأ البطون أو تملأ الجيوب ، أو ندعى وجاهة اجتماعية رجونا أن يمنحها الناس لنا ، فكان مصيرنا وإياكم هذا المستنقع الذى صرنا إليه ، وتلك اللعنة التى شيعنا بها الناس ، وما كان لنا عليكم من سلطان كما لم نستفد منكم نفعا إلا أن دعوناكم فاستجبتم لنا ، فما أنتم بنافعين اليوم ، وما نحن بمنقذيكم من لعنة التاريخ .

وهذا الصنف من الأمم هم أولئك الذين سيتحاجون فى نار جهنم على نحو ما قال ربنا جل وعز حين يجمع بينهم فى يوم الفصل والحساب " **قال ادخلوا فى أمم قد خلت من قبلكم من الجن والإنس فى النار كلما دخلت أمة لعنت أختها حتى إذا اداركوا فيها جميعا قالت أخراهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلونا فأتهم عذابا ضعفا من النار قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون * وقالت أولاهم لأخراهم فما كان لكم علينا من فضل فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون * إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سم الخياط وكذلك نجزى المجرمين * لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش وكذلك نجزى الظالمين**" [1]

إنك يا صاحبى لن يغضبك شئ قدر ما يغضبك هذه الطباع التى انتظمت مثل هذه الأمم ، أصابها الشنآن فملأ قلوب أفرادها ، ونزعت إلى إيذاء الأسوياء حتى بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر .

ويشتد غضبك من بين هؤلاء على أفراد عمدوا إلى القمة ، فنظروا إلى

---

[1] الأعراف ٣٨-٤١

الجالس على سنامها ، وقد امتلأ قلبهم عليه وعلى أمته حقدا وحسدا فأرادوا أن يقطعوا ما بينه وبين أمته من أواصر المودة ، وأن يرفعوا روح المتربع سنام القمة عن المجتمع الذى يضم أتباعه ومحبيه آملين أن يحصلوا على مجتمع بغير روح ،وعلى أمة بغير دليل ، وعلى أناس قد فقدوا الاهتداء إلى قمتهم فضلوا السبيل .

وهؤلاء الذين امتلأت صدورهم بالشنآن على هذا النبى القدوة ، وعلى أفراد أمته الذين لا هم لهم إلا أن يبلغهم الله محبته ، قد اصطنعوا لأغراضهم أساليب وحيل ، وقسموا أنفسهم طوائف وشيع

طائفة تسعى بين المسلمين بدعوى أن ألقاب النبى بدعة واحترامه شرك

وطائفة تسعى بين المسلمين بدعوى أن تنكر الأحداث التاريخية المرتبطة بالنبى خروج على سنة النبى ، وعصيان لأمر الله .

وطائفة قد خرجت على المسلمين بدعوى أن النبى قد فشل فى تربية جيله الأول ، وقد خلف وراءه جماعة من الناس ، ليس لهم من هدف إلا الخروج على تعاليم النبى ، وقد يمثلون لدعواهم تلك بكبار الصحابة ونجوم الأمة الزواهر.

وطائفة منهم قد خرجت على الأمة تهاجم الشريعة وتقول :إنها غير صالحة لصنع حضارة ، فإن أردنا أن نتقدم فإنه يجب علينا أن نغسل أيدينا من الشريعة الموروثة بالماء والصابون.

وطائفة قد خرجت على الناس بدعوى أن الشريعة ماضية إلى يوم القيامة ولكن بشرط أن نقوم بتعديل مصادرها الأولى ، أو فى أقل القليل تعديل القواعد التى تعيننا على الاستنباط من هذه الأصول .

وطائفة قد ازورت عن هذا كله وخرجت على الناس لتقول لهم هذا محمد صلى الله عليه وسلم بشر يعتريه ما يعترى البشر ، وليس له من فضل إلا أن يكون فضلا يساوى فضل عامل البريد (**وأعتذر لصاحب هذه الرسالة**

فحاكى الكفر ليس بكافر)يأتى بالرسالة يبلغها إلى أصحابها ، ثم تنتهى مهمته عند هذا الحد .

وهذه الطائفة قد تشدقت بقول الكفر حين قالت : إن سنة النبى من عمل الشيطان ، ولا يجوز الاعتماد عليها ، ولا الأخذ منها .

وطائفة من القوم قد عمدت إلى القرآن الكريم تدعى أنه كلام بشر ولنا أن نتصرف فيه ، كما نتصرف فى كل النصوص الواقعة تحت أيدينا ، وتجرأ بعضهم فقال : إنه لاحاجة لنا فى القرآن المدنى ، ولا حاجة لنا فى ممارسات النبى بعد أن هاجر من مكة إلى المدينة .

طوائف وطوائف ينتشرون بين الأمة بياض النهار ، ثم يجمعهم سواد الليل فى مكان واحد يراجعون حصيلة الضلال والإضلال ، يجمعونها فى سلة واحدة ويقدمونها إلى من يعملون لحسابهم حتى يأخذوا عليها المكافآت كل على قدر خيانته لأمته ووطنه ، وكل على قدر ما ينال من هذا الدين ونبيه الذى جاء به .

لقد تأملنا هذا كله فى عصور مضت وسنوات توالت ، ونبهنا الأمة التى ننتمى إليها قدر الاستطاعة إلى ما أدركناه من هذه الخيانات وأصحابها طالبين رضا الله وحده ، ومصاحبة نبيه وأن يكتب الله السلامة لهذه الأمة .

واليوم نحرص أن نقدم للناس هذه الورقات فى ساحة النبى صلى الله عليه وسلم الذى شدا الشاعر بين يدى روحه الشريفة بقوله .

تتباهى بك العصور وتسمو

بك علياء بعدها علياء

لك ذات العلوم من عالم الغيب

ومنها لآدم الأسماء

اليوم نحرص أن نقدم للناس ونحن فى ساحة النبى صلى الله عليه وسلم صورة معلم من معالم التاريخ التى صنعها الله عز وجل بقدرته الخارقه لكى تكون منارة للناس تصور استقبال الكون للنبى صلى الله عنيه وسلم حين أراد

الله أن يخرج النبى إلى العالم حدثا فريدا ، ونموذجا فذا ، تهيأت الدنيا لاستقباله ، ومهدت الأحداث لظهوره .

نريد اليوم ومن خلال هذه الورقات أن نقول للدنيا إنه يجب على الجميع أن ينتظروا اليوم الذى ولد فيه النبى صلى الله عليه وسلم فى كل أسبوع وأن ينتظروا الشهر الذى ولد فيه النبى صلى الله عليه وسلم فى كل عام ، وأن يهيئوا أنفسهم لهذا الاستقبال ، بحيث يقومون على قدم وثاق يشكرون الله عز وجل على نعمته الكبرى على هذا الكون " **وما أرسلناه إلا رحمة للعالمين** " كما تستعد جميع الأمم أن تشكر الله عز وجل على نعمه التى أنعم الله بها عليهم وأعلاها المناسبات التى تتصل بإنعام الله على أنبيائهم .

إننا خلال هذه الورقات فى هذه المناسبة وفى ساحة النبى ، نريد أن ننبه الأمة إلى أن هناك طوائف يريدون أن يقطعوهم عن تاريخهم فتجافيهم السعود ، وينحدرون إلى مهاوى النحوس حتى يرتطم كل واحد منهم بالقاع لا ينقذهم من هذه الوهدة إلا أن يربطوا أنفسهم بالقمة وبالجالس على سنامها .

أما النبى صاحب هذه الساحة فلا يضره أن يزور عنه الناس ، ولا ينفعه أن يقبلوا عليه ، إلا أن يكون فى خلقه أنه يكاد يبخع نفسه على من يزور عنه حزنا عليه ، وأنه يسر إلى حد لا نعرف مداه حين يوفق إلى الإنسان يصغى له كى يدخله الجنة، ويتبعه فينقذه من عذاب النار .

فى ساحة النبى صلى الله عليه وسلم نتمنى أن يكون لنا شرف لفت أنظار الأمة إلى ما يراد بها ، وشرف أن نأخذ بحجز بعضها مهما كان هذا البعض فننقذه من فتنة نبصره بها ، ومن وهدة نضع لافتة التحذير على أوائل دركاتها .

والله أسأل أن يرزقنا التوفيق والسداد ، وأن يجنبنا الخطأ والزلل ، وأن يجعل عملنا خالصا لوجهه هو حسبنا ونعم الوكيل .

آمين **أ .د / طه حبيشى**



الفصل الأول

إعداد الساحة على مستوى الرجال



إجمال

حين نتحدث عن النبى صلى الله عليه وسلم باعتباره بطل الساحة التى سنحاول الدخول إليها بأرواحنا كما حاول غيرنا من قبل الدخول إليها بأرواحهم فإنه لابد أن نعود عبر التاريخ فى رحلة زمنية إلى الوراء تصل بنا إلى هذه الساحة فى نشأتها الأولى ، كيف أعدها الله سبحانه وتعالى قبل أن يأتى ببطلها إليها ، وكيف مهدها له تمهيدا يجعله حين يدخلها متوائما معها تحتضنه عيون الناس قبل قلوبهم ويستقبله فيها الزمان فاتحا ذراعيه ، ثم يطبقهما حوله إطباق المشتاق الذى ظفر بطلبته التى اشتاق إليها ، ويخشى أن تضيع منه ، فهو يستمسك بها استمساك المحيط بالشئ الذى يحيط به لا ينفلت منه قليل ولا كثير ، أما المكان نفسه فهو يستقبل هذا البطل القادم بأضوائه الساطعة وزينته التى تناسب القادم الجديد ، وابتسامته التى تملأ الجوانب كلها لا تبقى منها شيئا يتوارى خلف اكتئاب سببه ثقل الماضى وعوار الآثام .

إننا إذا أردنا أن نتحدث عن النبى صلى الله عليه وسلم من خلال الدخول بأرواحنا إلى ساحته فى مناسبته الزمنية ، فإننا لا مفر من أن ندخل الى الساحة بأرواحنا ونحن نتصور إعداد الساحة لاستقبال النبى ، يوم أن أعدها الله لاستقباله أول مرة.

وكل من يتصور التاريخ بأحداثه ، وكل من يعيش الزمان قبيل ظهور النبى صلى الله عليه وسلم بروحه ، وكل من يتخيل مكة قبل قدوم بطل الساحة ونبى الإنسانية بمخيلته ، إن كل من يتصور هذا كله سيجد من خلال تصوره أن كل شئ ناطق بأنه جزء لا يتجزأ من مشروع عظيم اسمه إعداد الساحة لاستقبال النبى القادم .

ولقد تم إعداد الساحة حقا على مستويات عدة .

ومن بين هذه المستويات هذا اللون العجيب من اصطفاء متعمد ، ومراد

لجماعة من البشر ظلت تنحصر وتنحصر بفعل هذا الاصطفاء المعتمد حتى تمركزت فى شخصين اثنين هما عبدالله وآمنة أبوى النبى .

وسوف يظهر لكل متأمل أن عبدالله وآمنة ، كأن الله أرسلهما إرسالا لأداء وظيفة واحدة ومحددة ، هى إنجاب النبى صلى الله عليه وسلم .

والذى يشهد لما نقول أن عبدالله الأب حين ألقى بأمانته إلى رحم آمنة بنت وهب ، قبضه الله إليه وأقبره فى المدينة المنورة لأمر ستتضح حكمته فيما بعد .

أما آمنة فقد بقيت إلى أن أتمت الحمل ، وأشرفت على فترة الطفولة الأولى التى لا يقوم بمثلها إلا الأمهات ، ثم ذهبت بوليدها الذى هو بطل الساحة لتوثق صلته بالمدينة المنورة ، دون أن يكون فى ذهنها شئ من الحكمة التى ستتضح لنا فيما بعد ، ثم تموت وتدفن على الطريق بين مكة والمدينة على مرأي من النبى صلى الله عليه وسلم ومسمع .

أعدت الساحة من هذا الجانب على مستوى الرجال .

ثم أعدت الساحة مرة أخرى على المستوى الاجتماعي ، حيث شاء الله عز وجل أن يمهد للقادم الجديد بتمهيدات من خوارق العادات فى سلوك الناس ، وما يشاهدونه من عوائدهم الاجتماعية وسلوك الأشياء فيما حولهم فرأى الناس أمورا تصنف فى العجائب ، ويؤرخ لها ضمن الأشياء التى خرجت عن أسبابها وتأبت على أعراف الناس .

ثم هناك لون آخر من الإعداد يتصل بالاعتقادات ، وهو جانب هام من جوانب الثقافة التى تشكل العقل الإنساني فى كل زمان .

إنه مما لا شك فيه أن الاعتقادات تلعب دورا كبير فى إعادة تشكيل العقل الجماعى والفردى على السواء .

ومما لا شك فيه كذلك أن الله قد شاء أن يحيط الساحة بمجموعة من أهل الكتاب اليهود والنصارى ، يشيعون بين الناس أن هناك نبيا قادما ، وأنه قد

طال انتظاره ، وأن مجيئه سيناط به أمران عظيمان :

أحدهما : إشاعة الأمن الداخلي بإصلاح العقيدة .

وثانيها : إشاعة الأمن الخارجى بإصلاح الشريعة.

إنها عناصر قد ائتلفت كلها وتضافرت جميعها لتجهيز الساحة أول مرة لاستقبال بطلها صلى الله عليه وسلم بوصفه واقعا تاريخيا سيكون هو الجواب الحقيقى عن السؤال الضخم الذى سأله الكون والناس لرب العباد فهم جميعا يقولون قبيل ظهور النبى صلى الله عليه وسلم : **ربنا لقد غاب الأمن بنوعيه ، ووقع التنافر بين الكون وبنى الإنسان ، فمن الذى سيحدث الوفاق ، ومن الذى يشيع الأمن ، فكان النبى هو الجواب .**

تلك كلمة مجملة اتضح لنا من خلالها أن هناك عناصر قد ائتلفت وتجاورت ، فأعدت الساحة لاستقبال النبى صلى الله عليه وسلم لأول مرة .

إنها كلمة مجملة اتضح منها أن النبى صلى الله عليه وسلم كان مطلوب التاريخ الذى سئم تسجيل الآثام فى تصرفات الناس ، وتسجيل الأعوجاج فى عقائدهم ، وأن النبى صلى الله عليه وسلم هو مطلوب مجتمع هو من أوسط المجتمعات على مستوى المجتمعات آنذاك الذى يصلح لاستقبال نبى جديد وأن النبى صلى الله عليه وسلم هو مطلوب اصطفاء فى الرجال لم يعد بعده إلا أن يخرج صفوة الاصطفاء ولا يكون صفوة الصفوة إلا نبى .

إنها كلمة مجملة تحتاج ضرورة إلى بسط وتفصيل ، نقف أمام كل عنصر من العناصر ، أو مطلوب من المطلوبات اللذين ظهرا لنا ونحن نتأمل الساحة حين أنشئت وأعدت أول مرة لاستقبال هذا النبى المرسل ، فنفصل القول تفصيلا فى كل عنصر أو مطلوب على حدة بقدر ما يتاح لنا من الوقت وبقدر ما يفيض الله علينا به من التوفيق .

رجال لهم تاريخ

حين أراد الله عز وجل أن يعد الساحة لاستقبال النبى صلى الله عليه وسلم ، كان من مشيئته أن يدخل الرجال الذين انحدر النبى من أصلابهم عنصرا مهما فى إعداد الساحة لعظيمها القادم .

وقد يظن الظانون أنه يكفى فى كل رجل مر النبى من صلبه ، أن يكون كبير النفس ، عفيف الطبع ، تملأ إهابه الرجولة .

وهذه الصفات وإن كانت ضرورية إلا أنها لا تكفى لتصوير جوانب العظمة فى أهم نواحيها ، إذ العظمة تكتمل إذا أضيف للصفات التى ذكرناها اهتمام الرجل بمجتمعه وبنى نوعه ، فالعظيم لا يكون عظيما إلا إذا توفرت له القدرة ، وأبى إلا أن يستعملها فى صالح الآخرين ، ولو كلفه هذا الاستعمال شيئا من الإرهاق الذى يعانى من آثاره وشيئا من العنت الذى ينوء به كاهله ، وشيئا من المشقة التى يسر فؤاده بقسوتها وشدة وطأتها .

وإننا إذا تأملنا التاريخ الخاص بأجداد النبى صلى الله عليه وسلم فإننا لن نخطئ مواطن العظمة فى كل رجل منهم ، ولا تخطئنا هذه المواطن أن تقابلنا فى مسيرتنا ، وأن نفهم عنها مضامينها .

ونحن إذا ما حاولنا أن نبحث عن مواطن العظمة فى نماذج من أجداد النبى صلى الله عليه وسلم ، فإننا سنحاول أن تكون هذه النماذج من أجداده الأقربين ، توخيا للسلامة من الجدل الذى يثيره دائما هؤلاء القوم الذين هوايتهم إثارة الجدل ، بل قل إن إثارة الجدل قد أصبحت فى هذا الزمان صناعة يصطنعها من يجيدونها ابتغاء الرزق ، وحرصا على تحصيل أسباب المعايش ، ونحن فى غنى عن أن تمد هؤلاء وهؤلاء بالأسباب التى تساعدهم على ما يريدون أو تحقق لهم الأجواء التى يبتغون .

إننا سنحاول أن نبرز مواطن العظمة فى رجال من أجداد النبى صلى

الله عليه وسلم الأقربين . ليتمكن التاريخ الثبت من أن يكون شاهد العيان الذى يؤيد مقولتنا ، ويعضد موقفنا ، ليصبح القول فى كل مرة هو قول الفصل المؤيد بالدليل ، المشفوع بالحجة .

قصي بن كلاب

وسنبدأ هذه النماذج بـ (**قصى بن كلاب**) وهو الجد الخامس للنبى صلى الله عليه وسلم لأبيه .

و (**قصى**) هو لقب هذا الجد ، وليس هو العلم الذى تسمى به يوم ميلاده .

أما اسمه الذى سمى به فهو (**زيد بن كلاب**)

وليس اسم أبيه (**كلاب**) مما يعير به الأبناء ، أو يذم به الأحفاد لأن العرب قد درجوا على أن يسموا أولادهم لأعدائهم ، وأن يسموا عبيدهم لهم فأنت ترى الواحد منهم إذا سمى ولده ، يسميه بأبشع الأسماء وأكثرها إثارة للرعب ، حتى إذا ما أقبل عليه العدو ، أو أثيرت المعارك ، وتنادى الناس للمبارزة ، قال قائلهم : اخرج يا كلب لعدونا فاصرعه ، أو يقول اخرج ياليث لهذا المتجرئ فاقتله.

وتسمية العبيد على غير هذا النسق ، إذ هم يسمون عبيدهم لهم فيختارون لهم من الأسماء ما يريح الأذن ، ولا يثير فى النفس شجن ، ولا يحدث فى الفؤاد قلق.

إن صاحبنا على كل حال قد سماه أبوه (**زيدا**) ولقب بعد ذلك بـــــــــ (**قصى**).

أما سبب هذا اللقب ، فهو أن أباه (**كلابا**) لم يعش بعد ولادته إلا يسيرا من الزمن حيث مات وولده ما يزال رضيعا .

وكانت أمه (**فاطمة بنت سعد بن سيل**) ما تزال شابة للرجال فيها رغبة و لها فيهم مثل ذلك ، وحدث أن تزوجها(**ربيعة بن حرام بن ضبة**) وهو ليس من أهل مكة ، ولا هو قريب منها ، فارتحل بزوجته وابنهـــــــا (**زيد**) إلى مكان إقامته بين أهله وعشيرته ، وأنجب ربيعة من فاطمة ولدا

أصبح شهيرا بعد ذلك فى التاريخ اسمه (رزاح بن ربيعة) هو أخو (قصى) لأمه .

وربى (قصى) فى حجر (ربيعة) بعيدا عن مكة ، فسمــــــى لذلك (قصيا) إشارة لهذا البعد البعيد عن مسقط رأسه .

ولما شب (قصى) وأصبح مدركا للأشياء ، مميزا للأحداث ، عيره أقرانه لغربته وتربية (ربيعة) له ، ولم يكن يعرف له أبا غير (ربيعة) فعاد إلى أمه يسألها ، ويشكو إليها صنيع أقرانه به ، فهدهدت من نفسه وأخبرته أنه أعلى أقرانه كعبا فى النسب ، وأكرمهم نفسا على ميزان التفضيل والتكريم ، وأن أباه قرشى من مكة ، وأن موطنه إلى جوار البيت الحرام ، فقرر أن يرتحل إلى موطنه الأول ، ونصحته أمه أن يبقى إلى أن يذهب مع الحجيج فى الأشهر الحرم وأستجاب (قصى) إلى نصيحة أمه ، ثم غادر أمه وموطنه الجديد وذهب مع الحجيج إلى مكة لينعم بجوار البيت ولتقر عينه بتمام المقام بين أهله وذويه .

ولـــ (قصى) صفات شخصية هى فى الحقيقة مقومات ذاته وأساس بناء رجولته .

ومن أهم هذه الصفات التى تميزه بين أقرانه خاصة وبين القرشيين عامة ، أنه كان أبعدهم رأيا ، وأصدقهم لهجة ، وأوسعهم بذلا ، وابينهم عفافا وأكثرهم حرصا على أهله .

ولقد عرفت قريش منه هذا كله فدانت له بالحجابة ، والسقاية والرفادة والندوة ، واللواء .

وما دانت له به قريش هو مصدر العظمة وشارتها معا فى مثل مجتمع مكة .

موقف يحسب لقصى :

هذا وإن الرجل قد يتميز بصفات وترتكز شخصيته على خواص ، لكنه

قد يتقوقع داخل إطار من الموانع يستسلم له ، أو يلتف حول نفسه ، متذرعا بقسوة ظروف فلا ينشط لشئ ، ولا يخف لعمل من الأعمال .

و(قصى) لم يكن بهذا الرجل الذى وصفت لك ، فلم تمنعه الموانع ولم يتذرع للخلود إلى الراحة بذريعة من الذرائع ، وإنما تأمل الظروف من حوله فسمع صوت الواجب يناديه أن يخف لإنقاذ قومه وذويه ، فاستجاب لنداء الواجب، وقام بأداء ما عليه من الالتزامات خير ما يقوم الرجل الفذ بأداء ما عليه من التزامات .

وهذا إجمال يحتاج إلى تفصيل .

وتفصيل هذا الإجمال لا أستطيع أن أوقفك عليه إلا إذا سرت معى عبر الزمان ، لنقيم معا فترة فى مكة نتأمل واقعها فى عصر (قصى) وما قبله . ذلك أن مكة فى عصر (قصى) كان فيها من أسباب الوهن الاجتماعى ما يحمل كل منصف على أن يشفق على أهلها ، فليس هناك من أسباب ضياع الأمم ولا من أسباب تهافت المجتمعات أشد من التشرذم الاجتماعى والتمزق الذى يذرى بأفراد المجتمع فى مرتفع من العواصف ، تهوى الريح بأجزاء هذا المجتمع فى مكان سحيق ، بل فى أمكنة متعددة .

ويزداد حال المجتمعات سوءا حين تضيع الأهداف من رءوس أفرادها فلا يدركون لأنفسهم غاية يعملون من أجلها ، ولا يدركون لمجتمعهم مصيرا يبذلون الجهد من أجل أن يحققوه .

وأنت خبير يا صاحبي أن المجتمعات بغير هدف تنتهى دائما إلى أن الطريق يضيع من أقدام الأفراد ، ولم يعد واحد منهم يبصر طريقا يسير فيها لأن الطرق دائما لها غاياتها ، ولها أهدافها المترتبة على سلوكها وإذا ما ضاعت الأهداف ضل الناس الطريق ، وأصبحو لا يدرون لماذا يحيون ، ولا لماذا خلقوا ، وما المصير الذى سينتهي كل واحد إليه ؟

وأنت معى يا صاحبى أن المجتمع إذا وقع فريسة لهذه الأدواء هان على

نفسه، وهان على الآخرين ، وهو لا ينتظر بعد هذا الهوان من الآخرين أكثر من مص الشفاة ، أو تقليب الكف على الكف إشفاقا على ماض تليد ، ضيعه أبناء الحاضر حين ضاعت من رءوسهم الأهداف ، وحين ضاع من بين أرجلهم الطريق .

ويا لهفى على كل مجتمع تسللت إليه هذه الأدواء ، ولم يجد له منقذا شهما ، أو عظيما مقداما مخلصا يكون هو الطبيب لمجتمعه يبرئه من كل داء.

ومكة فى عصر (قصى) وقبله ، قد شهد فيها القرشيون أسوأ أيام تجمعاتهم ، فبنى خزاعة قد غلبوهم على السهل وسكنوا الأبطح ، وألجأوا بعض القرشيين إلى سكنى الشعاب والجبال خارج مكة ، وكثيرون من أبناء قريش قد هجروا المكان ، وتركوا الأهل والأحباب حين قلبت لهم الظروف ظهر المجن ، فمنهم من ذهب إلى بلاد الشام ، ومنهم من هام على وجهه لا يدرى أين يذهب ، وما هذا كله إلا نتيجة لضياع الأهداف التى توحد بين أفراد الجماعة ، وبضياع الأهداف ضاع كل شئ حتى التجمع ذاته .

وحين عاد (قصى) من غربته التى أقصى إليها على غير اختيار منه تأمل حال أهله وذويه ، ولم يشارك الغرباء مص الشفاة ولا تقليب الأكف وإنما وضع لنفسه هدفا عاهد ربه على أن ينفذه ، وصمم بينه وبين ذاته على أن يقدمه هدية لأهله وخدمة لذويه.

وهذا الهدف الذى حدده لنفسه هو أنه قد قرر أن يلم شعث قريش ، وأن يجمع ما تفرق منهم أولا ، ثم يضع لهم الأهداف التى تجعل من اجتماعهم قيمة يتحاكى بها الركبان، وتربطهم بماضيهم وماضى آبائهم الأولين .

وما كان أيسر على (قصى) أن يخلد إلى الراحة ، وأن يجلس إلى المتعة بأسباب المتعة التى توفرت له .

فالمال قد توفر له لأول نزوله بمكة ، كما توفر له أنه قد أصهر إلى (حليل

ابن حبشية) وهو من عظماء خزاعة ، حيث تزوج ابنته (حبى) بضم الحاء وتشديد الباء مع فتحها وإمالة الألف .

ولم يكن (حليل) ليوافق على هذه العلاقة الجديدة لولا هذه المعرفة التى لا تخطئ الناظرين بنسب (قصى) وخطر هذا النسب .

و(حليل) هذا كان فى زمانه السيد المطاع فى قومه ، حيث كان المسئول عن البيت الحرام ، حيث كان هو صاحب الرأى والكلمة فيمن حوله من خزاعة .

ولقد أثمر هذا الزواج بنين وبنات أنجبهم وأنجبهن(قصى) من (حبى) .

ولما أوشكت الوفاة أن تدرك (حليلا) أوصى بسدنة البيت لابنته (حبى) .

ولم تكن (حبى) لتقدر على مهمات سدنة البيت فتركته لأخيها .

ولم يكن اخوها هذا سليم العقل ، ولا سوى السلوك ، فأشترى منه زوج أخته هذه الميزة بثمن بخس .

أقول : ما كان أيسر على (قصى) أن يخلد إلى الراحة ينال من المتعة والشهرة والمكانة الاجتماعية التى توفرت له أسبابها ، لولا أن العظيم دائما قلق ومضطرب .

وقلق العظماء واضطرابهم ليس عن خلل فى الطباع ، وإنما هما ناشئان عن عظمة النفوس التى قال الشاعر عنها :

إذا كانت النفوس كبارا

تعبت فى مرادها الأجسام

حدد (قصى) هدفه وسار خلف الهدف يعمل على تحقيقه ، فذهب إلى قومه فى كل صقع من الأصقاع يجمع متفرقهم ، ويلم شعثهم ، ويرد غريبهم إلى وطنه آمنا مطمئنا .

ولما اجتمع له الناس ، واجتمعت قريش فى مكة ذكروا للرجل فضله وتغنوا بمسلكه ، وسموه مجمعا .

وظل الأحفاد يتفاخرون بهذا المسلك شعرا ونثرا حتى قال قائلهم شعرا :

أبوكم قصى كان يدعى مجمعا ... به جمع الله القبائـل من فهـــر

وأنتم بنو زيد وزيد أبوكـــم ... به زيدت البطحاء فخرا على فخر

جمع (قصى) أهله من كل صقع ، وأتى بهم من كل مكان دان أو بعيد وأصبحوا جميعا فى مكة إلى جوار البيت العتيق بيت أبويهم إبراهيم وإسماعيل .

غير أننا عند هذا الحد مع كل قارئ نتساءل هل قنع (قصى) بهذا العمل الضخم ووقف عنده ، أم أن له تطلعات بعد هذه الخطوة يحب أن يصل من خلالها إلى أداء بعض الخدمات فى أهله وذويه ؟

وأنا أقول لك يا صاحبى : لو أن (قصيا) وقف عند هذا الحد لما كان قد فعل شيئا أكثر من أن يكون قد جمع أهله و ذويه إلى مصير مجهول وأتى بهم على تجمع إلى غير نظام أفضل منه أن يتركهم للشتات والضياع وأفضل منه أنه كان ينبغى أن يتركهم فى سباتهم يسليهم وهم الأحلام بمستقبل قريب أو بعيد .

وعظمة (قصى) لا تسمح له أن يقف عند هذا الحد الخطر ، ولا تبيح له أن يوقف قومه على شفا جرف هار متهالك ، لا يلبث أن يهوى بهم إلى قاع مظلم ليس إلى خروج منه من سبيل .

ولذا قد فرضت عظمة (قصى) على صاحبها أن ينتقل سريعا إلى الخطوة التالية .

والخطوة التالية هى العمل مع قومه من أجل استرداد الحق المسلوب .

والحق المسلوب هو جوار هذا البيت ، والإقامة فى بطاح مكة ، فما البيت إلا ميراثهم الحقيقى من إبراهيم وإسماعيل ، والأوضاع مقلوبة.

فأصـــــحاب الحق يمنعون من حقوقهم ليتمتع بها غيرهم من خزاعة ومن حالفهم.

حدد الرجل لنفسه هدفه ، وفاتح لقومه فيما هو مقدم عليه ، فشهدوا له بسلامة الرأى وقوة العزيمة ، وانهم قد رأوا فيه ضالتهم المنشودة ، ثم بايعوه على الإخلاص له ، والانصياع لأمره ، والسير خلفه أينما سار .

ما أخذ بالقوة لا يسترد بغير القوة :

وعلم (قصىَ) أن ما هو مقبل عليه ليس أمرا هينا ، وأن خزاعة لن تسلم له بسهولة .

والرجل الفذ هو الذى لا يعتمد على قوة السلاح وحدها ، وإنما يعمد إلى إعمال عقله كى يحقن الدماء فى أهله وفى أعدائه على السواء ، ما استطاع إلى ذلك سبيلا .

و(**قصى**) كان رجلا فذا يدرك من الأمور أسلمها ، ومن الغايات أقربها منالا ومن الطرق إلى الغايات أكثرها استقامة .

فخلا لنفسه وفكر وقدر ، وكان ما انتهى إليه ، أنه يجب أن يأخذ سدانة البيت من أبى (**غبشان**) واسمه(**المحترش بن حليل**) أخو (**حبى**) زوجته التى تنازلت لأخيها عن سدنة البيت ، وهو حق قد أوصى أبوها لها به ، وعجزت عن القيام بهذا الحق على نحو ما عملت .

وما فكر فيه (**قصى**) انقذه وأصبح مفتاح البيت فى يديه حقا مكتسبا بعد أن دفع ثمنه لـــ (**غبشان**) .

وأدركت خزاعة الخطر ، ولم ترض أن ينتقل مفتاح الكعبة منها إلى قريش ، حتى ولو كان هو حـــــــق قريش السليب ، فأعلنت الحـــرب على (**قصى**) وأرســـل (**قصى**) إلى أخيه من أمه (**رزاح بن ربيعة**) يستصرخه ، فأقبل (**رزاح**) مع أخـــوته يجيب أخاه ، ووقعت معارك بين (**قصى**) وخزاعة انتهت إلى أن تراضى الفريقان واتفقوا على التحكيم فحكموا رجلا من العرب ذا بصر بالتاريخ والأنساب اسمه (**يعمر بن عوف بن كعب**) الذى اشتهر فى التاريخ بعد ذلك التحكيم بـــ(**الشداخ**) فحكم

لقريش بمهمات البيت ورعاية الحجيج ، ووضع بينهما الدماء شدخها تحت قدميه ، وحكم بالديات .

ثم تأمل (قصى) فى حال البيت وّما حوله ، فوجد أن خزاعة تسكن الأبطح قريبا من منى ، وقريش تسكن الشعاب ورءوس الجبال حول مكة فأشار على قومه أن ينزلوا ويقيموا حول البيت ، ويبنوا لهم دورا ومنازل ولن يتعرض لهم أحد إذ أن الناس يعلمون أن هذا المكان هو حق القرشيين من ناحية ، وهم يعلمون من ناحية أخرى أن من أقام حول البيت كان آمنا لا تجوز مدافعته ، ولا يصح قتاله .

واستجاب له قومه ونزل بهم وأقاموا جميعا حول البيت .

وهكذا استطاع الرجل أن يحظى بحقوق قومه السليبة حين سار فى خطين متوازيين :

أحدهما : صارم القوة والاقتدار.

وثانيهما : حسن الحيلة والتدبير.

صيانة المجتمع بالأهداف :

ولم تغب عن عقل (قصى) فكرة أن المجتمع بغير هدف تسعى إليه الجماعة وتشترك فى تحقيقه يكون عرضه للتفكك والضياع ، فحرص الحرص كله على أن يرسم للمجتمع هدفا عظيما يسعى المجتمع إلى تحقيقه أفراده وجّماعاته ، ولا يفرط واحد منهم فى جزئية من جزئيات هذا الهدف العام .

وهذا الهدف العام الذى رسمه (قصي) لمجتمعه يلتئم من أجزاء بعضها دينى ، وبعضها اجتماعي ، وبعضها سياسي ، وبعضها حربي وقيادي .

وهذا الهدف الكلى إنما يحقق فى هذه الجماعة المحدودة أقصى ما تتميز به على سائر الجماعات فى جزيرة العرب .

وكتب التاريخ تحكى حرص (قصى) على تحقيق هذا الهدف فى

جماعته بشئ من الزهو والإكبار .

حيث قال قائلهم فيما قال : {..... فلما جمع قصى قرشيا وكان أدهى من رئى من العرب – قال لهم : هل لكم أن تصبحوا بأجمعكم فى الحرم حول البيت ؟ فوالله لا يستحل العرب قتالكم ، ولا يستطيعون إخراجكم منه وتسكنونه فتسودوا العرب أبدا. فقالوا : أنت سيدنا ورأينا تبع لرأيك . فجمعهم ثم أصبح بهم فى الحرم حول الكعبة .

وكان قصى أول بنى كعب بن لؤى أصاب ملكا أطاع له به قومه فكانت إليه الحجابة والسقاية والرفادة والندوة واللواء ، وحاز شرف مكة كله جميعا . فسمى مجمعا لجمعه قومه .

... وبنى دار الندوة . لأنهم كانوا يجتمعون فيها للمشورة وغير ذلك فلا تنكح أمرأة ولا يتزوج رجل من قريش ، ولا يتشاورون فى أمر إلا فى داره ، ولا يعقدون لواء حرب إلا فيها يعقدها لهم قصى أو بعض بنيه) .

قال أبو عبيدة ، (ولما ولى قصى أمر مكة قال : يا معشر قريش إنكم جيران الله وجيران بيته ، وأهل حرمه ، وإن الحاج زوار بيت الله فهم أضياف الله وأحق الأضياف بالكرامة أضياف الله فترافدوا ، فاجعلوا لهم طعاما أيام الحج حتى يصدوا ، ولو كان مالى يسع ذلك قمت به ، ففرض عليهم خرجا تخرجه قريش من أموالها فتدفعه إليه فيصنع به طعاما وشرابا ولبنا وغير ذلك للحاج بمكة وعرفة فجرى ذلك من أمره حتى قام الإسلام)

وقال السهيلى رحمه الله تعالى : {وكان قصى يسقى الحجيج فى حياض من أدم ينقل إليها الماء من بئر ميمون وغيرها خارج مكة ، وذلك قبل أن يحفر العجول }

أما البلا ذرى فقد روى عن معروف بن خربوذ وغيره قالوا : كانت قريش قبل قصى تشرب من بئر حفرها لؤى بن غالب خارج مكة ومن حياض ومن مصانع على رءوس الجبال ومن بئر حفرها مرة بن كعب

مما يلى عرفة – فحفر قصى بئرا سماها العجول ، وهى أول بئر حفرتها قريش بمكة وفيها يقول رجاز الحاج:

نروى عن العجول ثم ننطلق   إن قصيا قد وفى وقد صدق

بالشبع للناس ورى مغتبق

وقال آخر :

آب الحجيج طاعمين دسما   أشبعهم زيد قصى لحما

ولبنا محضا وخبزا هشما

ومن مأثوارت (قصى) أنه أحدث إيقاد النار بالمزدلفة كى يراها الناس ليلا عند دفعهم من عرفة فيقبلون عليه للضيافة ، ثم صارت سنة فى العرب بعد ذلك .

قصى يقسم الأهداف فى ولده :

أما أنا فلا يغيب عنى كما لا يغيب عنك أن العزيمة قد تجتمع فى رجل هو لها بأهل ، فإن أراد لها أن تستمر من بعده فرقها فى ولده .

وأن العظماء من الناس يجتمع فى آحادهم من الخلائق والشيم مانجده قد تفرق فى عقبه .

وإن (قصيا) لبصير بهذه الحقيقة ، فلم يشأ أن يفارق الدنيا إلا بعد أن فرق فى أولاده ما اجتمع إليه من أسباب الشرف والسؤدد ، حفاظا على استمرار هذه العزائم لتحقيق الأهداف ، جين يدفع إليها بمبدأ التنافس وحرصا على هذه الأهداف ألا تدفن بنيران الحقد تحت ركام من تراب الحسد ، حين يدفع إلى ذلك بمبدأ الغل والحقد والغيرة .

لقد كان الرجل بصيرا بسنن الاجتماع على كل حال ، فقسم فى أبنائه ما اجتمع فيه من أسباب الشرف حرصا على المجتمع كله أن لا تفتر عزائمه فى تحقيق أهدافه.

ومن أجل ذلك فقد اختص ولده (عبدُ مناف) بالسقاية والندوة ، فكانت فيه النبوة والثروة .

واختص ولده (عبد الدار) بالحجابة واللواء .

واختص ولده (عبد العزى) بالرفادة والضيافة أيام منى ، فكانوا لا يجيرون إلا بأمره .

واختص ولده (عبد قصى) بجلهمتى الوادى وهو فم الوادى أو وسطه .

وهكذا ساد بنو(قصى) وأصبحت لهم السيادة فى مكه من بعده .

حكمة وحكيم :

وبعد أن اطمأن (قصى) على ولده من الناحية العملية ، واجتمعت له الثقة فى مجتمعه ، وغلب عليه أنه قد أصبح معصوما من التشرذم والتبعثر لم يعد أمامه إلا أن يلقى إلى ولده بخلاصة تجاربه ، تكون لهم بمثابة الدستور فى الدول المتحضرة ، تجمعها كلمات قصيرة أشبه بالمواد الدستورية .

وهاك نماذج من هذه المواد التى ألقى بها (قصى) لأبنائه كما ذكرها المؤرخون .

قال (قصى) لولده :

من عظم لئيما شاركة فى لؤمه .

ومن استحسن مستقبحا شاركه فيه .

ومن لم تصلحه كرامتكم فداووه بهوا نه ، فذاك دواء يحسم الداء .

والعى عيان : أ – عى إفحام ، ب – وعى المنطق بغير سداد .

والحسود : العدو الخفى .

ومن سأل فوق قدره استحق الحرمان .

الرحيل :

وبعد هذه الحياة المليئة بالأحداث والمفاجآت الاجتماعية والدينية والاقتصادية.

وبعد أن أرسى قصى سبل الهدى الاجتماعى ، ووضع الأساس لكل مسلك رشيد ، لبى نداء ربه ومات بمكة ، ودفن بالحجون من أعلاها ، بعد أن جمع قومه من تفرق ، ورد إليهم حقهم السليب ، فسجل التاريخ له حياته بالزهو والتقدير .

عبد مناف

لم يمت (قصى) إلا بعد أن جمع قومه من تفرقهم وأسكنهم حول البيت العتيق ، وجعل لهم أهدافا يسعون إليها ويجتمعون حولها ، ووضع لهم مبادئ عامة أقرب شبها بالأطر ، أو الدساتير فى الأمم ، ثم فرق الهدف العام أهدافا جزئية ووضعها فى أبنائه صيانة لها من الضياع وحرصا على فاعليتها فى المجتمع .

فلما مات بقيت الزعامة من بعده فى أولاده لا تعدوهم إلى غيرهم .

وكان أرجح أولاده عقلا وأكثرهم ثقلا فى مجال الاجتماع ، وأطولهم قامة بين قومه وذويه ابنه (**عبد مناف**) .

و(**عبد مناف**) هو ابن (**قصى**) من زوجته (**حبى**) ، ولم يكن هو ابنه الأكبر سنا وإن كان هو **أكثر** أولاده ثقلا بين الناس .

و (**عبد مناف**) ليس هو اسمه الذى وضع له يوم ميلاده ، وإنما هو باللقب أشبه ، ذلك أن الاسم الذى وضع له يوم ميلاده هو (**المغيرة بن قصى**)

و (**المغيرة**) كما لا يخفى عليك إنما هو منقول من الوصف إلى العلمية أو الاسمية وأصله (**مغير**) والهاء فى آخره للمبالغة كـ (**علامة**).

ولقد تم بينك وبينى يا صاحبى الاتفاق على أن العرب آنذاك كانوا يسمون أبناءهم لأعدائهم ، فلا غرو مع هذا الاتفاق بينى وبينك أن نسمع أن العربى كـ (**قصى**) سمى ولده بـ (**المغير**) نقلا من الوصف إلى الاسمية ثم أثبت الهاء فى آخره أو التاء المربوطة للمبالغة .

وظل (المغيرة) ينادى بهذا الاسم بين أقرابه وأقرانه ، وبين أفراد أسرته ، إلى أن ظهرت لديه ميول دينية فسموه (**عبد مناف**)

وأنت لا تدرى على وجه اليقين ما السبب الحقيقي وراء هذه التسمية لكن الذى تدريه أن مادة (**مناف**) هى من ناف ، ينيف نيفا وهو الزيادة

والعلو والاستشراق ، وفى هذا رمز لبعض صفات (المغيرة) وتفاؤل بها .

ويبقى أن يقول الناس على غير جزم أن أمه قد وهبته إلى صنم يسمى مناة أو مناف ، فقيل (عبد مناف) ، أو (عبد مناة) أو أن هذا اللقب قد أطلق عليه لما فيه من الزيادة عن أقرانه فى الفضل وصفات الكمال ، أو أن ذلك فيه تفاؤلا بجبل كان يمتاز بالوفرة والاستشراف يسمى (مناف) .

وأنت يا صاحبي لا تهتم كما لا أهتم معك بمنزع هذا اللقب إذ المهم أن الرجل بيقين قد اشتهر به أكثر من استشهاره باسمـــــه الأول (المغيرة)

مكانته وأثره فى مجتمعه :

هذا وإنه ينبغى أن لا نهتم هنا بشئ قدر ما نهتم بالدور الذى قـــام به (عبد مناف) فى قومه ، والأثر الذى أحدثه فى مجتمعه .

وقبل إبراز هذا الدور أو الإشارة إليه ينبغى أن نشير إلى قاعدة هامة خلاصتها : أن حركات الإصلاح الاجتماعية ليست كحركات التروس فى الآلات ، وإنما هى تمتاز عن الحركات فى الطبيعة عموما بأن كل حركة فى مجال الاجتماع تحتاج إلى ترسيخ ، والترسيخ لا يكون إلا فى جو مناسب من الاستقرار والهدوء ولا يتم الاستقرار فى هدوء إلا اذا كان المجتمع كله قد اتخذ لنفسه نواة هى بمثابة المحور يدور المجتمع كله حولها دورانا منتظما قد يراه الناظر غير البصير سكونا أو توقفا وهو فى الحقيقة دورانٌ مستمر ولكن حول النواة فى غاية من الانتظام ، وفى كمال من النظام .

وبغير هذا الحال تضيع على المجمعات كل مراحل تقدمها وتفتقد المجتمعات جميع الثمار التى تترتب على ما تقوم به هذه المجتمعات من ثورات فى تفرات .

وبعد هذه القاعدة أذكرك بأن (قصيا) أبا (عبد مناف) وإخوته ، قد قام بثورة عظيمة فى مجتمع قريش حيث جمعهم وأسكنهم إلى جوار البيت وحيث رسم لهم أسُاس الاجتماع فى قواعد السلوك على السبل القوية

المستقيمة التى تصل بهم إلى أهدافهم .

وكان لابد أن تهدأ قريش حتى تستوعب الدرس ، وحتى تألف السلوك فى أدرب الاجتماع على القواعد الجديدة إلى الأهداف المرسومة .

وقريش لن تستطيع أن تفعل ذلك إلا بعد أن يقدر لها القدر نواتها التى هى بمثابة المحور الذى تدور حوله فى حركة هادئة منضبطة يدركها العقلاء من الناظرين ، ويحسبها غير العقلاء ثباتا يشبه السكون الذى لا حركه فيه .

ولم يكن فى مجتمع مكة بعد رحيل (**قصى**) من يصلح إلى القيام بهذا الدور سوى (**عبد مناف**) الذى توفر له كثرة فى الخلق ، ووفرة من الرشاد وكثير من الاستشراف .

التفت قريش كلها حول (**عبد مناف**) ويدرك عقلاؤها أن الحفاظ على المجتمع هو غاية الجميع من هذا الالتفاف ، فقال قائلهم شعرا يصور المعانى التى ذكرت لك ، ما هذا نصه بين يديك

كانت قريش بيضة فتفلقت فالمح خالصه لعبد مناف

وكلمات الشاعر واضحة الدلالة خاصة إذا علمت أن (المح) **وهو بالحاء المهملة : الصفار من البيض ، وهو أهم جزء فيه كما لا يخفى .**

ولقد جعل الشاعر (**عبد مناف**) فى قريش بمنزلة صفار البيضة من البيضة .

والعقلاء يدركون عن الشاعر ما يقصد إليه من المعانى .

وغير العقلاء لا يدركون هذه المرامى ، خاصة المتأخرون من الرواة .

فى عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم أنشدت بعض الرواة على غير فقه منها هذا البيت على غير وجهه فى محضر من النبى وأبى بكر الصديق فقالت على نحو ما روى البلاذرى .

كانت قريش بيضة فتفلقت فالمح خالصه لعبد الدار

فالتفت النبى إلى أبى بكر الصديق كأنه يسأله سؤال المستنكر هل البيت

مروى عل هذا النحو ، فقال أبو بكر لا ، بل البيت فيه : فالمح خالصه لعبد مناف .

لقد احتاج مجتمع قريش إذا إلى نواة أو محور لضبط حركتها الاجتماعية فى هذا الوقت الذى تلا العاصفة التى صاحبت ثورة (**قصى**) كى يستقر المجتمع على قراره .

ولم يكن يصلح لهذا الدور وأدائه إلا (**عبد مناف**) فقام به على خير وجه ، وأداه أحسن أداء وأكمله ، فلم يسجل التاريخ فى هذه الفترة انحرفا ولم يسجل التاريخ فى هذه الفترة اعوجاجا أو أذى .

والذى أراه أن المحور الذى يستطيع أن يضبط حركة المجتمع بعد العاصفة ، لا يقل أهمية إن لم يزد عن هذا الذى أثار العاصفة يوم أن كان المجتمع يحتاج إلى إثارة العاصفة .

وأدى قمر البطحاء أبو عبد شمس عبد مناف المغيرة بن قصى دوره فى مجتمعه على أكمل وجه ، ثم رحل بعد أن سلم الراية من بعده إلى بنيه على تفاضل بين بنيه .

رحل (**عبد مناف**) وقد ترك بنين وبنات يقف التاريخ عندهم بكل إكبار واعزاز .

ولم يكونوا جميعا أشقاء ، بل إن المؤرخين يسجلون عقبه من ثلاث زوجات :

فـ (المطلب وهاشم وعبد شمس – وتماضر ، وقلابه) أمهم عاتكة بنت مرة بن هلال و (نوفل وابو عمرو واسمه عبيد) (ولا عقب له) وأميمة أمهم وافدة بنت أبى عدى وريطة بنت عبد مناف ، ولدت فى بنى هلال بن معيط من بنى كنانة أمها من ثقيف.

والمشاهير من أبناء بنى عبد مناف الذكور هم :

هاشم ، وعبد شمس ، ونوفل ، والمطلب .

وهم الذين انتقلت إليهم الزعامة والسيادة والرياسة بعد أبيهم .

وهم الذين ارتبطت بهم حركة الإصلاح التالية فى مجتمع مكة .

هاشــــم

وأما (**هاشم**) فهو الجد الثالث للنبى صلى الله عليه وسلــم ، سمــاه أبــواه (**عمرو العلا**) .

وكلمة (**عمرو**) يسمى بها الأبوان أحد أولادهما تفاؤلا ، حيث ذهب العلماء إلى أن كلمة (**عمرو**) بفتح العين إنما تشير إلى طول البقاء ، فهى كـــ (**العمر**) بضم العين .

واستشهدوا لذلك بقول الشاعر القديم :

يارب زد من عمره فى عمري واستوف منى يا إلهى نذرى[(١)]

وعلى أساس من هذا التخريج فإننا نستعمل كلمة (**عمرو**) بفتح العين وضمها على الجواز أينما وردت ، إلا فى موضع واحد ، وهو ورودها فى القسم ، فهى فيه بالفتح دائما كقوله تعالى : " **لعمرك إنهم لفى سكرتهم يعمهون** " [(٢)]

حين ولد الجد الثالث للنبى صلى الله عليه وسلم من أبويــه (**عبد مناف**) و (**عاتكة بنت مرة بن هلال**) سمياه (**عمرو العلا**) .

وظل هذا هو الاسم الذى ينادى به فى أسرته وبين أقرانه إلى أن شاءت الأقدار أن تمنحه لقب (**هاشم**) .

ولا يحار المؤرخون فى سبب إطلاق هذا اللقب عليــه ، إذ إن معنــى كلمة (**هاشم**) هو الذى يهشم الشيء اليابس والأجوف .

و (**عمرو العلا**) حين أصبح رجلا كان فى طبعه أنه يهشم الخبز

---

(١) هذا البيت لأبى القماقم حكاه بن جنى مع تخريج كلمة (عمرو) والعودة بها إلى أصولها فى كتابة المبهج ، وانظر سبل الهدى والرشاد ج١ ص ٣١٥ للإمام محمد يوسف الصالحى تحقيق د / مصطفى عبدالرازق - طبع المجلس الأعلى للشئون الإسلامية القاهرة ١٤١٠ هـــ - ١٩٩٠ م

(٢) الحجر : ٧٢

ويضع عليه الحساء أو المرق ، حتى يمكن استساغته وازدراده ثم يضع اللحم فوقه ، ويكون هو القرى الذى يقدمه لضيفانه أو يقدمه لضيوف بيت الله الحرام .

ولقد كان هذا الخلق يصاحب (عمرو العلا) أينما حل فى سفر أو إقامة .

فهو الذي سار على سنن آبائه ، فكان يصنع الثريد للحجيج قبل يوم التروية بمكة ، كما كان يصنعه لهم فى عرفة والمزدلفة ومنى إلى أن يغادروا الحرم عائدين إلى بلادهم .

وإذا ما سافر (عمرو العلا) أو ارتحل كان يصطحب معه الزاد ويذبح كل يوم ويصنع الثريد ، ثم يدعو إليه الناس فيأكلون ولا يصد عنه أحدا منهم.

أولاد عبد مناف فى مكان الشرف من قريش :

ولقد علمت قريش بعد وفاة (عبد مناف) أن الشرف قد آل إلى أولاده من بعده ودانت لهم قريش بالسيادة .

وكان أشهر **أولاد (عبد مناف)** (**هاشم**) الذى هو جد النبى وإخوته عبد شمس ، والمطلب ونوفل .

ولقد علم أولاد **(عبد مناف)** أنهم كذلك فى مقام الرياسة و السيادة.

ولقد شاء الله عز وجل أن تبدو مظاهر الخلاف بين الأخوة من أبناء **(عبد مناف)** فى وقت مبكر ،حتى قال قائلهم :إن هاشما و عبد شمس ولدا توأمين ،وكان أولهما خروجا إلى الدنيا **(هاشم)** و لكنه قد رئى ملتصقا بجبهة أخيه أو بجزء من جسمه ، فلما عمدت القابلة الى نزعهما سال بينهما دم لهذا النزع أو بسببه ، فقال الناس : إنه سيكون بين هذين أو بين عقبيهمـــا عداء و دماء .

و لقد صح هذا التخرص ، ووقعت شواهد فى الواقع تؤيد هذا التقدير.

ففي أول الأمر نفس**(عبد شمس) على هاشم** أمورا كثيرة منها :

أن هاشما كان وضيىء الوجه ، حسن السمت ، يتلألأ كالبدر ، حتى

اشتهر بحسنه و جماله فكان من أحسن الناس و أ جملهم ، وكانت العرب تسميه قدح النضار و البدر.

قال أبو سعد النيسابورى رحمة الله تعالى فى"الشرف" : كان النور يرى على وجهه كالهلال يتوقد ، لا يراه أحد إلا أحبه و أقبل نحوه .

و بعث اليه قيصر رسولا ليتزوج ابنته لما وجد فى الإنجيل من صفته فأبى[1]

وأولاد عبد شمس قد نفسوا كذلك على عمهم مكانته على نحو ما نفسها عليه أبوهم.

ذلك أنه لما ولى هاشم بعد أبيه (عبد مناف) ما كان إليه من السقاية والرفادة و قدره الناس ، حينئذ حسده أمية بن عبد شمس بن عبد مناف فنال من هاشم .

روى البلاذرى عن هشام بن محمد بن السائب رحمه الله تعالى قال : كان أميه بن عبد شمس بن عبد مناف ذا مال فتكلف أن يفعل كما فعل هاشم فى إطعام قريش ، فعجز عن ذلك ،فشمت به أناس من قريش و عابوه لتقصيره فغضب و نافرهاشما على خمسين ناقة سود الحدق ، تنحر بمكة و إجلاء عشر سنين ، و جعلا بينهما الكاهن الخزاعى ،و هو جد عمرو بن الحميق و كان منزله عسفان.

و كان مع أمية أبو همهمة بن عبد العزى الفهرى ، و كانت ابنته عند أمية فقال الكاهن : و القمر الباهر ، و الكوكب الزاهر والغمام الماطر ، وما بالجو من طائر . و ما اهتدي بعلم مسافر ، فى منجد وغائر لقد سبق هاشم أمية إلى المآثر ،أول منها وآخر و أبو همهمة بذاك خابر . فأخذ هاشم الإبل ، فنحرها و أطعم لحمها من حضر . و خرج أمية الى الشام فأقام عشر سنين .

---

[1] انظر سبل الهدى و الرشاد ج١ ص ٣١٩

فتلك أول عداوة وقعت بين بنى هاشم و أمية .

و نحن إذا قطعنا النظر عن هذه العداوات فإننا نجد الشرف ينحصر شيئا فشيئا فى فرع من قريش ، لا يكاد يخفى على مؤرخ لشدة ظهوره .

و لا يعنى ذلك أن الشرف قد سلب من سائرهم حتى أصبحوا لا يملكون منه شيئا ،وإنما هى درجات الناس بعضهم فوق بعض على نحو ما يشاء الله عز و جل من سنن الاجتماع ، و علاقات الناس بعضهم ببعض ودرجاتهم علي مراقي الشرف .

آثار هاشم و إخوته فى مجتمع مكة:

و لقد ظل التاريخ يذكر لقريش مكانتهم و آثارهم يوم أن قام (قصى بن كلاب) بتجميع العرب من أهله و ذويه ، يجمعهم من الشعاب و رءوس الجبال ، و يأتي بهم من جميع الأصقاع التى ذهبوا إليها واستقروا بها حتى جمعهم جميعا وأقامهم حول البيت العتيق .

كما ظلت قريش وسائر العرب يذكرون (قصى) أنه أقام قومه على أساس من أسس الاجتماع المستقرة ، فحملهم على أن يهتموا بالبيت وزائريه فأنشأ وظائف السدانة ، والسقاية ،و الرفادة .

ثم أقام لقومه دارا و محلة يجتمعون فيها كلما حزبهم أمر ، وكلما ألمت بهم ظروف معتادة أو غير معتادة .

ثم أنشأ لهم فكرة اللواء و ما يتبعه من مسئوليات .

إلى غير ذلك مما علمت بحيث قد أصبح لهذه الجماعة قيمة بين الناس .

و بحيث قد أصبح لهذه الجماعة ما تعتمد عليه من عمد و أساس .

و مازالت قريش تذكر و يذكر معها العرب أجمعون ، أن هذه الجماعة قد أخذت فرصتها لالتقاط الأنفاس فى عهد (عبد مناف بن قصى) .

وها هى الآن مكة تشهد عصر أبناء (عبد مناف) و أعلاهم كعبا :

(أبو نضلة قدح النضار و البدر هاشم الخبز للقرى عمر العلا بن عبد

مناف جد النبى) .

ترى ما الحركة الاجتماعية الجديدة التى سيضيفها أبناء (عبد مناف) إلى أعمال جدهم **(قصى بن كلاب)** ؟

ثم هل يحتاج المجتمع إلى حركة جديدة و ملحة قد لاح فى الأفق أوانها و أصبحت إحدى متطلباته؟

تلك أسئلة لا يجيب عنها إلا الواقع و لا يتقفها إلا لقن ، ولا يفطن إليها إلا رشيد.

وأنت حين تنظر معى إلى مجتمع القوم فى عصرهم ، ستجد و أجد معك أن المجتمع و إن كان قد استقر على قواعده ، إلا أنه ينقصه عصب الحياة و هو الاقتصاد ، الذى يستحيل على الأمة أو الجماعة أن تحيى عزيزة النفس بدونه .

و الاقتصاد الذى هو عصب الحياة يحتاج إلى موارد تثريه ، و يحتاج إلى عدالة اجتماعية تضمن حسن توزيع عائده على مستحقيه .

ترى: هل يفهم أبناء **(عبد مناف)** هاتين الحقيقتين؟ ثم هم إذا ما فهموا هاتين الحقيقتين فهل يكون لديهم من حسن التصرف ما يجعلهم ينشطون إلى تغطية متطلبات الاقتصاد بنوعيه ؟

هنا كوامن الجدة ،و هنا مخايل النجابة و الذكاء.

فى أيام أولاد **(عبد مناف)** كانت الثروة فى يد الجماعة على غير نظام فمنهم الفقير الذى تربت يداه ،و منهم الغنى المتخم الذى ملأ الثراء كل متطلباته ،و غطى جميع أحلامه .

و لم يكن أمام الفقراء من حل إلا أن يصعدوا إلى رءوس الجبال ينتظر كل واحد منهم دوره فى مراقد الموت حين يؤذن له أن يلقى بنفسه فى مراقد الموت .

و تلك مشكلة اقتصادية اتصالها بالاجتماع اتصالا بينا ،و هى تحتاج إلى حل

سريع على يد رجل أتيح له أن يتبوأ مكان السيادة من قومه و أتيح له أن يأخذ بزمام القرار إذا أصدره لا يعقب عليه أحد ،و لا يعوقه غيره من الناس.

و هذه المشكلة اتصالها الأكيد بمسألة العدالة الاجتماعية فى توزيع الثروة بين الناس ،و التمكين للمال أن يكون دولة فى طبقات المجتمع.

وهذا أنفع للناس ،وأنفع للاقتصاد ، و أنفع للأغنياء و الفقراء على السواء.

و هناك مشكلة أخرى يدركها الناس و يشعرون بها و هى : أن مجتمع مكة مجتمع تجارى لا يصنع شيئا و لا ينتج شيئا ،إذ لا علاقة له بالصناعة و لا علاقة له بإثارة الأرض و زراعتها.

إذا فهو مجتمع تجارى فحسب .

و التجارة فيه تمارس فى أضيق الحدود ،لأن القوم ينتظرون بمكة تمر عليهم تجارة الشام فى طريقها إلى اليمن و الحبشة ،وتمر عليهم تجارة اليمن و الحبشة فى طريقها إلى الشام ،و هم يشترون من هؤلاء و هؤلاء ، ثم يتداولون ما يشترونه فيما بينهم على مدار الأيام.

و هذا الحال من الحركة التجارية حال يعرب عن ضعف النبض الاقتصادي داخل المجتمع ،الذى لا يملك من أسباب الحركة في مجال الاقتصاد سوى ما ذكرت لك عيبان عظيمان يطوقان عنق الحالة الاقتصادية لمجتمع مكة أيام أبناء (عبد مناف) **أحدهما : ضعف الإنتاج ، و ثانيهما :سوء توزيع الثروة.**

و ليس لإصلاح هذين العاملين سوى رجل رشيد أو جماعة من البشر عظمة الواحد منهم أنه يؤخر مصلحته و يقدم مصلحة الآخرين .

حل عاجل

علم أبناء (عبد مناف) و أولهم (هاشم) ما نزل ببعض قومهم من الجهد

و البلاء لشدة فقرهم ،و نقص المال فى أيديهم .

و كان هؤلاء الفقراء يعملون عند الناس أجراء ،و يسرعون إلى الخدمة حفاظا على حياتهم و حياة أبنائهم .

و لم تكن الخدمة التى يسرعون إليها و يخفون لها،تسعفهم فى كل حين إذ ربما لا يحتاج الناس إلى خدمة واحد منهم ،و حينئذ يحاصرهم الجوع إلى حد التهديد بالموت ،و كانوا يخشون العار أن يقول الناس : إنهم يموتون جوعا أو أن بعضهم يبخل بالمال على بعض ، فكانوا يسرعون إلى أماكن تخفى على الأعين ،و يستقرون بها إلى أن يقضى الله فيهم أمرا كان مفعولا لا ينقذهم من ذلك إلا أن يجدوا دخلا أو عائدا من خدمة يؤدونها أو يؤديها بعضهم للغير .

و لا شك ان فى بعض ذويهم من كانوا من أصحاب الثراء النســـبي و لكنهم لا يلتفتون إلى إخوانهم.

و المسألة على هذا النحو الاجتماعي النكد تحتاج إلى حل على يد عظيم مطاع فى قومه ،أمين على المشورة و القرار.

ولقد تحققت هذه الصفات فى (**هاشم**) سيدهم المطاع فى هذا الزمان وسرعان ما وجد (هاشم) الحل لهذه المشكلة العويصة .

والحل عنده هو أنه قد اقترح على الأغنياء أن يلحق بكل أسرة من أسرهم ، أسرة من ذويهم الذين لم يكن لهم حظ من الثراء ،على أن تكون الأسرة الملحقة مساوية الأسرة الملحق عليها فى عدد الأفراد ، على أن تقوم الأسرة الفقيرة بأفرادها بأعباء العمل فى مصلحة و أموال الأسرة الغنية مقابل أن توفر لهم الأخرى أسباب المعايش.

ثم عقب (هاشم) على هذا الاقتراح بقوله : إننا إن لم نفعل ذلك أهلكنا الاحتفاد الذى هو الإسراع فى خدمة الغير نظير ما يحصل عليه الواحد من الأجر يحفظ عليه بعض حياته و كرامته مهما كان الجهد المبذول ،ومهما

كان الأجر المعطى .

ووافقت قريش سيدها على ما قدمه من اقتراح ،ووضعته سريعا موضع التنفيذ .

روى الزبير بن بكار فى الموفقيات ،عن عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعـالى قال : (كانت قريش فى الجاهلية تحتفد وكان احتفادها أن أهل البيت منهم كانوا إذا سافت – يعنى هلكت – أموالهم خرجوا إلى براز من الأرض فضربوا على أنفسهم الأخبية ثم تناوبوا فيها حتى يموتوا خوفا من أن يعلم بخلـتهم – حـتى نشأ هاشم بن عبد مناف فلما ربل وعظم قدره فى قومه قـال: يـا معشـر قريش إن العز مع كثرة العدد ، وقد أصبحتم أكثر العرب أمـوالا وأعـزهم نفرا ، وإن هذا الاحتفاد قد أتى على كثير منكم وقد رأيت رأيا .

قـالوا : رأيـك رشـيد ، فمـرنا نأتمر . قال رأيت أن أخلط فقراءكم بأغـنيائكم فـأعمد إلى رجل غنى فأضم إليه فقيرا عدده بعدد عياله فيكون يؤازره فى الرحلتين رحلة الشتاء ورحلة الصيف ، رحلة الصيف إلى الشام ورحـلة الشـتاء إلى اليمن ، فما كان فى مال الغنى من فضل عاش الفقير وعيالـه فى ظلـه ، وكان ذلك قطعا للاحتفاد . قالوا ، نعم ما رأيت . فألف بين الناس)[1]

أساس مستقر :

وبعد هذا الحل العاجل لابد للمجتمع من أساس متين يستقر عليه .

والأسـاس المـتين لقرار أى مجتمع يتلخص فى جانبين كل واحد منهما يضخ الحياة فى شرايين الآخر .

أحدهمـا : الجـانب الفكري ، أو بالأحرى الجناب الثقافى فى المجتمع

---

(١) انظر سبل الهدى والرشاد – جـ ١ – ص ٣١٧ وما بعدها .

الـذى يضم المعتقدات والسلوك وهما مجموع ما تعتقده لجماعة وتتصرف على أساس منه.

وثانيها : الجوانب الاقتصادية بما تحتويه من أهداف الكفاية فى السلع والخدمات وتوزيعها على الأفراد توزيعا عادلا .

أما النقطـة الأولى من هاتيـن النقطتين فقد تحقق منها قسط وافر منذ أيـام (قصى) وولده (عبد مناف) من بعده ، واستقرت هذه النقطة بجميع تفاصـيلها فى جماعة قريش العامة والخاصة ، كل يقوم بالواجب الملقى على عاتقـه عـلى نحو ما بيناه من أن بعضهم كان يقوم ولا يزال بواجب الرفادة والسقاية ، فى حين أن هناك جماعة أخرى قامت وتقوم بسدنة البيت وخدمته وثالثه تقوم بواجب اللواء ، وأخيرة تقوم بتنظيم دار الندوة .

ومـع هـذه التخصصـات فقـد انتدب الأفراد جميعا إلى القيام بواجبهم الاجتماعى تجاه الآخرين من نحو المشاركة بالمال والنفس فى خدمة ضيوف بيـت الله العـتيق ، كـل ذلك فى حركة دؤوبة ومنظمة أشبه ما تكون بدولة المؤسسات ، ولكن بمقدار ما أتيح لهذه الجماعة من الظروف فى عصرها .

وأنـت خـبير يا صاحبى أن التقدم الاجتماعى وحده لا يفيد من غير أن يصـاحبه تقـدم اقتصـادي ، لأن الأمر كما قلنا لا يعدو أن يكون الجانب الاقتصـادي والجانب الاجتماعي عنصرين كلا منهما يضخ أسباب الحياة فى الجانب الآخر .

وهـذا الأمر أو تلك الحقيقة لم تكن غائبة عن أبناء (عبد مناف) وعلى رأسهم (هاشم) جد النبى الثالث .

فهـذا (هاشـم) حين أدرك الضعف الاقتصادي فى قومه ، ارتحل إلى بـلاد الشـام ومعه بعض معاونيه ليشترى من هناك بعض الدقيق وما يصلح معه من أسباب المعايش ، بقصد أن يجلبها إلى قومه .

ولقـد ذكر كثير من المؤرخين أن (هاشما) وهو مقيم بلاد الشام ، كان

كل يوم يعمد إلى شاة فيذبحها ، وإلى الخبز فيهشمه ، ثم يأتى إليه بالشاة ومرقها فيصب المرق على الخبز المهشم ثم يضع اللحم عليه ويقدمه ثريدا لمن معه ولمن يقصدونه .

وحكى المؤرخون أن أهل الشام لم تكن هذه طريقتهم فى الطعام ، فما كانوا يصبون المرق على الخبز المهشم ، وإنما كانوا يقدمون المرق واللحم مع الخبز . فيأخذ الناس الخبز يأكلونه بالمرق يأتدمون به وباللحم جميعا .

ويبدوا أن هذه الطريقة الغريبة على أهل الشام قد نقلها بعض سمار الملك إليه إعجابا أو تعجبا .

ولما كانت الحياة الاجتماعية بسيطة وساذجة أرسل (قيصر) ملك الروم إلى (هاشم) يسأله فى شأنه ، وهو يعتزم أنه يسأله فى طريقة إعداده للطعام وسبب استضافته للناس من بين الأشياء التى يريد أن يسأله فيها .

والمهم أن هذا السلوك من (هاشم بن عبد مناف) اعتقده بعض المؤرخين سببا فى إطلاق لقب (هاشم) عليه ، فى حين أن البعض الآخر يرى أن اللقب قد أطلق عليه فى مكة بسبب أنه كان يهشم الخبز للحجيج .

ولسنا هنا نتحمس لهؤلاء أو هؤلاء ، إذ بالإمكان أن نقول إن الرجل قد أطلق عليه لقب (هاشم) لهذه السجية فيه تظهر فى كل مكان سافر إليه أو أقام به .

والذى ينبغي أن يكون فى موضع الاهتمام هنا هو هذه العلاقة التى نشأت بين (هاشم) و (ملك الروم) فى الشام ، وهى علاقة استثمرها (هاشم) استثمارا قويا ، حيث درس مع الملك موضوعا فى غاية الأهمية حين طرح عليه فكرة أن يقوم أهل مكة من قريش برحلة سنوية إليه ، يقبلون عليه بتجارة اجتمعت لديهم من بلاد اليمن والحبشة ، ومما عسى ، أن يكون فى جزيرة العرب من سلع يرغب فيها أهل الشام ، ثم يعودون محملين بسلع وبضائع أهل الشام ينقلونها إلى جزيرة العرب يأخذ منها العرب ما يشاءون

ثم يذهبون بباقيها إلى بلاد الحبشة .

وحيـــن عـــرض (هاشم) هذا الاقتراح استحسنه (ملك الروم) بالشام ورأى فيه مصلحة لشعبه كما رأى فيه (هاشم) مصلحة لأهله وذويه .

وكــتب الملك كتابا أخذه (هاشم) معه ، وفيه أنه يأذن لقريش من مكة أن ينزلوا عنده بتجارتهم لا يمنعهم أحد من جنده ، ولا يردهم راد من رعاياه داخل مملكته .

وعــاد (هاشم) محملة مطاياه بالبضائع وأهمها الدقيق يمر بالقبائل فى طــريقه إلى مكة ، فيجلس إلى زعمائهم يعرفهم بنفسه فيتعرفون عليه ، ولما لا وهــو الــذى يســتقبلهم فى مواسم الحج ، ويستقبلهم طول العام فى أيام العمرة يقدم إليهم ما يناسبهم من أسباب القرى .

جــلس (هاشــم) إلى زعمــاء القبائل كل واحد على حدة ، يخبرهم أن قومـــه ســيقومون برحلة سنوية إلى بلاد الشام ذهابا وإيابا ، وهو يريد لقومه عهد أمان يأمنون به فى الطريق على أنفسهم وأموالهم .

وأنــت خبير ياصاحبى أن عهد الأمان غير عقد الحلف ، إذ عهد الأمان أدنى من حيث الالتزامات المترتبة عليه من الحلف وما يتبعه من التزامات .

فقصارى ما يتطلبه عهد الأمان هو : أن يأمن المرء على نفسه وماله .

وعهــد الأمـــان عند العرب له اسم يخصه ، وهذا الاسم هو (الإيلاف) وليـــس للإيلاف معنى فيما نعلم إلا أن يكون لقبا أو اسما لمعاهدة الأمان بين طرفين.

واســتطاع (هاشم) بهذه الطريقة أن يذهب إلى قومه ومعه خطاب ملك الروم فى الشام ، وإيلاف كل قبيلة على الطريق بين مكة والشام .

ولما جاء (هاشم) بدأ قومه أولا بالدقيق يعده طعاما لهم مع اللحم وأقبل أفــراد قومـــه يزدردون الطعام ازدراد من احوجه الجوع إلى الطعام ، فلما صـــدروا جميعا عن أطعمتهم حدثهم فى شأن هذه الرحلة التى سيقومون بها

كل عام إلى بلاد الشام ففرح القوم بهذا الإنجاز فرحا شديدا .

وهـذا الإنجـاز يظـل ناقصا ما لم تكمله خطوات مماثلة مع الأحباش ومـلكهم ومـع اليمنيين وزعيمهم ، ومع زعماء الفرس والعراق فى شرق جزيرة العرب .

ويذكر التاريخ الثبت أن هـذه الخطوات قـد أنجـزت جميعا ، أنجزها أبناء (عبد مناف) .

و (عبد شمس) أخـو (هاشم) قد ذهب إلـى الحبشـة وأخـذ لقومه من (النجاشى) ما أخذه أخوه (هاشم) من (قيصر الروم) .

وأخوهما (المطلب) قد خرج إلى حمير باليمن وأخذ لقومه مثل ما أخذ أخواه .

أما (نوفل) وهو الأخ الرابع فقد خرج إلى الأكاسرة بالعراق وما يليها وأخذ لقومه مثل ما أخذه إخوته .

وانـتظمت رحلـتا الشـتاء والصيف فى ظل عهود تجارية ، وفى ظل إيلافات مع رؤساء القبائل لم يعرف تاريخ مكة لهما مثيل .

واستطاع أبناء (عبد مناف) أن يجبروا كسر قريش ، فهم المجبرة حقا وأن يجمعوا قومهم على أساس متين ، فهم المجمعة يقينا وصدقا .

وهم الذين مهدوا لقومهم الطرق يسلكونها كيف يشاءون ، فهم المجيزون بلا منازع .

فى تاريخ الطبرى قال أبو جعفر .

(وحدثـت عـن هشـام بن محمد ، عن أبيه ، فقال : كان هاشم ، وعبد شـمس - وهـو أكبر ولد عبد مناف ، والمطلب - وكان أصغرهم - أمهم عاتكة بنت مرة السلمية ، ونوفل - وأمه واقدة - بنى عبد مناف ، فسادوا بعد أبيهم جميعا ، وكان يقال لهم المجبرون ، قال : ولهم يقال :

يأيها الرجل المحول رحله ألا نزلت بآل عبد مناف

فكـانوا أول مـن أخذ لقريش العصم فانتشروا من الحرم ، أخذ لهم هاشم

حـبلا مـن مـلوك الشـام الروم وغسان ، وأخذ لهم عبد شمس حبلا من النجاشى الأكبر ، فاختلفوا بذلك السبب إلى أرض الحبشة ، وأخذ لهم نوفل حـبلا من الأكاسرة ، فاختلفوا بذلك السبب إلى العراق وأرض فارس وأخذ لهـم المطلب حبلا من ملوك حمير ، فاختلفوا بذلك السبب إلى اليمن ، فجبر الله بهم قريشا ، فسموا المجبرين)[١]

هاشم ونهاية المطاف :

استقرت الأمور على قواعدها ، وفرح الناس لما وصلوا إليه .

وأدى (هاشم) مهمته كما ينبغي أن يؤديها الرجل المخلص لأهله .

وفى إحـدى رحلاته إلى بلاد الشام قضى نحبه بعيدا عن وطنه ، حيث مات ودفن بغزة .

ولقد شاء القدر أن يكون (هاشم) أول من يموت من أبناء (عبد مناف) .

وكمـا شـاء القدر أن يموت (هاشم) غريبا ، فقد شاء أن يموت جميع إخوته غرباء عدا (عبد شمس) فقد مات بمكة وقبر بأجياد .

أما (نوفل) فقد مات بسلمان من طريق العراق .

ومات (المطلب) بردمان من طريق اليمن .

وشهدت مكة بعد ذلك أحداثها تتوالى حدث بعد حدث .

---

(١) تاريخ الطبري – تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم – الطبعة الثانية – ط . دار المعارف بمصر – جـ٢ – ص ٢٥٢ – بدون تاريخ ، وانظر سبل الهدى والرشاد جـ ١ ص ٣١٥ وما بعدها



عبد المطلب

والجـــد المباشـــر للنبى صلى الله عليه وسلم اشتهر بين الناس بـــ (عبد المطلب)

ولذلك قصة معروفة نعرض إليها بعد قليل .

واسم الرجل عند ولادته فى أصح الأقوال (شيبة أو شيبة الحمد) .

وقـــد يكـــون سبب التسمية أنه ولد وفى مقدم رأسه شيبا ، كما يجوز أن يكون أبوه هو الذى أوصى أمه بهذا الاسم .

ولا بأس أن تعلل التسمية بهذا السبب أو ذاك ، أو تعلل بهما جميعا .

وأبـــوه هو (هاشم بن عبد مناف – قرشى) على نحو ما مر بنا قريبا

أمـــا أمه فهى (سلمى بنت عمرو) من بنى النجار ، وقيل إنها (سلمى بنت زيد بن عمرو) .

والخطـــب يسير فى الجمع بين الروايتين ، فبنوة (سلمى) لعمرو ثابتة سواء كان هو أبوها المباشر أو كان أبا لأبيها .

والذى لا نزاع فيه على كل حال أنها من بنى النجار .

إلتقاء هاشم بسلمى :

ولقـــد رتبت المقادير لقـــاء (هاشم) بـــ (سلمـــى) فـــى يثرب ، حين أراد (هاشم) أن يقوم بإحدى رحلاته إلى بلاد الشام ، وحين مر بيثرب نزل عـــلى صديقه (عمرو بن زيد) من بنى النجار ضيفا ، فمرت به (سلمى) فأعجـــبه منها ما يعجب الرجل المتطلع إلى الزواج من المرأة ، فخطبها إلى أبيها ، فوافق واشترط .

وشرط أبيها أنها لا تلد ولدا إلا فى بنى النجار .

وأنت يا صاحبى لا يأخذك العجب من هذا الشرط ، فإن المقادير أسرار والأفضـــل لـــك ولى أن نضم صنيعة القدر هذه إلى نظائره ، فإذا ما اكتملت

النظائر جلسنا معا نتأمل الموقف بتمامه .

أمـــا الآن فإنا مشغولون بمتابعة قصة الجد المباشر للنبى صلى الله عليه وسلم.

وافــق شــيخ بنى نجار على ما طلبه عميد القرشيين فى زمانه ، ورحل (هاشـــم) عن يثرب قبل أن يبنى بزوجته (سلمى) ، وفى عودته من رحلته كـــان بنو النجار قد أعدوا العروس إلى زوجها فبنى بها فى يثرب ، وحملت من هذا الزواج السعيد ، وذهب بها زوجها إلى أم القرى لتجاور البيت العتيق بين القرشيين زوجة لعميدهم وسيدهم .

فــلما أثقلت ذهب بها زوجها إلى يثرب وتركها عند أهلها لتتم حملها ثم تضعه فى يثرب إنفاذا للشرط .

وودع (هاشـــم) زوجـــته قاصـــدا الشام يعتزم أن يعود إليها فى قريب الـــزمان ، كى يحمـــلها هى ووليدهـــا إلى أم القرى ، وهما لا يعلمان أن هذا وداع لا لقاء بعده .

ومضـــى (هاشـــم) إلى وجهـــته ، وقضـــى بغزة من بلاد الشام على مشارف سيناء ، ودفن بها على نحو ما مر بك .

أما (سلمى) فقد أتمت حملها ووضعت وليدها بين أخواله ، ولما وجدوا الشيب فى مقدم رأسه أسموه (شيبة الحمد) .

وبقى (شيبة الحمد) ينمو متلألأ الجبين على أرض يثرب فى هذا الحى مـــن بنى‌النجار ، يستنشق الهواء ، ويتعرف على الأقران والأتراب ، ويضع آثاره وعرقه فى هذا الحى بين الرمال والتراب .

بقى (شيبة الحمد) فى يثرب حتى اشتد عوده ، وبلغ السابعة أو الثامنة من عمره حتى عرف الناس وعرفوه فى يثرب ، وأعلن بين الجميع عن علو كعـــبه فى النســـب ، كمـــا أبـــان عن قدراته وإمكاناته التى أخذت بالألباب والأبصار ، ورغبت أهله فى الطلب .

حــدث الطبرى من أكثر من طريق أن رجلا (من بنى الحارث بن عبد مــناة مر بيثرب ، فإذا غلمان ينتضلون [1]فجعل شيبة إذا خسق [2]قال : أنا ابــن هاشم ، أنا ابن سيد البطحاء ، فقال له الحارثى : من أنت ؟ قال : أنا شــيبة بن هاشم بن عبد مناف . فلما أتى الحارثى مكة ، قال للمطلب وهو جالس فى الحجر : يا أبا الحارث ، تعلم أنى وجدت غلمانا ينتضلون بيثرب وفيهــم غــلام إذا خسق قال : أنا ابن هاشم ، أنا ابن سيد البطحاء . فقال المطلب : والله لا أرجع إلى أهلى حتى آتى به فقال له الحارثى ، هذه ناقتى بالفناء فاركبها ، فجلس المطلب عليها ، فورد يثرب عشاء ، حتى أتى بنى عــدى بــن النجار فإذا غلمان يضربون كرة بين ظهرى مجلس فعرف ابن أخيه فقال للقوم : أهذا ابن هاشم ؟ قالوا نعم هذا ابن أخيك ، فإن كنت تريد أخــذه فالساعة قبل أن تعلم به أمه ، فإنها إن علمت لم تدعه ، وحلنا بينك وبيــنه . فدعاه ، فقال : يا بن أخى ، أنا عمك ، وقد أردت الذهاب بك إلى قومــك – وأناخ راحلته – فما كذب أن جلس على عجز الناقة ، فانطلق به ولــم تعلم به أمه حتى كان الليل ، فقامت تدعو بحربها[3]على ابنها فأخبرت أن عمه ذهب به ، وقدم به المطلب ضحوة ، والناس فى مجالسهم ، فجعلوا يقولون :من هذا وراءك ؟ فيقول : عبد لى ، حتى أدخله منزله على امرأته خديجــة بــنت ســعيد بن سهم ، فقالت : من هذا ؟ قال عبد لى ، ثم خرج المطــلب حــتى أتى الخرورة ، فاشترى حلة فألبسها شيبة ثم خرج به حين كان العشى إلى مجلس بنى عبد مناف ، فجعل بعد ذلك يطوف فى سكك مكة فى تــلك الحــلة فيقال : هذا عبد المطلب ، لقوله " هذا عبدى " حين سأله قومه ، فقال المطلب :

---

[1] انتضل القوم : رموا للسبق (لسان العرب)

[2] خسق : أصاب ونفذ

[3] الحرب : غضب مع تحريش . (لسان العرب)

عرفت شيبة والنجار قد جعلت أبناؤها حوله بالنبل تنتضل ...)[1]

صفاته وآثاره :

وعــبد المطلب على كل حال فى محل الإجماع حين يقدره المقدرون وهم يتحدثون عن صفاته الذاتية أو مكانته فى قومه .

غير أن الكاتبين فى سيرة عبد المطلب الذاتية قد يمر البعض منهم على صــفاته فيجمــلها إجمالا ، وقد يقف البعض منهم عند هذه الصفات فيفصلها تفصيلا .

ومــن الذيــن أجملوا صفات عبد المطلب على تفاوت بينهم فى الإجمال الحفــاظ بــن كــثير فى البداية ومحمد بن يوسف الصالحى الشامى فى سبل الهدى .

يقــول الحــافظ بن كثير فى صفات عبد المطلب وأثره فى قومه (**وساد فى قــريش سيادة عظيمة ، وذهب بشرفهم ورآستهم – فكان جماع أمرهم عــليه وكانت إليه السقاية والرفادة بعد المطلب ، وهو الذى جدد حفر زمزم بعــد ما كانت مطمومة من عهد جرهم ، وهو أول من طلى الكعبة بذهب فى أبوابهــا مــن تيــنك الغزالــتين اللتين من ذهب وجدهما فى زمزم مع تلك الأسياف القلعية**)[2]

وأما محمد بن يوسف قد تحدث حول صفات عبد المطلب وموقعه من قومــه عــلى نفس المنهج مع زيادة يسيرة قال : { **وكان عبد المطلب جسيما أبيــض وسيما طوالا فصيحا ، ما رآه أحد قط إلا أحبه ، وصار إليه السقاية والــرفادة ، وشــرف فى قومــه وعظم شأنه . وكان يعرف فيه نور النبوة وهيبة الملك .**

ومكارمــه أكثر من أن تحصر ، فإنه كان سيد قريش غير مدافع نفسا

---

[1] تاريخ الطبرى – ج٢- ص ٢٤٧ و ما بعدها .

[2] ابن كثير البداية و النهاية ج٢ ص ٢٥٣ .

وأبا وبيتا وجمالا وبهاء وفعالا .

قال الرشاطى رحمه الله تعالى : وكان ممن حرم الخمر فى الجاهلية وله عدة بنين وبنات } [1]

وهذه الصفات على إجمالها معبرة غاية التعبير ، ومعربة أفضل الإعراب عن المقصود من ورائها دون احتياج إلى ما يؤيدها أو يساندها من الحجج والبراهين .

ومع ذلك فإن أحداث التاريخ الثبت التى رواها المؤرخون عن هذه الفترة التى عاشها عبد المطلب فى قومه ، لتدل دلالة أكيدة على ما كان للرجل من تميز وسيادة فى قومه .

وسوف نحاول أن ننظرفى بعض هذه الحوادث التاريخية لنبرز شخصية عبد المطلب من خلالها ، ولنقف على بعض الإسهامات التى أسهم بها فى إعداد الساحة للنبي القادم ، دون أن تكون له دراية أكيدة لأنه هو الجد المباشر لعظيم هذه الساحة ، التى يعدها القدر من جميع نواحيها كى تكون جاهزة وملائمة لاستقبال هذا العظيم .

أحداث لها دلالتها :

ومهما تعددت الأحداث التى سجلها التاريخ مرتبطة باسم عبد المطلب فإننا لن نقف عند كل حدث منها ، وإنما سنختار منها وندع ، ونأخذ منها ونترك لأن القصد ليس هو التاريخ للرجال بمقدار ما يكون الحرص هو محاولة إبراز الدور الذى قام به كل واحد منهم فى إعداد الساحة .

إعادة حفر زمزم :

بعد أن تجمعت قريش حول البيت العتيق ، وتوافد أفرادها من رءوس الجبال حول مكة ، أو من الأصقاع البعيدة عن مكة .

---

[1] سبل الهدى و الرشاد جـ١ ص ٣١٤

وبعد أن أصبحت لقريش طمأنية المجتمع الاقتصادية والاجتماعية .

وبعـد أن أصـبح المجتمع القرشي مطمئنا إلى مؤسساته التى لا تشوبها شائبة إلا ما عسى أن تحمله صدور البعض من عوامل الغيرة وكوامن الحسد على المتميزين فى الصفات والطباع .

بعد أن تهيأ لقريش هذا النظام الاجتماعى على أسسه ، بدأ زعـماؤهم و دهماؤهم يفكرون فى تاريخهم الموروث عن الآباء والأجداد .

ومما عرفوه عن طريق الرواية الصحيحة أن أباهم إسماعيل قد منح ماء زمـزم ، ثـم ردمـت بئر هذا الماء على يد مضاض بن عمرو الجرهمى واسـتمرت مطمومـة إلى عهـد عـبد المطلب ، حيث شغل الناس عنها إما لتفرقهم أول أمرهم عن البيت العتيق ، وإما لانشغالهم بحاجات الحياة وتنظيم المجتمع بعد أن جمعهم قصى ، وعمل عبد مناف وهاشم على تنحية مشاكلهم عنهم .

أما اليوم فقد أصبحوا لا يشغلهم إلا التفكير فى تاريخهم واستعادة ما كان لهم من حقوق ، وتطويرها وتعليتها .

وقـد استغرق الجميع فى التفكير فى حالهم وتاريخهم ، فكان من أهم ما فكروا فيه هو هذه البئر التى ردمت أيام جرهم ، وقد خفى عنهم مكانها ، ولم تكـن مـن وسـيلة للـتعرف على هذا المكان واستعادة هذه البئر ، تربطهم بالتاريخ الماضى ، فتعلى ذكرهم بين العالمين ، وتوفر عليهم استجلاب الماء للحجيج من أماكنه البعيدة عن البيت الحرام مهما كانت درجة البعد فى زمان عبد المطلب .

ولما كانت مكانة عبد المطلب هى ما علمناه ، فقد أخذ عليه التفكير فى زمـزم وإعـادة حفـرها جميع جوانب نفسه ، حتى كان يفكر فى ذلك يقظا ويهتف به الهاتف فى منامه أن يخف لتحقيق هذا الهدف المنشود .

وبعـد أيـام من الحاح الهاتف عليه أن يقوم بحفر زمزم قام إلى مكانها

من الأرض بين أساف ونائلة ، يضرب بمعوله بحثا عن هذا الشرف المدفون تحت التراب ، والذى يصله بآبائه إبراهيم وإسماعيل .

وما كان لقريش أن تتركه يفعل ما يشاء ، وما كان لها أن تخف لمساعدته لحكمة شاءها رب العباد فاقتصرت أول أمرها على أن تعترض على ما يقوم به عبد المطلب من عمل ، بحجة أنه يضرب بمعوله فى مكان يتوسط أثنين من الآلهة تحترمهما قريش وتذبح عندهما ، ولما سمعت قريش عميدها وهو يقول لولده الحارث ، ادفع عنى القوم حتى أتمكن من مواصلة العمل أدركت أن الرجل مصر على أن يبلغ ما خطط له ، فتركته وما يريد .

وما هى إلا أيام حتى أدرك عبد المطلب الطمى وهو دليل وجود الماء ففرح لذلك فرحا شديدا وواصل العمل ، حتى كشف عن غزالتين من الذهب وسيوف قلعية ، كانت قد دفنت فى مكانها من عهد جرهم .

ولما رأت قريش ما رأت قالت لعبد المطلب : إنا شركاء لك فى الماء وفيما وجدت من هذه الأشياء ، وكاد الخلاف يشتد بينهم وبين عبد المطلب لولا أن عبد المطلب اقترح عليهم أن يضربوا على هذه الأشياء الأقداح (وهو لون من الاقتراع) فوافقوا ، وسألوه عن الطريقة أو الأسلوب الذى يتبعونه معه فى ضرب الأقداح ، فقال : إنى أقترح أن نخصص للبيت قدحين ، وأن نخصص لكم قدحين ، وأن نخصص لى قدحين متمايزة فى الألوان ، أو بالكتابة عليها ، وأخذ المسئول عن الأقداح يضرب ، فخرج للكعبة الغزالتان ، وخرج لعبد المطلب الأسياف ، ولم يخرج شئ لقريش .

ونزل الجميع على حكم الأقداح ، وأخذ عبد المطلب الأسياف فأدخلها فى صناعة باب الكعبة ، كما جعل الغزالتين فيه .

وتدفق من هذا الوقت ماء زمزم يستعمله عبد المطلب وبنوه فى خدمة زوار بيت الله الحرام من معتمرين وحجاج ، ثم هو لا يصد عن الماء أحدا على مدار الليالى والأيام ، إلا أن يكون مستعمل الماء قد أتى بفعل ينافى هيبة البيت الحرام .

فعبد المطلب قد أعلن لهم من أول الأمر أن يجوز للجميع أن يشرب ويتوضأ من ماء زمزم فى حوضين متمايزين أحدهما للشرب ، والآخر للوضوء والطهارة ، لكنه لم يبح لأحد أن يغتسل من مائها أمام البيت العتيق حفظا لهيبة هذا البيت من أن يمتهنه ممتهن .

ولقد حدد عبد المطلب ما أباحه للناس منه وما حرمه فى عبارة مختصرة ، تناقلها الرواة وكتبها المؤرخون .

ذكر الأموي فى مغازيه : حدثنا أبو عبيد أخبرني يحيى بن سعيد عن عبد الرحمن بن حرملة سمعت سعيد بن المسيب يحدث أن عبد المطلب بن هاشم حين احتفر زمزم قال : لا أحلها لمغتسل وهى لشارب حل وبل .

وهكذا أباح عبد المطلب ماء زمزم على الإطلاق إلا أن يكون لمغتسل وهى فيما عدا ذلك حلال لكل من يرد ماءها شاربا أو متطهرا أو لأى غرض شاء من الأغراض ، إذ هى للجميع حل وبل .

وفصاحة عبد المطلب اقتضت أن يلم ببعض مفردات العرب على نحو ماشاعت له هذه الفصاحة أن يستعمل بعضها فى هذه العبارة ، ككلمة (بل) فهذه الكلمة من المفردات الحميرية استعملها أهل حمير بمعنى – المباح– .

وماء زمزم بمقتضى هذه العبارة المختصرة أصبح للعالمين حل مباح .

وهكذا شاء الله عز وجل أن يكون من آثار عبد المطلب أنه كشف عن ماء زمزم ، ليصل أول مجد قريش بآخره ،و ليحيى فى نفوس العالمين أن الإنسان حيوان له تاريخ ، وهو بهذه الخاصية وغيرها يتميز عن سائر الكائنات الحية الى تشاركه الحياة على هذا الكوكب المعمور .

عبد المطلب والحرص على معالم الدين :

هذا وإن مشيئة الله عز وجل فى عباده تقتضي أن تضع بعض العظماء من الناس أمام اختبار فى موقف ، يكون الواحد منهم من خلاله بين عاطفتين أو غريزتين يطلب إليه أن ينتصر لواحدة منهما من غير أن يكون أمامه من سبيل يتيح إليه أن يحققهما معا .

فنحن لا يغيب عنا مثلا أن نوحا عليه السلام قد وضع موقف الاختبار بين عاطفة الأبوة وعاطفة التدين ، على نحو ما حكى القرآن الكريم عنه وعن ولده يوم الطوفان حيث حال بينهما الموج ، فكان ولده من المغرقين .

فلما قال نوح لربه : أن ابنى من أهلى ، قال له ربه : إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح ، ثم لفت الوحى نظر نوح عليه السلام أنه لا يجوز أن يسأل لكافر فى مثل هذا الموقف النجاة ، كما أنه لا يجوز له أن يدعى أن له به نسبا ، إذ النسب منحة من الله أساسها العمل الصالح والاستقامة على الهدى ويلتفت نوح الى ما يطلبه الوحى منه ويعوذ بربه من الخطأ مع الاعتذار عما بدا منه قائلاً " **رب إنى أعوذ بك أن أسألك ما ليس لى به علم وإلا تغفر لى وترحمني أكن من الخاسرين** "

وفى هذا المثل تظهر الإرادة الإنسانية فى أعلى صورها ، حين انتصرت هذه الإرادة للعاطفة الدينية أعلى العواطف وأسماها .

ومن نوح عليه السلام وهو من أولى العزم من الرسل إلى جد سيدنا محمد عليه السلام وهو خاتم الرسل ، لنرى جد النبى فى موقف عليه أن يختار فيه بين عاطفتين أو غريزتين .

والقصة بتمامها فى إيجاز موجز : أن قريشا حين اختلفت على عبد المطلب يوم زمزم ، نظر عبد المطلب فإذا به بين قومه قليل الولد ، يوشك أن يكون مقطوع النسل من الرجال ، وهم فخر آبائهم فى مثل هذه البيئات وهم مصدر العز والنصرة حين يتنادى الناس إلى النزال ، وكان نفس عبد المطلب تجيش به حين لم ير حوله من أبناء ذكور سوى الحارث ابنه الوحيد فتوجه إلى ربه فى إخلاص مخلص ، وتطلع ملح ، ووعد بعبادة فى صورة نذر عذره فى الخطأ فيه أن عهد النبوة بمكة قد أصبح بعيد المدى لقد توجه عبد المطلب إلى ربه قائلا : لئن رزقنى الله عشرا من الذكور لأ ذبحن واحدا منهم قربانا لله .

واســتجاب ربنا جل فى علاه ، ورزق عبد المطلب عشرا من الرجال ، جــلهم قــد شــب عن الطوق ، وأصبح له بهم عزا ومنعة ، وهم : الحارث والزبيــر وحجل ، وضرار ، والمقوم ، وأبولهب والعباس ، وحمزة ، وأبو طالب وعبدالله .

وجــلس عــبد المطلب يتأمل موقفه مع ربه ، ذلك أنه قد دعاه ونذر بين يــدى دعائــه ، وأن الله قد استجاب له ، وهو الآن على رأس أمره باختياره لكن ليعلم أن النذر شديد .

ولــم يذكــر أحد من الناس أن عبد المطلب قد وهنت إرادته ، أو أنه قد خارت منه قوى تدينه ، وإنما إجماع المؤرخين على أن الرجل قد حزم أمره وأقــبل إلى ولــده فجمعهم وأخبرهم بموقفه ، على نحو ما فعل الله بإبراهيم وإســماعيل مــن قبل ، ولا فرق بين هذا الموقف وذاك ، إلا أن يكون الذبيح شــيوعا فى عشرة من بنى عبد المطلب ، على حين أنه قد تعين فى إسماعيل الذبيح الأول .

انتصــرت عاطفــة الــتدين عند عبد المطلب ، كما انتصرت فى جديه إبراهيم وإسماعيل من قبل .

وحين عرض على أولاده قصة نذره ، وافقوه جميعا أن يفى بنذره لكنهم جميعــا قد تساءلوا عن الطريقة التى يعين بها الذبيح المرتقب ، فقال أبوهم ليذهــب كــل واحــد منكم إلى الأقداح فيأخذ منها قدحا ويكتب عليه اسمه ثم يتبعــنى إلى جــوف الكعــبة ، وأمر المسئول عن ضرب القداح فضرب بها فخــرج إلى الذبح قدح عبدالله ، وهو أصغر أبناء عبد المطلب سنا ، وأقربهم منه منزلة ، وأكثر الجميع وضاءة وجمالا .

وهــذه الصــفات مجــتمعة أو مــنفرده ، ليست بقادرة فى انفرادها أو اجــتماعها أن تثنى عبد المطلب عن أن يقضى حقا دينيا قد وجب عليه أداؤه فــأخذ ابــنه عبد الله بيده والشفرة باليد الأخرى ف منظر مهيب يذكر الجميع بما كان من قصة إبراهيم وإسماعيل آبائهم الأعلون .

وأضـــجع ولده في المكان الذي يريد 'اضجاعه فيه ، ووضع عليه رجله وهـــوى عـــليه بالشـــفرة - وهـــو عليه عزيز - وهاجت قريش وأقبلت من منـــتدياتها يحيط بها الصخب ويأخذها الفزع من جميع أقطارها ، يسبقها إلى الشيخ الوقور أشقاء عبد الله يتقدمهم جميعا العباس يقبض على يد الشيخ وفيها الشـــفرة ، والشيخ يخشى ضعفه أن يسلمه إلى التقصير في تدينه فقاوم الشيخ ولـــده العباس ، حتى أثرت الشفرة في عبد الله فأصابته بجرح ، ظل ظاهرا عليه حتى مات .

وتوالـــت صيحات قريش تعترض على فعل الشيخ وهي تقول : والله لا نتركك تفعل فيصير الذبح عادة في العرب ، يجترئ كل واحد على ذبح ولده ولا نملك له دفعا .

وكأني بالشيخ ينتحي جانبا في شئ من الخوار والضعف المادي والنفسي وهـــو يـــنظر إلى ولده الذي نجي من الذبح باجتماع الناس عليه ، ولو تركوه لأدى نـــذره ووفى بتعهداته ، ولا بأس بعد ذلك أن يسلم نفسه لآلام مبرحة قد تبقى معه إلى حين ، وقد لا تنصرف عنه في جميع الأحايين ، ما دام قد وفى بما عليه وقام بأداء واجبه تجاه ربه .

جلس الشيخ والجميع إلى جواره يلتفون به يقومون بواجب التسرية عنه وهـــو يردد لقد نذرت والنذر شديد ، فقال القوم يحاولون التســـرية عن الشيخ إنـــا سنذهب معك أو يذهب معك جمع منا إلى بعض المشاهير في التدين أو إلى المعـــروفين بـــأن لهـــم تابعا يشير عليهم إذا استشاروه ، وينصحهم إذا استنصحوه .

ووقع اختيارهم جميعا على عرافة تقيم في شمال جزيرة العرب عرفوها في رحلتهم إلى الشام كل عام ، وذهبوا إليها وقصوا عليها الخبر فقالت لهم : اذهـــبوا عـــني الساعة وأتوني غدا حتى يأتيني تابعي ، فانصرفوا عنها وأتوا إليها في اليوم التالي ، قالت لهم أتاني تابعي وأوقفني على ما ينبغي أن تفعلوه

ثـــم سألتهم : كم الدية فيكم ؟ فقالوا : عشرة من الإبل فقالت : اذهبوا إلى بلادكـــم ومعكـــم صـــاحبكم وقدمـــوا من الإبل عشرة واضربوا عليها وعلى صـــاحبكم بـــالأقداح ، فـــإن خرجت على الإبل فانبحوها وإلا زيدوا عشرا واضربوا عليها وعلى صاحبكم ، وهكذا إلى أن يرضى ربكم .

فعاد الجميع إلى مكة وقربوا عشرة من الإبل وضربوا عليها وعلى عبد الله الأقـــداح ، والشيخ منخرط فى الابتهال ، متطلع إلى رحمة رب الارض والســموات ، والأقداح تخرج فى كل مرة إلى عبدالله إلى أن بلغت الإبل مائة فخـــرجت الأقداح إليها فهاج الناس بالصياح وعمت الفرحة ، وما زال الشيخ فى محـــرابه مبتهلا ، فلما اقتحم الناس عليه المحراب يهنئونه ، قال معلقا : مـــا أنـــا بالرجل الذى يتعلق بالأشياء لأوائل أمرها ، عودوا فاضربوا عليها وعلى ولدى بالأقداح ثلاث مرات ،حتى أستيقن رضى ربى ، واستجاب القوم للشيخ فخرجت الأقداح فى كل مرة للإبل ، فقام عبد المطلب إليها ينحرها ثم قدمهـــا للأحيـــاء مـــن الإنســـان ، وجوارح الطير ، والأوابد من الحيوان لا يصدعنها حيا من الأحياء .

وفى هـــذه القصة كما فى التى قبلها إحياء لذاكرة التاريخ ، أو تنشيط لها كى تجـــود بمـــا فيها فتربطه بالواقع ليشعر الجميع أن التاريخ موصول بين الذبيحين ، وأنه من سلالة الذبيحين سيكون عظيم الساحة الذى قد طلع نجمه.

وفى هذه القصة كذلك تذكير بما فى هذا النسب المبارك من مقدرة فائقة عـــلى الوقـــوف عند حدود التدين كى يعلم الناس أن فى هذا النسب المبارك قـــدوة لمـــن يريد أن يقتدى ، وأن هذه القدوة لها سنام يترعه عظيم هو سليل هذا النسب أوشكت شمسه أن تطلع .

عبد المطلب وإرهاصات صاحب الساحة :

هـــذا وقـــد ازدحمت جياة عبد المطلب بأشياء وأحداث لها صلة بإعداد الساحة على نحو ما رأيت وعلى نحو ما سنذكر لك .

والأمــر الــذى سنذكره الآن بين يديك أمر عجيب لأن فيه مخالفة لسنن الكــون المادية والاجتماعية على السواء ، مما لو ظهر مثله على يد نبى لقلنا إنــه أمر معجز ، ولكنه حين يظهر فى هذا الوقت لا يكون له من شأن فوق أن يكون داخلا فى إعداد الساحة لهذا القادم الجديد .

وتــلخيص ما أريد أن أذكره الآن يبدأ من هذه الأحداث التى وقعت فى الجــز الجــنوبى من جزيرة العرب ، حيث أراد نصارى الأحباش أن يعبروا بديانــتهم إلى أرض اليمن واختلف القواد الموفدون إلى أرض اليمن من قبل رؤسائهم الدينيين والسياسيين واحتكموا إلى السيف ، ولم يبق السيف إلا على أبــرهة الــذى اشتهر فى التاريخ باسم – أبرهة الأشرم – فتربع أبرهة سدة الحكم فى هذه المنطقة واستقل فيها بالأمر .

وعــلم أبــرهة أن جزيــرة العــرب مثلها مثل سائر المناطق على هذه المعمورة لا يحمل أهلها على الطاعة إلا نظام التدين وغريزته .

وأنــت خبير يا صاحبى أن كل نظام أو دين لا بد له من شعيرة ظاهرة يلــتف الناس حولها ، فتعينهم على توحيد أهدافهم ، وتساعدهم فى السير إلى بلوغ مقاصدهم .

والشــعيرة فى كــل نظام أو دين لها دورها ، كما أن للعقيدة والشريعة دوريهما.

وأبــرهة لا تغيب عنه هذه الحقيقة فسأل عن شعيرة العرب التى تجمعهم وتوحــد أهدافهــم وتحمــلهم على محاولة اتباع أقصر الطرق للوصول إلى غايــاتهم ومقاصدهم ، فقالوا له إن شعيرة العرب الكبرى تتمثل فى هذا البيت العــتيق ، فهم يحجون إليه فى كل عام ، ويقتادون إليه الذبائح بعد أن تشعر وتقلد إلى هذا البيت العتيق ، فلا ينال منها أحد ولا يعتدى عليها معتد .

ففكــر أبــرهة وقــدر ، ونظــر وبصر ثم خلص إلى هذا القرار الذى خلاصــته أنه سيقوم ببناء بيت فى اليمن باسم النصرانية يجلب إليه كل غال

وثمين من خارج الجزيرة العربية ، ويحمل إليه عبق التاريخ حين يجلب إليه بقايا قصور ملوك مملكة سبأ .

وأصر على أن يبنيه مرتفع القامة ضاربا بقامته إلى السماء ماستطاع إلى ذلك سبيلا .

وقد وصل أبرهة إلى غايته فبنى البناء بخامات نفيسة وأعلاه إلى الحد الذى كان الرائى الراغب فى النظر إلى قامته يضطر إلى رفع بصره إلى أعلى إلى أن تسقط على الأرض قلنسوته .

وأبدع زينة هذا المكان وحسن إنارته وأحكم منافذه واعتنى بحراسته .

وكان هذا المكان يمثل الكنيسة المشهورة فى الشرق وسماها أبرهة القليس .

ولم يكن أبرهة لاهيا أو عابسا حين أقام هذه الشعيرة لدينه ، ولكنه أصدر أوامره أن ينصرف الناس عن حج البيت العتيق إلى حجِّ هذه الكنيسة باليمن ، كى يجتمع الناس حولها فيسهل عليه السيطرة عليهم وتوجيههم إلى ما يريد من خلال دينه الجديد .

ولما لم يرغب الناس فى الانصراف إلى هذا القليس رأى أن يحملهم على ذلك قسرا .

وأنت معى يا صاحبى فى أن الدين لا يزرع فى القلوب بصارم القدرة والاقتدار ، وإنما يزرع الدين فى القلوب بقاطع الحجة وصحيح البرهان .

وحين أراد أبرهة أن يحمل الناس على حج القليس قهرا لم يجن من ذلك إلا بغض الناس له ولشعيرته .

وهذا البغض قد حمل الناس على التصرف فى هذا المكان الجديد بما يناسب حالة البغض التى يشعرون بها .

وفى التاريخ روايتان :

إحداهما تقول : إن أعرابيا فردا ذهب إلى القليس وأحدس فيها تنفيسا

عما يشعر به من ضيق يجده فى صدره .

وثانيتهما تقول : إن العرب قد أخذتهم الغيرة على بيت الله العتيق ولم يستمرئوا أن يستذلهم أبرهه بحملهم على زيارة القليس وترك شعيرة الآباء والأجداد .

والعرب كان لديهم الاستعداد الكامل فى أن يتركوا أبرهة ومعتقده هو ومن معه ، لكنهم ليسوا بجاهزين أن يتركوا أبرهة وما أراد من حمل الكافة من العرب على أن يتخذوا القليس بديلا مقدسا يحجون إليه بدلا من البيت الحرام فى مكة .

وحين ثارت ثائرة العرب وقرروا ألا يخضعوا لما أرادهم عليه أبرهة قاموا إلى القليس بخطة مدروسة وأحرقوها .

وأنا أميل إلى هذه الرواية الثانية وإن كان هذا الميل عندى لا يمنع أن يكون هناك تصرفات فردية قام بعض الناس من خلالها بالتعبير عن رأيهم بالطريقة التى يرونها ملائمة لهم .

وميلى لهذه الرواية الثانية فيه قناعة لى وإقناع لغيرى بقبول تصرف أبرهة ، أو على الأقل بقبول القرار الذى اتخذه .

فنحن نعلم أن أبرهه قد اتخذ قرارا ليهدمن الكعبة ، وهو قرار كما ترى يبدو من ظاهره أنه انفعالى غير مدروس ، ولا يكون القرار على هذا الشكل إلا إذا كان صاحبه قد أصيب بخيبة الأمل حين ألم به حادث نسف خطته وأتى على بنيانها من القواعد .

المهم أن أبرهة قد اتخذ قرارا بهدم البيت العتيق ، وكاتب مليكه فى ذلك وطلب منه أن يمده بالعتاد والعدد حتى يتمكن من بلوغ غايته .

وتحرك أبرهة تجاه الشمال قاصدا مكة بعد أن جيش الجيوش وأعد العدة على نحو لم يسمع العرب بمثله .

ولم يجد المقاومات التى اعترضت طريقه وهو ذاهب إلى مكة حتى

وصــل إلى حدودهــا آمنا مطمئنا ، وكان قد جهز الفيلة لحرب فى مكة غير مسبوقة . ولكنه لأمر لا نعلمه رابط على حدود مكة ولم يشأ اقتحامها ، فهل هذا لرعب أصابه ، أم أنه يرغب فى استيعاب موقف جهل بعض جوانبه قبل أن يرمى بنفسه فى بحار مجتمع لم يعرف كيف الدخول إليه . وقد لا يعرف كيفية الخروج منه .

وقديمــا قــالوا فى تقييــم النصر والهزيمة : إن النصر لا يعتبر باقتحام مجــتمع معيــن ولكــنه يعتــبر بمدى نجاح المقتحم فى السيطرة على خطة الخــروج من هذا المجتمع دون أن يغرق فى لجته إن أراد الخروج أو أجبر عليه .

أيا ما كان السبب الذى حمل أبرهة على البقاء خارج مكة فإنه فى جميع الأحوال قد أرسل طلائع جنده لتحصيل أمرين :

أحداهمــا : جمع المعلومات اللازمة لمثل أبرهة وفى مثل حاله التى هو عليها .

وثانيهمــا : القيــام بــبعض التصرفات التى تحدث شيئا من الرعب فى نفــوس المكييــن حتى تلقى فى قلوبهم الوهن ، وتقضى على ما بقى لهم من روح المقاومة.

ولقــد حدث التاريخ أن جند أبرهة قد أتوه بما يحب من بعض الممتلكات يمــلكها كــبار المكييــن كمــا أضافوا إلى معلوماته ما يحتاج إليه من بعض المعلومات التى تتصل بالقادة والزعماء فى مكة .

ولمــا اكــتمل لأبرهة ما أراد أرسل فى طلب الزعيم الديني والسياسى والاجتماعي فى مكة .

وأنــت لا تشك كما لا أشك أنا فى أن هذه الزعامات جميعا قد اجتمعت كــلها فى عــبد المطــلب مع إضافة من حسن الخلق وأدب الحديث وجمال الطلعة .

ولم يبطء زعيم مكة فذهب سريعا إلى أبرهة رغبة فى الحوار لعله يعفى

قومه والزمان من أحداث ومصادمات ربما لا تنتهى آثارها .

والتاريخ يهتم فى هذه المقابلة ببضع كلمات ومواقف لا يخطئ العاقل أن يتأملها وأهمها أن أبرهة قد أخذ بدخول عبد المطلب عليه ، ولم يقو على مغالبة ما يجده فى قلبه .

وأظنك لا تحتاج منى إلى لفت النظر إلى هذه الجزئية باعتبار ما فيها من دلالات على إعداد الساحة لقادم جديد هو عظيمها الذى سيقول فيما بعد " **نصرت بالرعب مسيرة شهر** " .

وأمام الاندهاش اضطرب أبرهة فيما يفعل أيجلس زعيم مكة إلى جواره على سرير الملك ويتحمل تعنيف الملك الذى تبلغه العيون صنيع قائده وما فيه من تضييع هيبة ملكه ؟

أم ينزل عن سريره ليجلس إلى جواره على الأرض ويترك شيئا من كبريائه وغروره ؟

ولم يكن أمامه من خيار فالتمسك بالمركز عزيز والتفريط فيه شاق على كل نفس .

وحين بدأ الحوار بين الرجلين سأل أبرهة سؤالا سياسيا خبيثا حين قال للترجمان : سل زعيم مكة ماذا يريد منا ؟

فقال عبد المطلب : أريد مائتين من الإبل قد عدا عليها جنودك وأخذوها وهى لى .

وكأنى بأبرهة يضرب كفا على كف ويظن أنه بسؤاله السياسى البارع استطاع أن يحدد قيمة الرجل وحجم اهتماماته ، ولم يخف سروره أو دهشته فطلب من الترجمان أن يقول له أكبرتك حين رأيتك وتغير موقفى منك حين سمعتك ، لقد جئت إليكم فى قضية تتصل بعرضكم وعرض آبائكم وهى قضية الكعبة ورغبتى فى هدمها ، أتتركها وتحدثنى فى بضع وحدات من الإبل ؟

والموقف لم يأخذ عبد المطلب ولم يشعر أن السؤال وإجابته قد وضعاه

فى حرج لأنه يدرى ما يقول ، فقال على الفور : **(أنا رب الإبل وللبيت رب يمـــنعه ويحميـــه)** ، فقال أبرهة بمنطق الماديين وعلى حساباتهم : **(أيمنعه منى)** فقال عبد المطلب بثقة المؤمن : **(أنت وذاك)** .

وانتهى الحوار عند هذا الحد .

وعاد عبد المطلب ومعه مائتان من الإبل ردهما أبرهة عليه .

وقــرر عبد المطلب أن ينحر الإبل قربانا لله عز وجل ، فإصراره على ردهــا من عدوه ليس إصرارا على الاحتفاظ بالثراء بقدر ما هو إصرار على الاحتفاظ بالعزة والرغبة فى الإباء .

وإلى هــنا انــتهت حســابات الأخذ فى الأسباب وظهر لعبد المطلب أن المعركة غير متكافئة .

ولو أن غير عبد المطلب قد ظهر له ما ظهر لعبد المطلب لحاول النجاة بالأرواح وسلم البيت طواعية وبالمفاوضة إلى أبرهة يعبث به كما يشاء .

أمـــا عبد المطلب فما زال عنده طريق آخر يسلكه ، فلو أنك خاطبته فى أمـــره يومـــئذ وقـــلت له ماذا ستفـــعل وأبرهة بالغ أمره والأسباب عنك قد انقطعت ؟ لقال لك ما قال موسى لقومه : **" كلا إن معى ربى سيهدين "**

أمـــر عـــبد المطـــلب أهل مكة أن يصعدوا إلى رءوس الجبال وبقى هو وحده قابضا على حلق الباب يناجى ربه أمام بيته فى أدب جم .

لاهم إن الــمرء يمنــع ... رحله فامــــــنع حلالك[1]

لا يغــــــلبن صــــليبهم ... ومحالهم غــدوا[2] محالك[3]

انصر علـــى آل الصليـــ ... ـــب وعابـــديه اليوم آلك

إن كنت تاركهم وكعــــــ ... ـــبتنا وأمـــــر مـــا بدالك [4]

---

(1) الحلال : يطلق على معان متعددة ، فهو مجموعة البيوت أو أمتعتها ، وهو القوم الحالون فى المكان ... وقد يراد هنا جميع ذلك ذكر هنا على سبيل الاستعارة .

(2) الغدو : هو اليوم الذى يلى يومك ويريد عبد المطلب تقريب الزمان .

(3) المحال : بكسر الميم : القوة والشدة .

(4) فأمر ما بدالك : ما زائدة مؤكدة أو موصولة أى الذى بدالك من المصلحة فى تركهم .

ولـك أن تـتأمل وقفة عبد المطلب بين يدى ربه استشعر ما تزدحم به نفسـه مـن المشاعر والانفعالات فهو يقول لربه : إن عادة عبادك أن يمنعوا بيوتهـم وممتلكاتهم وتوابعهم من الناس وأنت أولى بذلك منهم ، ومن صفاتك أنـك العزيـز الذى لا يغلب وأهل الصليب يتبخترون اليوم بقوتهم ، فانصر اليـوم عليهم أهلك وخاصتك ، ثم يعلن أنه مستسلم لربه راض بقضائه حين يخلى بينهم وبين الكعبة لأن فعله فى جميع الأحوال مبنى على الحكمة .

وهـذه الصورة هل تشبه من بعض وجوهها ما قال النبى يوما : " **اللهم إليـك أشكو ضعف قوتى وقلة حيلتى وهوانى على الناس يا أرحم الراحمين أنـت رب المستضـعفين وأنت ربى إلى من تكلنى إلى عبد يتجهمنى أم إلى عـدو ملكـته أمرى إن لم يكن بك على غضب فلا أبالى أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات من أن يحل بى غضبك ، أو ينزل بى سخطك ..** "

صعدت قريش على أية حال إلى رءوس الجبال وبقى عبد المطلب وحده يناجى ربه .

ومـرت السـاعات متثاقلة وعبد المطلب قلق مضطرب إذ وقوع البلاء خيـر مـن انـتظاره ، فهتف ببعض أبنائه وقال له : اخرج إلى القوم فانظر أخـبارهم وأحوالهم ففعل ثم عاد ، ولكنه قد عاد بغير الوجه الذى قد ذهب به لقد عاد ليعلم أباه بما رأى .

ولما كانت الرغبة قد اشتدت بالابن أن يعجل بإخبار الشيخ .

ولمـا كـان صوته لا يبلغ أباه لبعد الشقة رأى أن يريه من الأسباب ما يجعلـه يفطن إلى ما يريد أن يقوله : لقد كشف عن فخذه وتصرف على غير طبيعته والشيخ ينظر وهو يقول : إن ابنى هذا خرج على طبيعته وما ذاك إلا لأمر حدث ، فلما أقبل أخبر والده بما رأى ، وما رآه ليس على الأسباب ولا عـلى السنن التى عهدها الناس ، لقد رأى أن القوم قد أخذتهم جماعات الطير بعذاب أليم بواسطة أحجار من سجيل فجعلتهم كعصف مأكول ، ودهش الابن ولـم يدهـش الأب ، ودهش الناس لما رأوا ولم يعلم واحد منهم مافى ضمير

الغيب ، ولم يدر واحد منهم أن الأيام حبلى بنبإ عظيم يعلن عن عظيم الساحة القادم .

وهلك أصحاب أبرهة إلا من استبقاه الله منهم لكى يخبر الملك بما حدث لقـائده يتـبعه طائره ، ريثما يبلغ الرسالة ثم يسقط عليه حجره أمام الملك لا يمتـنع مـنه ، فيموت قتيلا بين يدى الملك على نحو يشبه أن يكون نموذجا ماديا يعلم الملك بواسطته ما الذى حدث لجنوده .

لقـد مات جنود أبرهة إلا من قد علمت ، وبقى القائد نفسه يحمله بعض جـنوده عائدين من الطريق الذى جاءوا منه جريحا ضعيفا تتساقط منه بعض أجزائه ليراه الناس فى ضعفه كما رأوه فى قوته وعنفوانه .

حدثت هذه الحادثة كلها قبل أن يأتى عظيم الساحة إلى الساحة .

ولعلـه لا يخفى عليك أن ما حدث لأبرهة وجنوده كان شيئا لا يخضع لسنن الكون و لا لنظام الأحياء ، ولا لطرائق الاجتماع .

إن مـا حـدث له صلة بالغيب وله ارتباط بالقوه العليا التى ترجع إليها جميـع الأسـباب ، وكـأن الذى حدث كله إنما حدث ليقول للناس : انتظروا عظيم الساحة القادم فإن قدومه صار وشيكا .

وعـبد المطـلب فى هذه الأحداث قد قام بالدور المناط به خير قيام لم يقصر فى شئ ولم يخطئه منه شئ .

عمر مديد :

لقـد حـدث ما حدث من الوقائع فى عهد عبد المطلب . وعبد المطلب منفعل بما حدث .

فهو قد انفعل بواقعة الفيل على نحو ما ذكرناه .

وهو قد انفعل بمسألة إعادة زمزم .

وهو قد انفعل أشد الانفعال بموضوع ولده عبد الله .

فقـد نجى عبد الله من الذبح لأن عبد الله جزء من إعداد الساحة للقادم الجديد ولم يكن قد أدى وظيفته بعد .

وفرح الشيخ برضى ربه حيث قبل منه فداء ولده وأعفاه من نذره ، لكن ربـنا الـذى أراد أن يعـد الساحة للنبى القادم قد شاء – ومشيئته خير – ألا يغـادر عبد المطلب الدنيا قبل أن يكون له شئ من الأثر فى استقبال صاحب الساحة ، والبقاء معه فترة يقدرها العلى القدير ليرحل بعدها الشيخ إلى ربه .

وكـان ما كان من مشيئة الله حيث بقى الشيخ بعد قدوم صاحب الساحة إلى السـاحة ، وتعـلق كل منهما بالآخر تعلقا شديدا ، ثم شاء الله للشيخ أن يـرحل ويترك الدنيا تستقبل أحداثها ، ويترك صاحب الساحة وهو فى الثامنة مـن عمره بعد أن عهد به إلى أفضل ولده وهو أبو طالب على نحو ما نراه مع صاحب الساحة بعد .

عبد الله

ولقـــد وصل الحديث بنا إلى عبد الله الذبيح ابن شيبة الحمد الشهير بعبد المطلب .

وما أكرم أن يصل الحديث بنا إلى هذا الحد .

غيـــر أن الحديـــث حين يصل بنا إلى هذا الحد نجد أنفسنا فى بحر من الحيرة لا ينقذنا منه إلا منة المنان جل فى علاه .

وأنـــا يـــا صاحبى لم ألق بك فى متاهة من الألفاظ وبحار من الأساليب العامـــة خشـــية أن تتفلت منى أو تنصرف عنى ، وأنا لا أحبك أن تتفلت أو تنصـــرف عـــن مجلسي معك ، ولذا سأحاول أن أنتقل بك إلى حديث موجز أنقـــل إليـــك من خلاله مشاعرى ، لعلك تشاركنى هذه المشاعر ، أو لعل الله يفـــتح عـــليك بأمر تحب أن تضيفه هنا ، فالله هو الرزاق وفوق كل ذى علم عليم .

إن الأمـــر الذى يشغلنى هنا ياصاحبى متعلق بـــ عبد الله نفسه ، إذ إنى حيـــنما كـــنت معك ونحن نتحدث عن أجداد النبى واحدا بعد واحد ، كان لا يغيب عنى ولا عنك الوظيفة الاجتماعية المناطة بكل جد من أجداد رسول الله ومـــا مـــن واحدة من هذه الوظائف إلا كان يتضح منها الدور الذى تؤديه فى إعـــداد الســـاحة لرسول الله صـــــــلى الله عليه وسلم عظيم الساحة ونبيها المرتقب .

أما فيما يتعلق بـــ عبد الله فقد حار معه أمري ، حيث إنى لم أجد له من أثر يعرفه مجتمع مكة إلا ما تعرض له من الذبح ، ودوره فيه أنه لم يعترض عـــلى أبيـــه حيـــن خرجت القرعة له لكى يكون هو المختار ليذبح وفاء لنذر الشيخ.

وهـــذه منقبة لو افترضناها أو اعتسدنا عليها تكفى فى ميزان التقدير كى تحســـب لعبدْ الله فترفعه فوق قرنائه وتميزه على ذويه ، وذلك أن الابن عبد

... ـم يعترض ، ولم يسجل التاريخ له ضيقا ولا ضجرا ، فاشبه من بعض الوجوه جده الأعلى إسماعيل مع فارق يحسب لإسماعيل عليه السلام وهو أن إسـماعيل أعـان أباه على أن يطيع ربه ، وساعده بالفعل والحديث على أن يـتجاوز محنته ، وهو فارق على كل حال يميز المرشح للنبوة على غيره من أتقياء البشر وصلحائهم .

وكـان من الممكن نقول : إن عبد الله قد أنيط به دور دينى تاريخى معا يتصـل بحادثة الذبح نفسها ولكن من منظور آخر وهو أن الذبح بالنسبة لعبد الله ونجاتـه مـنه بـتوفيق الله يذكـر الكون كله بشئ مهم وهو أن التاريخ موصول ، والنبى محمد صلى الله عليه وسلم المنتظر سيكون منتقى من هذه السـلالة ، سـلالة النـبوة الطاهرة ، ولما كان التاريخ قد طال وتوالت حقبه ذهـبت حادثة الذبح بإسماعيل فى ذاكرة التاريخ مذهبا ، وشقت فيها طريقا يسـعد على النسيان ولا يعين على التذكر ، فجاءت حادثة الذبح لعبد الله تعيد للأذهـان ما وقع لإسماعيل أيام إبراهيم ، وتكون هذه مساهمة تاريخية ودينيه مـن عبد الله فى إعداد الساحة لعظيمها القادم تذكر ولا تنكر ، ويشهد لهذا ما قاله النبى صلى الله عليه وسلم وهو عظيم الساحة بعد أن دخلها كريما عزيزا " أنا ابن الذبيحين " .

كان من الممكن يا صاحبى أن أركن إلى هذا التخريج أو ذاك .

وكـان من الممكن يا صاحبى أن استند إلى هذا التأويل أو ذاك لأريحك وأريـح نفسى ، لولا ما علمته من طباع الناس من لجاجة يجيدونها ويجيدون سلوك الدهاليز المؤدية إليها ، وهى مسائل تستهلك منا الوقت فى غير طائل.

من أجل ذلك فقد أقنعت نفسى بما ذكرت ، ولكنى لم أشأ أن أقتصر عليه فى إقناع غيرى .

والـذى أعتقده أنى أحتاج إلى مزيد من القناعة ، ويحتاج غيرى إلى أن أنشئ القناعة فى قلبه إنشاء .

ولـذا فـإنى سأركز على أمر هام يعين غيرى على أن يقتنع ، ويضيف إلى رصيدا من القناعة يثلج صدرى ويرفع درجة الاقتناع عندى .

وهذا الأمر الذى أريد أن أشرحه هو أن دور عبد الله ابى النبى فى أعلى درجاتـــه هو أنه مبعوث من ضمير الغيب لكى يهدى الكون كله هدية ما أظن أنه تلقى مثلها من قبل ، ولم يقيض الله له أن يتلقى لها مثيلا فى المستقبل .

لقـــد جـــاء عبد الله من ضمير الغيب ليهدى الكون عظيم الساحة ونبيها المرتقب.

وهذه هدية لم يشرف بها أحد من آبائه ولا من أجداده ، فالآباء والأجداد كـــان النبى يتخذ من أصلا بهم طريق مرور للواقع المشهود ، ولكنه لم ينتقل إلى الواقـــع المحس إلا على يد عبد الله الذى نفترض أنه لم يكن له دور فى الكون المشهود سواه .

والمســـألة هنا تحتاج إلى وقفة نتحدث فيها عن زواج عبد الله بآمنة بنت وهب وما أحاط بذلك من مواقف وأحوال ، وما جاء بعد هذا الزواج المبارك مـــن أحـــداث ووقـــائع ، لعـــل هذه الوقفة تكون بمثابة الدليل الذى يؤكد ما افترضناه ويثبت ما توقعناه .

زواج عبد الله بآمنة :

هـــذا وإن المؤرخيـــن لهـــذا الزواج المبارك قد اهتموا جميعهم بالحدث واتفقـــوا عـــليه ، ولـــم يـــتفقوا بعد على اليوم الذى وقع الحدث فيه ولا على القرائن التى أحاطت به .

غيـــر أن هـــناك نقطة هى محل إجماع آخر وهى أن عبد المطلب عميد بـــنى هاشم وشيخهم قد تزوج فى نفس الليلة التى زوج فيها ابنه عبد الله من هالـــة بـــنت أهيب ، وهى التى أنجب منها الحمزة عم النبى وضريبه [1] فى سنه .

وكان محل اتفاق بين المؤرخين كذلك أن أهيب شيخ بنى زهرة هو الذى تـــولى أمر تزويج آمنة وهالة من الفتى وأبيه حيث إن وهب أبا آمنة كان فى

---

[1] أطلقت الضريب هنا لتتسع القرين والمخالط والنظير والشبيه . وقد كان الحمزة قرين للنبي في سنه مخالط له لقرابته منه رضى الله عنه .

هذا الوقت قد رحل عن دنيا الناس .

وإنـــه لمـــن الأفضـــل لى ولك يا صاحبى أن أنقلك من حيث البداية إلى روايات المحدثين ومن كتبهم ، عله يتضح لى ولك شئ من أسباب زواج عبد الله من آمنة بنت وهب كريمة شريف من أشراف بنى زهرة .

(روى ابن سعد وابن البرقى والطبرانى والحاكم وأبو نعيم عن العباس بـــن عـــبد المطلب عن أبيه قال : قدمنا اليمن فى رحلة الشتاء فنزلت على حبر من اليهود فقال لى رجل من أهل الزبور ، يعنى الكتاب : ممن الرجل ؟ قـــلت مـــن قريش – قال من أيهم ؟ قلت من بنى هاشم قال : أتأذن لى أن أنظر إلى بعضك ؟ قلت : نعم ، ما لم يكن عورة . قال : ففتح إحدى منخرى فـــنظر فيـــه ثـــم نظـــر فى الآخر فقال : أشهد أن فى إحدى يديك ملكا وفى الأخـــرى نـــبوة وإنا نجد ذلك فى بنى زهرة فكيف ذلك . قلت : لا أدرى قال هـــل لك من شاعة [1]؟ قلت : وما الشاعة ؟ قال الزوجة . قلت ، أما اليوم فـــلا . فقال : إذا رجعت فتزوج منهم فلما رجع عبد المطلب إلى مكة تزوج هالة بنت أهيب بن عبد مناف وزوج ابنه عبد الله آمنة بنت وهب فولدت له رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقالت قريش : فلج[2] عبد الله على أبيه .

وروى البيهقى وأبونعيم عن ابن شهاب رحمه الله تعالى قال : كان عبد الله أحســـن رجل رئى قط ، خرج يوما على نساء قريش فقالت إمرأة منهن أيـــتكن تتزوج بهذا الفتى فتصطب [3] النور الذى بين عينيه فإنى أرى بين عينيه نورا ؟ فتزوجته آمنة بنت وهب .

وروى الزبيـــر بن بكار عن أن سودة بنت زهرة بن كلاب الكاهنة قالت يومـــا لبـــنى زهـــرة : إن فيكم نذيرة أو تلد نذيرا فاعرضوا على بناتكم .

---

[1] الشاعة : بشين معجمة وعين مهملة : الزوجة سميت بذلك لمتابعتها الزوج وشيعة الرجل أتباعه وأنصاره.

[2] فلج بفتح أوله وثانيه : ظفر بما طلب .

[3] تصطب : تسكب وتدخل .

فعرضـــن عليها فقالت فى كل واحدة منهن قولا ظهر بعد حين حتى عرضت عـــليها آمـــنة بنت وهب فقالت هذه : النذيرة أو تلد نذيرا له شأن وبرهان منير ، ولما سئلت عن جهنم قالت : سيخبركم عنها النذير)[1]

هذا إجمال فى زواج عبد الله من آمنة بنت وهب .

ونحـــن حين نقف عند بعض أجزاء هذا الذى أجملناه ربما يتضح لنا منه أمورا لم تظهر لنا من هذا الإجمال .

فشـــيخ كتاب السيرة وهو ابن إسحق لم يشر إلى رواية العباس عن لقاء أبيه بالحبر فى اليمن .

ويظهـــر من كلامه أن شيخ بنى هاشم قد أخذ ولده بعد النجاة من الذبح يـــزوجه فى بنى زهرة على اتفاق مسبق بين الشيخ وبين كريم هذا الحى أو على غير اتفاق .

أمـــا ابن كثير فقد جمع بين روايات المحدثين وبين ما ذكره كتاب السير فى تناغم أسلوبى رائع كعادته فى مثل هذه المواقف .

ويظهـــر مـــن هـــذا العرض أن عبد الله كان محط نظر العذارى وغير العذارى من نساء قريش .

ومن بين النساء القاطنات بمكة هذه الشهيرة بفاطمة بنت مر الخثعمية .

وقصتها قد نقلها ابن كثير عن أبى بكر الخرائطى .

قال ابن كثير : (قال أبو بكر محمد بن جعفر بن سهل الخرائطى حدثنا على ابـــن حرب حدثنا محمد بن عمارة القرشى حدثنا مسلم بن خالد الزنجى حدثنا ابـــن جـــريج عـــن عطاء بن أبى رباح عن ابن عباس قال : لما انطلق عبد المطـــلب بابـــنه عـــبد الله ليزوجه مر به على كاهنة من أهل تبالة متهودة قد قرأت الكتب يقال لها فاطمة بنت مر الخثعمية فرأت نور النبوة فى وجه عبد الله فقالت يا فتى هل لك أن تقع على الآن وأعطيك مائة من الإبل ؟ فقال عبد الله :

---

[1] راجع سبل الهدى والرشاد جـــ ١ ص ٣٨٩ وما بعدها

أما الحرام فالممات دونه والحـل لاحـل فأستبينه
فكيف بالأمر الذى تبغينه يحمى الكريم عرضه ودينه

وذهب عبد الله مع أبيه بعد اعتذار مزدوج لفاطمة .

فقـد إعتذر أولا بأن ما تدعوه إليه فاطمة إنما هو من باب الحرام الذى تأباه الطباع وتجرمه القيم .

وهـو قد إعتذر ثانيا بأنه مرتبط بأبيه يتأخر عنه قليلا فى مشيته ، ولكنه تابع له تأبى عليه نفسه أن ينفصل التابع عن المتبوع .

وهكذا يعتذر عبد الله بما يعتذر به من هذا الأمر المزدوج الذى يحسب لـه فى ميـزان الـترجيح والتقدير إذا وضع فى ميزان التقدير والترجيح مع أقرانه من أهله وذويه ، فضلا عن أن يوضع على هذا الميزان من غير أهله وذويه.

سـار عبد الله تابعا لأبيه ترفعه الأخلاق على سنامها لاترضى له بغير السنام بديلا.

وتـزوج عبد الله بآمنة وبقى عندها ما بقى على ما تحكيه الروايات ، ثم عاد معتزا بنفسه فألجأه الطريق إلى المرور من أمام بيت فاطمة ، فلم تحاول أن تعـبث بمشاعره كما حاولت من قبل ، فجذب انتباهه انصراف فاطمة عنه و دفعـه الفضـول إلى سؤالها قائلا لها لماذا لم تعرضى على الذى عرضت بـالأمس ؟ وحـالى الآن أقـرب إلى القبول فى ظاهر الأمر حيث إنى أسير وحـدى وأبى منى بعيد ، فقالت له المرأة فى شئ من الحدة والصرامة تنفى عـن نفسها ما عسى أن يكون قد تسلل إلى ذهن عبد الله ووضعها فى مكانة لاترضى لنفسها أن تكون فيها قالت : لا تظنن أنى إمرأة لا هم لها إلا اللعب • بعواطف الرجال أو الاستمتاع بما تستمتع به المرأة منهم ، فإنى لأشرف من ذلك وأعز ، ولكن حدثني ما الذى حدث لك من الأمس إلى اليوم ، فأخبرها أنـه أصبح متزوجا من آمنة بنت وهب ، فقالت له : لقد اصطبت النور الذى بيـن عينيك فهنيئا لها ، ولقد قرأت فيما أتيح لى قراءته من كتب الأوائل أن

هـــناك نبيا قادم قد أظل زمانه ، ولأبيه علامات رأيتها فيك فوددت أن أكون أمـــا للنبى القادم وقد أخطأنى الطريق إليه ، وقد ذهبت عنى الأماني بعد فوز آمنة بهذا النذير القادم .

ثم أنشأت تقول شعرا :

إنى رأيت مخيلة لمعت ... فتلألأت بحناتـــم[1] القطـــــر
فلمأتها نورا يضئ به ... ما حـــوله كـــإضاءة الفجـــر
ورجوتها فخرا أبوء به ... ما كـــل قـــادح زنـــده يروى
لله مـــا زهـــرية سلبت ... منك الذى ما استلبت وما تدرى

وقد نسب الرواة إلى فاطمة فى هذا المجال أبياتا أخرى من الشعر تقول فيها.

بـــنى هاشم قد غادرت من أخيكم ... أميـــــنة إذ للــــباه يعــــتركان .
كماغـــادر المصـــباح عند خموده ... فتائل قد ميثـــــــــت له بدهان
ومـــا كل ما يحوى الفتى من تلاده ... بحـــزم ولا مـــا فاتـــه لتوانى .
فـــاجمل إذا طالبت أمرا فاتـــــــه ... سيكفيكه جـــــــدان يعتلجان .
ســــيكفيكه إمـــا يـــد مقفلـــــة ... وإمـــا يـــد مبسـوطة ببـــنان .
ولما حوت منه أمينة ما حوت ... حوت منه فخرا ما لذلك ثان.[2]

وليســـت قصــــة عـــبد الله مع فاطمة هى القصة الوحيدة فى مجالها التى تناقـــلها الرواة ، وإنما هناك قصة أخرى تشبهها من كثير من الوجوه حتى لا يظـــن بعـــض الظـــانين أن الحدث واحد نسبه بعضهم لفاطمة ونسبه البعض الآخر لغيرها .

ومـــا يظنه بعض الكاتبين على هذا النحو ليس عندنا بشيء ، لأن فاطمة وغيرها ممن تعرضن لعبد الله كن يلهثن جميعا خلف هدف واحد ، الدافع إليه عـــند كل منهن هو ما علمنه مما ذكر فى الكتب القديمة من البشارات بالنبي القادم .

---

[1] الحناتم : السحائب السود كما فى القاموس

[2] راجع ابن كثير البداية والنهاية جـــ ٢ ص ٢٤٩ وما بعدها .

ومـــا نسبه الرواة لعبد الله مع غير فاطمة رواية ذكرها ابن اسحق ونقلها عـــنه ابـــن هشام ، من أن عبد الله كان يتأهب للمسير مع أبيه فنظرته إمرأة كنيتها أم قتال وهي من بني أسد بن عبد العزى بن قصي .

وهي أخت ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصي .

وقـــد أبصـــرته أم قـــتال وهـــو عند الكعبة ورأت النور الذي في وجهه فابـــتدرته بالسؤال قائلة : إلى أين أنت ذاهب يا عبد الله ؟ فأخبرها أنه ذاهب مـــع أبيه ، فابتدرته قائلة : هل لك في أن تنال مني وأنال منك وأعطيك قدر مـــا فداك به أبوك من الإبل ؟ ولم يفكر عبد الله كثيرا ، وإنما قال لها مباشرة **إني مع أبي ولا أملك فراقه ولا الانصراف عنه .**

وأكمل المسير مع أبيه إلى أن أتم زواجه ، وبعد يوم أو يومين مر على أم قـــتال فأبصرته ولم تعرض عليه ما عرضته عليه من قبل مما أدهش عبد الله ودفـــع به إلى أن يسأل أم قتال من باب الفضول : مالك لا تعرضين على اليوم ما عرضت من قبل ؟ فأخبرته : أنه قد فاتها ما كانت ترجوه منه.

والـــذي كانت ترجوه منه هو هذا النور الذي كان يتلألأ في وجهه ، وقد اســـتقر في قلـــبها بعد ما سمعته من أخيها عن النبي القادم أن الذي رأته في وجه عبد الله هو نور النبوة .

ودفعهـــا الأسف والأسى إلى استدعاء قريحتها فقالت شعرا تعبر به عن الأسى الذي أورثه فيها فوات هذا الخير الذي كانت ترجوه .

قـــالت :

عليك بآل زهرة حيث كانوا   و آمنة التي حملت غلاما

ترى المهدي حين نزا عليها   و نورا قد تقـــــدمه أماما

إلى أن قالت

فكل الخلق يرجوه جميـــعا   يسود الناس مهـــتديا إماما

يراه الله من نورصـــــــفاه   فأذهب نوره عــــنا الظلاما

و ذلك صنع ربك إذ حباه — إذا ما سار يوما أو أقاما

فيهدى أهل مكة بعد كفر — ويفرض بعد ذلكم الصياما[1]

وأنت قد تعجب يا صاحبى من روايات تعرض النساء لعبد الله بن عبد المطلب وأنا أعلم أنك لست وحدك الذى يأخذك العجب من جميع أقطارك حين تقرأ هذه الروايات أو تتلى عليك ، فإن غيرك من الناس لم يتوقفوا عند حدود العجب ، بل إنهم قد نزعوا إلى أن يشيحوا بوجوههم عن هذه الروايات ازدراء واستهتارا .

فأنت ترى مثلا أحد الكتاب المشاهير يقول : (وتختلف الروايات فى أمر عبد الله وهل تزوج غير آمنة وهل عرضت عليه نساء غيرها أنفسهن .

والوقوف لتقصى أمثال هذه الروايات لا غناء فيه .

وكل ما يمكن الاطمئنان إليه أن عبد الله كان شابا وسيما قويا ، فلم يكن عجيبا أن تطمع غير آمنة فى الزواج منه .

فلما بنى بها تقطعت بغيرها أسباب الأمل ولو إلى حين . ومن يدرى ! لعلهن قد انتظرن أو بته من رحلته إلي الشام ليكن زوجات له مع آمنة). [2]

هذا ما قاله بعض الكتاب وما قاله هنا له نظائر وأشباه .

أما أنا فأرى أن فى هذه الروايات وتتبعها ما يفيد فى الموضوع الذى نحن بصدده ، وهو إعداد الساحة لعظيمها القادم ، فنحن فى مجتمع مغلق من حيث عوائده وآدابه تقوم المعرفة الكاملة والإحاطة الشاملة فيه مقاما عظيما فما من إنسان يعيش داخل هذا المجتمع إلا ويعرف غيره ، وهذا المجتمع وما يشبهه من المجتمعات تقوم عوائده فيه مقام القانون الملزم ، أضف إلى ذلك أن التفاخر فى هذا المجتمع ونظائره سمة من سماته تلازمه ولا تنفك عنه

---

[1] انظر ابن هشام – سيرة – جـ ١ ص ١٤٣ وما بعدها ، والبداية والنهاية – ابن كثير – جـ ٢ – ص ٢٤٩ وما بعدها .

[2] محمد حسين هيكل – حياة محمد – ص ١٠٥

وتعد مقومة من مقوماته .

وأنـت لا يغيـب عنك ما اشتملت عليه القصتان من إشارات لا تخطئك وتصريحات لا تغيب عنك ، وكلها ذات دلالة على الإعداد الجيد لهذه الساحة التى أعدتها العناية الإلهية لاستقبال حدث جديد .

والأمـر الذى لا يختلف عليه إثنان أن عبد الله قد سار مع أبيه إلى حى بنى زهرة وجلس إلى عظيم هذا الحى يطلب منه آمنة لعبد الله ، ويطلب منه هالة لنفسه .

وبـنى عـبد الله بآمـنة وهو فى الرابعة والعشرين من عمره وبنى أبوه بهالة وهو فى السبعين من عمره أو قريبا منها .

وعـلى عادة العرب بقى عبد الله فى بيت آمنة الذى هو بيت أبيها ثلاثة أيـام ، ثـم انتقل إلى بيته بعد أن تسامع أهل مكة بهذا الزواج الميمون الذى قطـع كـل سبب أمام كل أنثى طمعت أن تكون أما لهذا النبى عظيم الساحة المنتظر.

إن هـذه العـبرة التى اجتزأناها من قصة زواج عبد الله من آمنة على اختصـارنا لها ، تفيدنا فى الحقيقة فائدة لا غنى عنها لكاتب يكتب عن إعداد الساحة لعظيمها المنتظر .

وليسـت هـذه العبرة يتيمة فى بابها ، كما أنها ليست الوحيدة فى الدلالة على المقصود منها .

ونحن نستطيع أن نضع عبرا أخرى نأخذها من هذا الزواج المبارك وما أحـاط به من أحوال تعيننا كلها على فهم الوظيفة التى جعلها الله منوطة بعبد الله دون سـواه ليـنفرد بهـا هـو فى إعداد الساحة التى قد اكتملت جوانبها واتخذت زينتها لاستقبال القادم الذى أصبح ظهوره وشيكا .

ومـن العـبر التى تصلح للتأمل أن عبد الله لم يتزوج بغير آمنة لا قبلها ولا بعدهـا مع أن عوائد مكة ، بل عوائد العرب أجمعين فيها ما يحمل المرء

عـــلى أن يكون تحته الكثير من الزوجات لكى يحصل على عزوة أو عصبة مـــن الرجال يلتفون حوله يلبون النداء إذا دقت طبول الحرب ، وما أكثر ما تدق طبول الحرب على سبب معقول أو على غير سبب ظاهر أو مستور .

والـــرجل البدوي أو العربى لا يكون مهابا إلا بموقعه الاجتماعى يعززه كـــثرة من الأبناء لايغنى عنها أن يكون الرجل ذا نسب أو حسب ، إذ فى أقل القـــليل لا يفوتـــنا أن نجـــد أتراب الرجل وقرناءه ممن يساوونه فى الشرف ينظرون إليه بشئ من الازدراء حين يكون أبطرا لا ولد له من الذكور .

ومـــع هـــذه المؤثـــرات جميعها نجد عبد الله قد اكتمل فيه كل ما تطلبه المـــرأة مـــن الرجال ، فهو الشاب الوسيم جميل الطلعة ، وهو الفحل الذى لا يجـــدع أنفه وهو الرجل الذى قد اكتملت رجولته واحتل من الشرف مكانة لا تخطئ مثله .

ومع هذه المرشحات وارتفاع الموانع وغياب الصوارف فى ظاهر الأمر المكشـــوف ، وجدنـــا عـــبد الله لـــم يرتبط بغير آمنة فيما نعلم لا عن طريق الـــزواج المشـــروع ولا عـــن طريق الرق بملك اليمين ولسنا بحاجة بعد ما ذكـــرناه إلى أن نؤكـــد نـــفى علاقاته بالنساء على وجه غير مشروع مع أن المجـــتمع المكى كان يبيح مثل هذه العلاقات وهذه هى الأخرى نقطة يأخذها الـــباحث ويضـــعها فى مجال تأمله لتكون هاديا يهديه مع أخواتها إلى طريق التصـــديق بمـــا ذكـــرناه افتراضا من دور عبد الله الحقيقى فى إعداد الساحة لعظيمها القادم.

وعـــبرة ثالـــثة أضيفها لك وهى : أن عبد الله لم ينجب لا ولدا ولا بنتا ســـوى رســـول الله صلى الله عليه وسلم ، مع أن العرب على نحو ما ذكرناه يقلقهم غاية القلق ألا يكون للرجال من الأبناء إلا ولدا واحد .

وهـــذا إن دلنا على شئ فإنما يدل على أن العناية الإلهية قد رتبت لهذا النبى هذا الطريق الرفيع والمشروع ، بحيث لا يأتى منه غيره حتى لا يكون

له فى الوجود قرين ، وحتى لا يكون له فى الوجود شقيق يسمح للبعض أن يعقد بينهما مقارنة كما تعقد المقارنات بين الأشباه والنظائر .

وعــبرة رابعة لا تخطئك من قصة هذا الزواج المبارك على اختصارنا لها ، وهى أن هذا الوالد الكريم حين قام بوظيفته من تسليم عظيم هذه الساحة إلى قراره المكين المبارك ، لم يعد له فى الوجود وظيفة يؤديها ، فرحل على أرجــح الأقــوال دون أن يرى عظيم الساحة التى كان يتمنى أن يراه بوصفه هو الأب المباشر له.

وأخيــرا أحــب أن أضــع أمامك هذه العبرة وهى عبرة سلبية لو جاز التعبير عنها بذلك التعبير .

وهذه العبرة هى أن عبد الله حين رحل لم يرحل عن الدنيا بعد أن خلف للعظيم القادم مالا يحميه من غوائل الدهر ، أو يحسب له فى ميزان التفاضل بما يرفع عنه نسبيا انكسار اليتم وآثاره المعهودة .

ذهــب عــبد الله حيــن ذهب ولم يترك للنبى القادم مالا يحميه أو ثراء يحســب له ، وكــل الذى ترك له بعض الإبل وقليل من الشياة وجارية ودار للســكنى ، وهى أمور لا يستطيع المولود أن يقاوم بها آثار اليتم أو التفاضل الذى يثار من حين لآخر بين أفراد المجتمع فى أمثال هذه البيئات .

وكــل الأشــياء التى ذكرناها لك تؤكد منفردة أو مجتمعة صدق الفرض الــذى افترضــناه ، وهو أن عبد الله قد جاء إلى هذا الكون وليس له فيه من وظيفــة إلا أن يأتى إلى الكون كله بعظيم الساحة واقعا تاريخيا ليباشر فى الساحة عمله ، وليقوم فيها بوظيفة خاتم النبيين .

ولا مــانع أن تحاط هذه الوظيفة بأشياء هامة تقويها تجرى على يد عبد الله الوالــد المباشــر لعظيم الساحة من نحو التذكير بالآباء الأولين ، وإحياء أصــول هــذه الشجرة المباركة المنحدرة من إبراهيم وإسماعيل على نحو ما كــان من حادثة الذبح المنظور ، ونجاة عبد الله منه على شبه بما تعرض له

أبوه الأعلى إسماعيل عليه السلام ، الأمر الذى يصدق معه تطبيق قول النبى صلى الله عليه وسلم فيما بعد – أنا بن الذبيحين – ليكون هذا القول فى أعلى عطائه شارحا لتواصل شجرة الأباء والأجداد .

وإذا كانت هذه هى وظيفة عبد الله يتميز بها بين آبائه وأجداده ، فليس هناك من غرابة حين نرى أن عبد الله بعد أن حملت آمنة بعظيم الساحة يغادر مكة ، ثم لا يحظى بعد ذلك بأوبة الآيبين ، بل إنه قد شاءت العناية الإلهية أن يتخلف عبد الله فى يثرب وهو عائد من رحلته إلى بلاد الشام ليحاصره المرض فيموت بيثرب ويدفن بها ، ليكون بقاؤه ومرضه وموته ودفنه بيثرب إرادة إلهية تحيى بهذا المكان رابطة أخرى سيحتاج إليها النبى عظيم الساحة يوم أن تحمله الأحداث والظروف على أن يغادر مكة مهاجرا إلى وطنه الجديد الذى سيشرق النور منه ليعم أقطار الأرض وهو المدينة المنورة .



إجمـــــــال

وهكــذا يتــبين لنا من هذه الرحلة الطويلة نوعا ما من الطول ، أن هذا الجــانب من جوانب الساحة وهو الجانب الذى يتصل بالرجال من آباء النبى وأجداده ، قد أعد لاستقبال عظيم الساحة إعدادا تاما .

ونحــن وإن لــم نتتــبع فى هذا الجانب جميع آباء النبى وأجداده ، فما أجــتزأناه مــنهم يصلح لشرح المقصود من إثار هذا الجزء ومحاولة شرحه وتبيينه .

ومــا اجــتزأناه من حياة كل رجل من هؤلاء الرجال كنا قد قصدنا إلى اجتزائه قصدا يبين عن المقصود من الحديث عن كل رجل على حدة ، بقدر ما أتيح لنا الحديث عنه ، لعلنا من خلال ذلك نكون قد استطعنا أن نثير الهمم ونفتح شهية بعض الباحثين إلى تناول هذه الجزئية أو تلك من البحث بطريقة أكثر ثراء فى المنهج أو فى تحليل المادة ، بإضافة بعض ما عسى أن يطلعوا عليه من مواد قد فاتنا الاطلاع عليها .

وعــلى الجملة فإن الساحة ما تزال فيها جنبات أخرى تحتاج إلى النظر فيهــا ، لنقف على إعداد الساحة كاملة كما أراد الله لها أن تعد لتستقبل قادمها العظيم .

فلننصرف إلى زاوية أخرى من زوايا الساحة لننظر فى كيفية إعدادها .

الفصل الثانى

عصر متداع ومنهج غائب

انـــتهي بنا الحديث عن آباء النبى إلى ما انتهى إليه وتبين لنا أنه ما من واحـــد مـــن آبائـــه إلا وكان له دور فى إعداد هذه الساحة لا يخفى على كل متأمل .

ولقـــد كانت هذه الأدوار جميعها إيجابية ، لها أثرها الواضح فى ترتيب جانب من جنبات هذه الساحة المباركة .

وكان لا بد أن ننظر إلى الساحة وهى تعد للنبى من منظور آخر بحيث يركـــز عـــلى المجـــتمع الذى سيخرج النبى إليه ، لنرى الوظيفة التى تطلبه والمهمة الشاغرة التى تتحسس من يقوم بها .

وأنت خبير أن المجتمعات الإنسانية تحتاج إلى منهج حياة يصلح الأفراد والجماعات من داخلهم ومن خارجهم على السواء .

فالمجـــتمعات الإنســـانية لا يمكـــن لها أن تستقر إلا إذا توفر لها الأمن الداخلي والأمن الخارجى جميعا .

و لا يتوفر الأمن الداخلي إلا على أساس من عقيدة مستقرة يطمئن إليها الوجدان وترضى بها العقول ، وتنسجم هى مع المنطق السليم.
والأمـــن الخـــارجي لا يقوم إلا على أساس من تشريع يهتم بتوزيع الأعباء ويهـــتم مـــع ذلك بتوزيع المنافع ، يهتم بضمان الحريات ويكفلها لجميع أفراد المجـــتمع عـــلي السواء ، يهتم بالملكيات ويضمنها طبقا لقاعدة الحق المكفول لأصـــحابه ، يحافظ علي الأعراض من أن يعتدي عليها المعتدون ، أو يلهث وراءها المالكون بقصد امتلاكها والنيل منها ، يحافظ علي الأديان والمعتقدات بحيـــث لا يقهر أحد علي اتباع دين لا يقتنع به ، أو يرزح تحت معتقد يلجئه إليه غيره بالقوة .

وهكـــذا لا يتوفر الأمن الاجتماعي إلا على أساس من تشريع يضمن ما ذكرناه من الحقوق وما لم نذكره منها.

وهـــذه الحاجـــات فـــي المجتمع إذا ما وجدت ، فإنها تتطلب دعوة نبي

ورســالة من الله تطبق علي هذا المجتمع أو ذاك ، لتنقذه مما عسي أن يقع به من الانحراف.

وحيــن يكون الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن دعوته مرادا منه الناحية التطبيقية علي نحو ما بيناه سلفا ، فإنه يتحتم أولا أن نعرف كيف كانت دعوة النبي صلي الله عليه وسلم تلبية لحاجات اجتماعية وسدا لنقص قد استفحل أثره السلبي في النفوس ، وسيطر علي المجتمع والناس بحيث أصبح الــناس لا يتمكــنون معه من مسايرة الحياة ، وتحقيق خلافة الله في الأرض علي نحو ما أراد الله عز وجل .

وقــبل أن نســتطرد فى شــرح هذه القضية ، وبيان ذلك الاحتياج إلى الرســالة النبوية الخاتمة ، نحب أن نشير إلى قضية هامة وندفع عن النفوس وهما يتسلل إليها من خلال ما ذكرناه ، أو من ثنايا ما نعتزم كتابته .

إنــنا حيــن ندعى أن رسالة النبى صلى الله عليه وسلم جاءت إستجابة لمطــلب اجتماعي ونفسى ، ما كان لغير الوحى أن يقوم بتلبية أغراضه وسد الحاجــات المــتوارثة فيه ، وتكميل النقص الكائن بالفعل وتقويم المعوج من الســلوك والمعــتقدات ، ولا نقصــد مــا يقصده بعض المشتغلين بالفلسفات الاجتماعية خاصة أصحاب الفكر الماركسى .

إن الماركســيين يفهمون المجتمع على أنه أطوار ومراحل بعضها يتولد مــن بعــض ، فالشــيء ونقيضه يتولد منهما شئ ثالث يحمل مزايا الطرفين المتناقضــين ، وهذا النوع من التولد محتوم لا اختيار لأحد فيه ، إنه محتوم حيــن يطبق على المادة وهو محتوم حين نتصوره في الظواهر الاجتماعية علي السواء .

ولــذا فإنــه ما من ظاهرة اجتماعية عند هؤلاء القوم إلا وهي نتيجة لما سبقها من ظواهر.

هــذا عــندهم هو التصور لتسير الظواهر الاجتماعية ، بحيث لا يقبلون نموذجا غيره من التصورات ليكون بديلا له أو عوضا عنه.

وهذا التصور الذى ذهب إليه أتباع ماركس قد أثبتت التجارب فشله وقد دمغـه الواقـع العمـلى بمـا يستحقه من أسباب النكران وعوامل التنـحية والرفض[1].

وقـد يتصور البعض مما قلناه أو نقوله : أننا نضع الرسالات السماوية فى إطار هذا التصور .

أمـا نحـن فـلم نقصد إلى هذا ولم يخطر ببالنا وإنما الذى خطر ببالنا وقصدناه هو أن المجتمع كان فى حاجة ماسة أيام النبي صلى الله عليه وسلم وقبيل بعثته إلى إصلاح ، وأن هذا الإصلاح لا يمكن أن يقوم به بشر إلا إذا كـانت له صـلة بالسماء ، ولا يمكن أن يلبى أغراضه نظام إلا إذا كان هذا النظام يعود فى أصله التشريعى إلى فاطر السماء .

وبعـد هـذه الملاحظة العابرة والتى رأينا من الضرورة أن نسجلها فى أول هذا البحث ، نعود إلى أصل الموضوع .

وأصـل الموضوع دعوى ندعيها كما ادعاها غيرنا ، وقد أثبت التاريخ الصحيح صدق ما ندعي .

لقـد كان المجتمع قبيل عصر المبعث ، يحتاج بالفعل إلي نبي ودل علي هذا الاحتياج ما وقع في المجتمع العالمي من آثار اجتماعية كان خطرها يعم الفرد والجماعة ، فالمجتمع قبل المبعث – ذلك المجتمع الذي يشمل المعمورة بأسـرها – قد فقد شيئين هما أعز ما يملك وبفقدهما تفقد المجتمعات والأفراد قيمتها وحقيقة وجودها ، وهذان الشيئان هما العقيدة والنظام .

والمـرء حيـن يفقد عقيدته ، يكون قد أصابه التخريب من داخله ، ذلك لأنه يحتاج إلى العقيدة لتوفرله الاطمئنان والتوازن الذاتي ، والمرء لا يطمئن ذاتيـا ولا تـتوازن شخصيته إلا إذا كان لديه تصور عقدي صحيح يلجئه في

---

[1] راجع نحو محمد باقر الصدر فى اقتصادنا – القسم الأول منه وكذا فلسفتنا وغيرهما مما كتب فى الماركسية أو عنها وهو كثير .

جميـــع أحوالـــه إلـــي إله قاهر رؤوف رحيم يلجأ إليه في منشطه ومكرهه ، ويعود إليه في طلب النفع كما يلجأ إليه في كشف الضر .

إن الإنســـان الفـــرد يـــتوفر لـــه هذا التوازن الذاتي ، حين يرتفع وعيه بالتوحيد ، لأنه والحالة هذه يكون واثـــقا من أن الإله الذي يعبده ، يتمكن من رفـــع المظـــالم وإرغام الطاغي وحبس الشرور وإيصال الخير إلي من يريد وإسباغ الرحمة علي جميع العبيد ، إنه علي الجملة تام العلم والإرادة والقدرة ليـــس مـــنعزلا عن شئون خلقه ، وإنما هو متصل بهم يدبر بقدرته حوائجهم إنـــه (كل يوم هو في شأن) [1]

وحيـــن يفقـــد الإنسان وعيه بالتوحيد ، وحين تخسر الجماعات إيمانها بـــربها ، يكـــون الفـــرد بـــل وتكون الجماعة قد خسرت إيمانها وطمأنينتها الوجدانية ، وبعبارة مختصرة : إن الفرد وإن الجماعة حين تضل في عقيدتها تكون قد فقدت طمأنينتها.

وهذا بالفعل ما حدث قبيل المبعث .

وليـــس هـــذا هو العامل الوحيد الذي ظهر علي الساحة ، وطبقت آثاره الأمم والشعوب ، ولكن هناك عامل آخر هو أن هذه الأمم وتلك الشعوب كما ضلت في عقيدتها ، فقدت كذلك نظامها .

وفقـــد النظام يعني أن الإنسان قد فقد طمأنينته من الخارج فالنظام يعني القـــانون أو التشريع ، والقانون أو التشريع يعني وجود دولة أو هيئة لها من القـــوة والســـلطان ما يمكنها من تطبيق القانون والمحافظة علي النظام ، فلا يطمع قوي في ضعيف ، ولا خامل في ثمرة جهد نشيط ، ولا مستهتر عربيد في حريص جاد ، وحين يغيب النظام يغيب مع النظام الأمن والأمان .

وخلاصـــة القـــول هنا أن العالم حين خسر نظامه خسر مع ذلك الأمن الخارجي.

وإذا أضـــفنا ذلـــك إلي ما سبق ، وجدنا نتيجتهما معا أن الإنسان قد فقد

---

(١) سورة الرحمن آية ٢٩

أمنه الداخلي لفقد العقيدة الصحيحة ، وفقد أمنه الخارجي لفقد النظام أو الشريعة .

واحتاج العالم كله إلي من يعيد للإنسان عقيدته ، ويعيد له نظامه حتى يستعيد أمنه واتزانه .

وهذا إجمال يحتاج إلي تفصيل :

(أ) في مجال العقيدة :

قبيل المبعث النبوي الشريف كانت المجتمعات والأمم قد فقدت العقيدة الصحيحة كما فقدت الطريق إلي معرفتها .

ففي بلاد فارس كانت العقائد من زرادشتية ومانوية ومزدكية إلي غير ذلك ، لا تعرف التصور الصحيح للكون والحياة والإنسان ولا تهتدي في أدعيتها وعباداتها وتوجهاتها إلي الله فاطر السماوات والأرض ، ولا تعرف شيئا عن الحياة بعد الموت ولا تتصور الجزاء الأخروي علي نحوما يصوره كل دين صحيح ، فجاءت عقيدتها من أجل ذلك مجموعة من الأخلاط والأمشاج التي لا انسجام بين جزئياتها ولا ترابط بين عناصرها وهي في نفس الوقت تفتقر إلي الأساس المنطقي الذي يحرسها ويدافع عنها[1]. وظلت هذه العقيدة المختلطة المشوشة عقيدة أهل فارس فترة طويلة من الزمن قبيل البعثة النبوية حتى مجها البلاد والعباد ، وسخر المجوس من ديانة المجوس .

وفي بلاد الروم المترامية الأطراف ، كانت العقيدة النصرانية .

والعقيدة النصرانية قد وصلت إلي حد من التدهور في البلاد التي يؤمن شعوبها بالنصرانية إلي الحد الذي أخذ النصارى معه يكفر بعضهم بعضا

---

[1] راجع أبا الحسن الندوي ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص ٢٥ وما بعدها ، الشهر ستاني الملل والنحل ، وابن حزن في الفصل في الملل والنحل .

ويلعن بعضهم بعضا بل ويذيق بعضهم بأس بعض .

ديانـــة واحدة جاء بها نبي واحد هو عيسي عليه السلام ، وأصحاب هذه الديانة يفترقون إلي فرق ، كل فرقة تدعي الحق عندها وتكفر ما عداها وتلك ســابقة خطيــرة فــي أي أمــة يراد لها أن تنزلق إلي هذه الهاوية وأن تأخذ بأسباب التكفير إلي غايتها .

انقســم النصارى في عقيدتهم في المسيح عليه السلام إلي طوائف وشيع فمــنهم مــن يقول : إن المسيح عيسي بن مريم عليه السلام من طبيعة إلهية خالصــة ، فهو ابن الله وبنوته حقيقية ، ومنهم من يقول :إن عيسي بن مريم مــن طبيعة مزدوجة ، ففيه طبيعتان : طبيعة إلهية من ناحية وطبيعة بشرية إنسانية من ناحية أ خري ، وشخصيته مؤتلفة من الطبيعتين .

ومــنهم مــن يقــول ، إن عيسي بن مريم طبيعته طبيعة ناسوتية بحتة وبشــرية خالصــة وبنوته لله ليس لها من معني فوق العبودية التي تعني أن العبد محبوب لسيده وله عنده مكانة ومنزلة .

اتجاهــات مختلفة ومتعارضة وكل اتجاه يظن المتحمسون له أن الحق عندهم ولكــل اتجــاه مــن الاتجاهات فلاسفته ومفكروه ، وله كذلك في مجال القوة والاقتدار أنصاره ومؤيــدوه[1] .

والدولــة الــبيزنطية أو الأمــة الرومانية علي العموم قد أخذت بالعقيدة النصــرانية بمــا يحيطها من جدل ، وما يترتب عليها من فرقة وتمزيق بين طوائــف المســيحيين الذين يؤمنون بعقيدة النصرانية ، وظلت بيزنطة تجادل فــي مجال العقيدة إلي الحد الذي أصبحت معه بيزنطة مضرب الأمثال عبر

---

(١) كتب ديلاس أو ليري فصلا مطولا يصور به ما حدث للعقيدة النصرانية بعد امتزاجها بالفكر الوثني من اضطراب ، وما حدث بسببها في المجتمع النصراني من فرقة – (راجع ديلاس أو ليري – الفكر العربي في طبعته العربية ص ٢٥ وما بعدها) وراجع معه ضحي الإسلام أحمد أمين ج ١ ص ٢٦٢ ، يوسف كرم تاريخ الفلسفة اليونانية ص ٢٦٩ وما بعدها ، الفصل لابن حزم ج١ ص٤٨ وما بعدها .

الـــتاريخ ، بحيث يكفيك أن تلفت نظر محدثك في أي مسئلة من المسائل إلي أنـــه قد أخذ بطرف من الجدل البيزنطي لتكون قد بلغت منه غاية العتاب بل غاية اللوم والتأنيب .

و فى الحبشـــة لم يكن الحال بأفضل مما هو عليه فى بيزنطة ، فالعقيدة المسيحية هناك كانت على طرف من أطراف النزاع والشقاق .

ومـــا يـــدعى فى الـــتاريخ أنه كانت هناك محاولات للصلح والوفاق فى مجـــال الاعتقاد فإن هذه المحاولات بشهادة التاريخ لم يكن القصد من ورائها يعدو ما يكون للسياسة من مطالب ورغبات[1].

ومـــن هنا يتبين أن العقيدة الصحيحة قبيل عصر المبعث قد اختفت من المجـــتمعات الـــتى تسكن هذه المعمورة ، وقد اختفى معها كل نص صحيح النســـبة إلى الســـماء ، يـــرجى من ورائه تصحيح المسار وتقويم الاعوجاج وإحداث التوازن الداخلي فى نفوس الأفراد .

وليس الحال فى شبه الجزيرة العربية بأحسن من الأحوال فى غيرها من الأمم ، فالعرب كانوا فى عامتهم وثنيين ، بعضهم يعبدون الأحجار ويقربون لهـــا القرابين ، وبعضهم كان يصنع آلهته من الخشب بيديه ولا يتورع من أن ينصبها ويسجد بين يديها ويركع ، وبعضهم كانوا يتخذون من العجوى آلهتهم وإذا ما اتخذوها آلهة عبدوها ، فإذا ما جاءوها أكلوها .

وكـــان فى جزيـــرة العرب بعض من يدين باليهودية والنصرانية إلا أن هاتين الديانتين لم يقدر لهما الذيوع والانتشار.

ولـــم تكن شبه الجزيرة العربية كلها مطبقة على هذا الضلال لا تفكر فيه وإنمـــا ظهر من بينهم قبيل عصر المبعث أناس تبرموا بهذه الديانات وتألموا

---

[1] حاول امبراطور الروم سنة ٦٢٨ م وما بعدها أن يجمع المختلفين حول العقيدة النصرانية على رأى واحد رأبا للصدع و توحيدا للكلمة حوله و لكنه فشل فى جميع محاولاته – راجع الندوى ماذا خسر العالم ص ٤٠ وما بعدها .

مــن سيادة هذه السخافات والتى أصبحت معتقدات ، وشكوا فيما عليه أقوامهم ولــم يكــن شــكهم من أمثال هذا الشك المدمر الخامل ، بل كا شكا حيا يقظا مــتحركا يدفــع نفــوس الــرجال إلى البحث عن الطريق الصحيح لتحسين الأحوال.

وكـــان من يبين هؤلاء ورقة بن نوفل وقس بن ساعدة الإيادى وغيرهما مــن الرجال الذين سيطر عليهم الشك فى عقائد القوم ودفعهم إلى البحث عن الطريق الصحيح .

غيــر أن هــؤلاء الشكاك كانوا من القلة بحيث لا يمثلون فى قلتهم إلا عــود الثقاب تشعله فى مهب الريح فى ليلة عظيمة السواد حالكة الظلمة فلا يقدر عود الثقاب على أن ينير لك الطريق ، ولا هو بقادر على أن يبدد ظلام هذا الليل البهيم ، ويكسر قسوة أو حدة هذا السواد المطبق [1]

عقيــدة قد ضاعت معالهما ولم يبق للمرء منها إلا أخلاط وثنية وأمشاج من جاهلية ، لا تنفعه فى دنياه ولا تفيده فى أخراه .

والإنســـان فردا أو جماعة فى تلك الآونة قد فقد ثقته بالعقائد التى تحيط به من نصرانية ، ومجوسية ووثنية .

وهــو مــن باب أولى لم تكن له ثقة فى العقيدة كما يرسمها اليهود وكما استودعها بطون الكتب اليهودية .

لــم يكــن للعالم أمل فى إصلاح العقيدة من قبل اليهودية ، تماما كما لم يعلقوا آمالا على إصلاح العقيدة من غيرها من الديانات .

إن اليهــود فضـــلا عــن ســوء العقيــدة عندهم ، وانحرافها فى كتبهم ومعــتقداتهم ، كانوا يمتازون بعوامل نفسية كثيرة ، طبعت كل يهودى بطابع خاص يشترك فيه جميع اليهود ، ولا يشاركهم فيه غيرهم من سائر الأمم .

أن المتأمل فى عقائد اليهود يجدهم مجسمين لله عز وجل تجسيما غليظا

---

(1) البداية والنهاية لابن كثير جـ ٢ ص ٢٢٠

ويجدهـــم يصورون إلههم على أنه إله محلى ، يرعى شعبا مخصوصا اختاره لنفسه ليكون أفراده له عبيدا كما إختاره اليهود لأنفسهم ليكون لهم ربا .

إلـــه مجســـم غليظ قد وصل فى التجسيم إلى غايته ، وهو محلى قومي محدود لا يرعى سائر الشعوب ، وإنما يرعى شعبه المختار .

وهى عقيـــدة لا تصلح للإنقاذ من التردى الذى وقعت فيه البشرية حتى غرقت فى الضلال إلى الأذقان .

وهب أن هذه العقيدة تصلح للإنقاذ . ولو من قبيل الجدل والمراء ، فإنك مـــع هـــذا الافـــتراض الذى لايقبل التحقيق ، سوف تصدم بأمة صيغت فى الـــتاريخ صياغة معينة ، حتى أصبحت لا تهوى الإختلاط بالمجتمعات ، ولا تريد لنفسها ولا لغيرها صلاحا ولا إصلاحا ، تضرب حول نفسها بسور من العصـــبية الديـــنية ، وتتحمس للعرق والسلالة ، وتتسربل بالقومية ، وتختفى خلف أسوارها وحدودها .

إنها على الجملة أمة إذا قدرت دمرت ، وإذا قهرت خنعت .

وهذا حظها من الحضارة والتاريخ[1].

وأنت تستطيع معى حين نتأمل وعى الناس بالتوحيد فى القرنين السادس والسابع من ميلاد المسيح على الأقل أن نجد بسهولة عقيدة مضطربة أوقعت الناس فى حيرة ، وباعدت بينهم وبين طمأنينة الباطن بعد المشرقين وأصبح الضـــلال فى العقيدة مصدرا للخطر ، ومدعاة لطلب النجاة من وراء الحجب أى من عالم الغيب .

(ب) فى مجال النظام :

وقد ضاع النظام في المجتمع كما ضاعت العقيدة .

إن من يتأمل المجتمعات في العصر القديم لينظر موقف الأمم من النظام

---

[1] راجع الشخصية اليهودية الإسرائيلية والروح العدوانية (د/ رشاد عبد الله الشامى سلسلة عالم المعرفة – الكويت) وراجع معه البهائية وسائل وغايات للمؤلف .

كمـــا تعرف علي موقفهم من العقيدة – يذهله ما يجده من أحوالهم وما يقرأه من سيرهم ونظمهم وعوا ئدهم .

ونحن نستطيع – بفضل من الله – أن نجمل ما كان عليه القوم أو الأقوام في عدة سمات رئيسية :

١- وأول هـــذه الســـمات أن المجتمع العالمي المنقسم إلي طبقات كانت الطـــبقة العـــليا فيه وهم – الملأ – مولعة بالحروب مفتونة بسفك الدماء فما كـــانت تخمـــد معركة بين دولتين أو بين قبيلتين إلا وتقوم في أعقابها أخري فيقـــتل العشرات من الرجال بل المئات والألوف لتقع جثثهم تحت أقدام الخيل من غير سبب معقول أو علة مقبولة في العقول .

والحـــروب تحتاج إلي الكثير من الرجال كحاجتها إلي القناطير المقنطرة من الأموال .

٢- ومـــن خـــواص هـــذه الطائفة وصفات العلية من القوم ، أنهم كانوا يعيشـــون فـــي ترف بغيض ونعيم لا يميز بين حرام وحلال ، وشهوة جامحة غـــرق فيهـــا نســـاء ورجال ، واستهلكوا فيها أموالا بذل في تحصيلها عرق وجهـــد ، وتحصل عليها الملأ من القوم من غير طريق مشروع لانفاقها علي هذا البذخ وذلك النعيم بغير حدود من حساب أو وازع من ضمير .

والمال الذي يحتاجه الترف مضافا إلي المال الذي تحتاج إليه الحروب يخرج عـــده عـــن حصـــر الخيال مهما كانت قدرة المتخيلين ، فضلا عن أن يوكل حصره إلي أرباب العقول .

٣- والخاصـــية الثالثة من خواص هذه الطائفة المتميزة كانت متمثلة في جمـــع الضـــرائب المجحفـــة ، وتحصيل الأموال بدرجة أرهقت جميع الأمم والشـــعوب وكـــانوا يتفننون في جمع الأموال بحيث يحرصون علي استبقاء الحـــد الأدنى لـــلموارد ، لأنهـــم لـــو قطعوها كل القطع لنضب منهم المعين ولانقطعت بهم وسائل تحصيل الأمـــوال .

ومـــن طرائف ما يروي أن أحد الملوك في ذلك العصر مر علي عماله الموكـــل إليهـــم جمـــع الضرائب ، فوجدهم لا يبقون ولا يذرون فقال لهم – ناصـــحا ومعاتـــبا في نفس الوقت – هذه الجملة التي لا تخلوا من إ شارة ولا يفوتهـــا في هذا المجال دلالة علي المقصود الذي نريده ، إنه قال لعماله : إن الـــراعي الحكيـــم هـــو الذي يجز غنمة ولا ينتفها ، ففهم عنه العمال قصده وعدلوا في مناهجهم التي انتهجوها لجمع الضرائب .

ولـــم يشـــهد التاريخ فترة كان العالم يجأر كله بالشكوى ، ويرزح تحت الظلم القاسي كهذه الفترة التي عم فيها الظلم الاجتماعي البلاد والعباد .

٤- ومـــن الخـــواص التي اشترك فيها علية القوم مع دهمائهم تلك الخاصية المتصـــلة بالإرادات والحريات ففي جميع الأوطان سواء ما كان منها خاضعا للنصـــرانية أو لغيرها من الديانات ، كان علية القوم يحتوون بمشيئتهم جميع الإرادات ، ويسيطرون سيطرة عجيبة علي من دونهم من الخلائق فأصبحت الطوائـــف الدنيـــا بالنسبة إلى علية القوم كأنهم الأشباح التي لا روح فيها ولا أثـــر لـــلحياة ، وكأن هؤلاء مع أولئك كاللعب المصمتة يحركها اللاعب من وراء ستار ، فيظنها بعض العقلاء من الأحياء وهي في الحقيقة لا روح فيها ولا حياة .

والشيء العجيب أن الطبقة الدنيا في كل وطن كانت تتنازل عن إراداتها وتترك اختيارها ، وهي تظن أن هذا المسلك هو المسلك الصحيح وغيره من المســـالك يعـــد مـــن قبيل الشين الأخلاقي والعصيان الديني والخروج علي العادات والتقاليد .

وحيـــن يصـــل مســـلوب الإرادة إلى هذا الحد يكون قد أسدل على نفسه ســـتارا لا يمكن رفعه ، ويكون قد منح الظلم والطغيان عمرا وأجلا لا يعرف غايته .

وقـــد ســـبق أن قلـــنا فيما سطرناه فى هذا البحث : أنه لا يكفي فى رفع الظلم أن يكون الظلم قد وقع ، فكم من مظالم قد وقعت فى المجتمعات وكتب

لها البقاء والاستمرار ، ولكن لكى يرفع الظلم عن المظلومين ، لابد أن يشعر المظـلوم أنـه قد ظلم ، وبأن ما وقع به طغيان واعتداء على الحق لا يجوز استمراره وأن تقوم فى صدره ثورة عارمة تقض مضجعه وتوقظه من نومه هـنا فقـط يـأخذ المظلوم فى طريق رفع الظلم عنه ، ويتعلق بأسباب إزالة الجـور عن كواهله ، وهو مستعد أن يدفع فى سبيل غايته بما يملك ويضحى بكل ما هو عزيز لديه لأنه لا يجوز له أن يحتفظ بشئ بعد أن نزل به بعض أبناء نوعه إلى مرتبة هى أحط من مرتبة السوائم .

هـذا الشعور بالظلم وذلك الإحساس بوجوب تنحيته والقضاء عليه ، لم يكـن مـن الأمور المألوفة فى مجتمعات الدنيا على اختلاف مشارب سكان المعمورة فى القرنين السادس والسابع لميلاد المسيح عليه السلام .

٥- ومن الخواص الاجتماعية التى وجدناها ونحن نطالع هذه الحقبة من الـتاريخ ، أن المـلأ أو عـلية القـوم كانوا يطمئنون لغياب الشعور بالظلم ووجـوب تنحيـته من مجتمع الدهماء الذين أوقعوا عليهم المظالم ، إلا أنهم كـانوا يشـعرون وسط هذا الظلام بأن هناك بقية من فطرة وآثارة من حكمة الأنـبياء الماضين ، وهم يخشون من بقايا الفطرة ومن بقايا حكمة الأنبياء أن يتسـلل بعـض مـنها إلى نفـوس القوم وعقولهم فيشعرون بأنهم مظلومون ويـودون لو نفضوا عن كواهلهم عبء هذا الظلم ، فاصطنعوا منهجا عجيبا لـتأمين أنفسهم مغبة صحوة فكرية أو ثورة بدنية ونفسية عارمة ، لقد حاولوا - ولا ندرى أهذه صدفة أم اتفاق - أن يقننوا لهذا الظلم وذلك الاستعباد تقنينا اجـتماعيا ثـم ينسبونه إلى الله علام الغيوب ، أو على الأقل إلى الإله الذي تتصوره هذه الشعوب وتتقرب إليه رغبة ورهبة .

فـفى المجتمع النصرانى سلبت الحريات بكل أنواعها ، ونسب ذلك إلى الله عز وجل .

وفى المجـتمع الهـندى قيل للهنود إن الطوائف امتياز يرجع إلى أصل الخلق ، إذ الإله الذى يعبدونه قد خلق الناس من نفسه طوائف ودرجات حيث

خـــلق الطائفة العليا والطبقة الممتازة من أعلى جزء فيه : وهو رأسه والطبقة التى تليها من صدره ، ثم خلق طبقة ثالثة من فخديه ورابعة من أقدامه .

هكذا كان الخلق ، وهكذا كانت إرادة إلههم .

وانســـجاما مع هذه الإرادة العليا لا يجوز لطائفة من الطوائف أن تتعدى خطها المرسوم لها .

وانسجاما مع هذه الإرادة العليا كذلك ، يجب على كل طائفة أن تقوم بتنفيذ ما يسند إليها من مهام ومطالب اجتماعية ، ولا يجوز لها أن تتعداها أو تقصر فيها .

وفى هذا المجتمع قانون للعقوبات كل مادة من المواد فيه تلائم الطبقة أو الطائفة التى تخاطب بها ، فقد تكون الجريمة واحدة غير أن العقوبات متفاوتة بتفاوت المنازل والدرجات .

وفى المجـــتمع الفارســـى فلسفة ونظام قريبان من فلسفة ونظام المجتمع الهـــندى ، والطامة الكبرى التى تبدو لنا من تتبع هذه الخاصية من الخواص الـــتى بـــرزت فى هذه المجتمعات أنها قد قنن لها وأصبحت المظالم وسبلها مغـــلقة بســـتار كثيف من الأوهام ، يؤمن الظالم على مستقبله ويضرب على أذان المظـــلوم ويقـــول لـــه نـــم عليك ليل طويل فارقد ، ونحن لا نريد أن نستقصـــي الخواص والأحوال ، وإنما فقط نريد أن نقول إن ما فى الكون فى القـــرنين السادس والسابع يجمعه كله خراب وانحراف أفى العقيدة ، وخراب وانحـــراف فى النظام ، وحين ينحرف المجتمع فى عقيدته ونظامه يفقد بهذا الانحراف أسباب أمنه فى باطنه وفى ظاهره .

وليـــس معنى ذلك أنه لم يكن هناك من ومضات لحكمة باقية من حكم النـــبوة الماضـــية ، ولا خلجات من خلجات الفطرة السليمة المستقيمة لا لقد كانت هناك بعض الخلجات بالفعل وبعض الآثار الباقيات من حكمة النبوة فى الواقع .

وقـد ظهـرت هـذه الآثـار فى نحو شبه الجزيرة العربية كما بينا من عرضـنا لأحـوال ، الشكاك فى العقيدة ، وقد ظهر مثله فى نفس الرقعة من العالم متصلا بالنظام والشريعة .

حيـث قد حكى لنا التاريخ الثبت والسنة النبوية الصحيحة شيئا عن حلف قد وقع فى مكة قبيل البعثة يسمى حلف الفضول ، قد امتدحه النبى صلى الله عـليه وسـلم بيـن أصـحابه فى عصر المبعث ، قال ابن هشام وأما حلف الفضـول فحدثني زياد بن عبد الله البكائى عن محمد بن إسحاق قال : تداعت قـبائل مـن قـريش إلى حلف ، فاجتمعوا له فى دار عبد الله ابن جدعان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب بن لؤى لشرفه وسنه فكان حـلفهم عـنده بنو هاشم وبنو المطلب ، وأسد ابن عبد العزى ، وزهرة بن كـلاب وتيـم بـن مرة ، فتعاقدوا وتعاهدوا على ألا يجدوا بمكة مظلوما من أهـلها وغيـرهم ممن دخلها من سائر الناس إلا قاموا معه ، وكانوا على من ظلمه حتى ترد عليه مظلمته ، فسمت قريش ذلك الحلف : حلف الفضول .

وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه : قال ابن إسحاق : فحدثنى محمـد بـن زايـد بن المهاجر بن قنفذ التيمى أنه سمع طلحة بن عبد الله بن عـوف الزهرى يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : **" لقد شهدت فى دار عـبد الله بن جدعان حلفا ، ما أحب أن لى به حمر النعم ولو أدعى به فى الإسلام لأجبت "**[1] .

صـحيح كان هناك آثار من حكمة النبوة كما رأيت ، وومضات من طبع الفطرة السليمة على نحو ما بينا لك .

غير أن هذه الآثار وتلك الومضات لم يكن لها من آثار فى استنقاذ الأمم والشـعوب ، إلا كـتـلك الآثـار التى تتركها الحباحب[2] فى الليالى شديدة

---

(1) سيرة ابن هشام ١/١٢٢ ط.شركة الطباعة الفنية المتحدة – القاهرة . تقديم وتعليق وضبط طه عبد الرءوف سعد – انظر مسند أحمد ١/١٩٠/١٩٣ بمعناه .

(2) الحباحب : ما اقتدح من من شرر النار فى الهواء من تصادم الحجارة وقيل الحباحب : ذباب يطير بالليل كأنه الليل له شعاع كالسراج (انظر لسان العرب)

الظلمة .

إن هــذه الحباحب لا تؤثر شيئا فى ظلمة مطبقة ، وتلك الآثار الباقيات لا تؤثر شيئا فى إصلاح عوائد الأمم أو عقائدهم .

فهل ستظل هذه الأمم على هذا النحو من الضلال لقد أصبح العالم بهذا الفساد فى العقائد والنظام يتطلب الإصلاح والتعديل ، أو على الأحرى يتطلب الهــدم وإعادة البناء ، وليس له من منقذ – والحالة هذه – إلا أن يكون نبيا له صلة صحيحة بالسماء .

وقــد اقتــنع بهذا الجانب من دلائل نبوته صلى الله عليه وسلم كثرة من العلماء ، بحيث لو لم يكن له من دلائل النبوة سواه لكفاهم .

اقتنع هؤلاء العلماء – وهم كثرة لا يستهان بها – بهذا الجانب من إعداد الساحة على أنه دليل على نبوة عظيمها القادم ، لا يحتاج معه إلي ما يعضده من الأدلة .

وكــثير من الناس اليوم حين يتأملون في هذا الجانب من جنبات الساحة ربمــا يقلــبون كفــا علي كف وهم يتألمون حسرة علي هذا المجتمع الذي لم يستفد من الأحوال التي مضت ، والظروف التي قاسى منها الذين عاشوا تلك الحقــب التي سبقت ظهور عظيم الساحة ، والذي أنقذهم من أهوال إذا أمكن تصورها فإنه لا يمكن تصور كيفية الإنقاذ منها .

فيما قبل ظهور عظيم الساحة إذا رأينا بوضوح هذا الجانب السلبي رأينا الناس قد اضطربوا في العقيدة والتشريع .

والقــاعدة الــتي لا تخفاك أن الناس يحتاجون حتما إلي رسالة جديدة إذا نقــص وعيهم بالتوحيد ، واضطربت بين يديهم عقيدتهم ، وإذا نقصت أهمية الشريعة وضعفت عن أن تضبط لهم النظام وتقضي علي المشاحنات وتجتث أصول البغضاء .

ويجــب أن نعــلم أن نقــص الوعي بالتوحيد وعجز الشريعة عن القيام

بوظائفهـــا ، لا يمثلان السبب الحقيقي ، والممهد الواقعي لظهور عظيم جديد يجـــب أن تعـــد الســـاحة له ، إلا إذا كانت نصوص الشريعة السابقة قد طرأ عليها من التحريف والتزييف قدرا لا يمكن معه الاهتداء إلي الإرادة الحقيقية والمشيئة الإلهية في إصلاح أحوال البلاد والعباد .

وأنـــت خبير يا صاحبي المتأمل معي في إعداد الساحة للنبي ، أنه قبيل ظهـــور عظيم الساحة لم يكن هناك نص شرعي صحيح النسبة إلي الله يمكن الاعتماد عليه في إصلاح العقيدة ، أو بناء شريعة منقذة .

هـــنا يمكـــن أن نقـــول لـــك بغاية الارتياح إن الكون كله قد رفع أكف الضـــراعة إلـــي الله راجيـــا إياه أن ينقذه من الحيرة والضلال علي يد عظيم معه إثباتات نبوته ، ومعه المنهج المنسجم من العقيدة والتشريع معا .

كـــثرت ضراعة الكون إلي الله ، وتكرر إلحاحه علي ربه أن يرسل إليه المنقذ.

فكان النبي هو الجواب .

وكان النبي هو الكوكب الدري الذي تلألأ وسط الظلام .

الفصل الثالث

النبي صلي الله عليه وسلم
في كتب الأولين من أهل الكتاب



إجمال فى تمهـــيد

ترابط الأنبياء :

فـــي بدايـــة هـــذا الجانب من جوانب إعداد الساحة للنبي صلي الله عليه وســلم عظيمهـــا القادم ، لابد أن نشير هنا إلي سنة من سنن الله في الأنبياء نعـــرفها نحن (المسلمون) كما يعرفها من قبلنا أهل الكتاب ، فهى سنة مجمع عـــليها ، فإذا ذكرت على لسان أى طرف من المتقدمين أو المتأخرين لم يكن هناك جدل حولها ولا خلاف يثار .

وســـنة الله الماضـــية فـــي الأنبياء أنه ما من نبي يأتي إلا وعليه واجب الوفاء بالميثاق الذي أخذه الله على النبيين .

والميـــثاق الذي أخذه الله على النبيين ، أن يكون كل نبي مصدقا لما بين يديـــه مـــن الأنبياء الذين مضوا ومعترفا بنبوتهم ، ومقدرا لمواقفهم ، ومؤكدا لنسبتهم إلى الله باعتبارهم رسله وأنبياءه .

هذه واحدة .

وأخـــرى تـــلزم أمـــم الأنبياء السابقين لزوما تاما وأصلها يكمن في أن الأنبياء السابقين قد بشروا أممهم بمن يأتي بعدهم من الأنبياء ، وأكدوا عليهم أنهـــم لا يســـعهم بالنسبة للنبي القادم إلا أن يتبعوه وينصروه ، ويتبعوا النور الـــذي أنـــزل معه ما دامت قد اكتملت له أركان نبوته ، وتوافرت له أسباب تصـــديقه فيما يدعيه من نبوته ، ومن صلة الوحي الذي جاء به بربه باعتباره مصدره .

أمران واضحان إذا يؤكدان أن سنة الله في أنبيائه تقوم علي أساسين :

أحدهمـــا : أن السابق يبشر بالنبي الذي سيأتي بعده ، ويأمر أمته باتباعه واتباع ما جاء به ونصرته علي من خالفوه .

وثانيهمـــا : أن النـــبي القادم لابد أن يكون مصدقا لجميع الأنبياء الذين ســـبقوه ، ومؤكدا علي أن نسبتهم إلي الله باعتبارهم رسله وأنبياءه هى نسبة

صحيحة ، وأن من شكك فيها يكون في أعلي درجات الإثم ، بحيث لا يجد له عند الله في الآخرة مكانا ولا مكانة .

والقــرآن الكــريم حين أراد أن يضع قاعدة للنقاش بين المسلمين وأهل الكتاب ، أشار بجد وحزم إلي هذه السنة التي وضعها الله للأنبياء " **وإذا أخذ الله ميــثاق النبيين لما آتيكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكــم لتؤمــنن به ولتنصرنه قال ء أقررتم وأخذتم علي ذلكم إصرى قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين** " [1]

وأنت لا يخفاك هذا الحزم والجد البادى فى الآية القرآنية ، والظاهر فى اســتعمال لفــظ الميثاق مضافا إليه النبيين ، وهو لفظ له إيحاءاته حين يكون مستقلا ، وتتسع دائرة هذه الإيحاءات حين تعظم درجة الذى أخذ الميثاق على نفسه .

ثــم إن هــذا الموضــوع المــزدوج الذى هو موضوع العهد والميثاق والظاهــر فى قوله تعالى : " **ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه** " فيه ما فيه من تحديد المسئولية وحدود موضوع الالتزام .

ولــم يكتف القرآن بأن يكون الصمت معبرا عن الرضى والقبول ، فإن جديــة الموضــوع لا تحــتمل إلا أن يكون الإقرار بالعبارة الصريحة " **قال ء أقررتم وأخذتم على ذلكم إصرى قالوا أقررنا** " .

والمســألة بين يدى الله لا تحتاج إلى كثير من التوثيق ، ومع ذلك فإن الله عــز وجــل قد أشهد الأنبياء بعضهم على بعض ، فى حالة تجمع بينهم يعز علينــا إدراكــهــا فى تصورات العقل المجرد ، ثم ختم الميثاق بشهادة الله عليه " **قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين** " .

وهكــذا عــرض الميثاق بألفاظ فيها من الجدة والحزم ، ليس هناك من ألفاظ تماثلها فيهما إلا ما كان من ألفاظ لغوية تؤدى هذا الغرض وتماثلها فى الأداء .

---

[1] آل عمران : ٨١

وظـــلت سنة الله ماضية فى الأنبياء من أولهم إلى خاتمهم عليهم الصلاة والســـلام ، ولـــم نسمع أن نبيا لاحق قد عاب مرتبة نبى سبق ، أو شكك فى نســـبة ما جاء به من الوحى ، خاصة هذا الوحى الذى لم تعبث به يد البشر .

إخبار الأنبياء بقدوم خاتم النبيين .

وليـــس النـــبى محمد بدعا من الرسل ، وإنما هو نبى من الأنبياء ، يزيد عنهم فى الوظيفة أنه ختم به النبيون وأصبحت رسالته خاتمة الرسالات .

ومن هنا فإن وظيفته تحتم عليه من خلال سنة الله فى النبيين أنه يصدق الأنبياء قبله ، ولكنه لا يبشر بنبى قادم ، لأن مشيئة الله قد اقتضت أنه لا نبى بعده.

وبمقتضـــى هذه السنة فى الأنبياء ، فإن ما سبقه من الأنبياء قد بشروا به وأخبروا بقدومه.

وجـــاءت هـــذا البشـــارات فى كتبهم واضحة العبارة ، مفهومة الإشارة محتوية على مالا يمكن دفعه من الأشياء التى تخصص النبي محمد صلى الله عـــليه وســـلم بهذه البشارات وهذه الأخبار . الأمر الذى يجب معه على هذه الأمـــم – وطبقا لسنة الله فى الأنبياء وأممهم ، أن يبادروا بتصديق هذا النبى تصـــديقا نشـــطا تملأه القوة ، ثم نصرته على مخالفيه فى كل حال تجب فيه النصـــرة ، فـــإن وجبت النصرة بالحجة والمنطق أقاموها معه ، وإن وجبت النصـــرة بالشهادة أدوها علنا ، وإن وجب حسم الباطل بالقوة نصروه بكل ما يملكونه من قوة .

ولـــو أن أمـــم الأنبياء السابقين (أهل الكتاب) لم ينصروا النبى الخاتم فإنهم سيعرضون أنفسهم للوم والعتاب والتقريع فى الدنيا ، وغضب الله عليهم فى الدنيـــا والآخرة "**يا بنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأوفوا بعهـــدى اوف بعهدكم وإياي فارهبون * وآمنوا بما أنزلت مصدقا لما معكم ولا تكونـــوا أول كافر به ولا تشتروا بآياتى ثمنا قليلا وإياي فاتقون * ولا**

تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون * وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين * أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون "[1].

" **إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى مِن بعد ما بيناه للناس فى الكتاب أولئك يعلنهم الله ويلعنهم اللاعنون * إلا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا فأولئك أتوب عليهم وأنا التواب الرحيم** "[2].

والقرآن الكريم يحتوى على كثير من نظائر هذه الآيات التى تقرر سنة الله فى الأنبياء ، وتحدد جزاء مخالفة أمم الأنبياء السابقين لتوجيهات أنبيائهم.

وجل الأنبياء قد وصلتنا بشاراتهم بخاتم النبيين بما يعد إعدادا للساحة لاستقبال عظيمها حين يأتى ميعاد ظهوره .

ومن يتأمل بشارات الأنبياء بالنبي صلي الله عليه وسلم يجد أنها كثيرة يصعب عدها في آحاد ، غير أنه يمكن حصرها بالتصنيف والتنويع وضرب الأمثال لكل نوع بمقدار ما يتضح به النوع ويظهر مقصده .

ونحن حين نتأمل بشارات الأنبياء لنجد من جميعها ما يخدم خطة تصنيف هذه البشارات ، التي وردت علي لسان الأنبياء ، فإنه لا يعز علينا ذلك ، إذ إننا سنجد من سخاء البشارات وكثرتها علي لسان المبشرين ما يسمح لنا أن نصنفها إلي ستة أصناف .

أ- فمن الأنبياء من عينه باسمه .

ب- ومنهم من ذكره بصفته .

جـ- ومنهم من عزاه إلي قومه .

د- ومنهم من أضافه إلي بلده.

هـ- ومنهم من خصه بأفعاله .

---

(1) البقرة : ٤٠ – ٤٤

(2) البقرة : ١٥٩-١٦٠

و- ومنهم من ميزه بظهوره وانتشاره .

وســوف نحاول في الصفحات القادمة بمشيئة الله أن نشرح هذه المحاور أو تــلك الأصــناف ، مصــطنعين الأمثــلة لكل صنف بما يعيننا علي شرح الغرض المراد منه ، آملين أن نحظي من توفيق ربنا علي قدر كرمه ، وبما يعينــنا عــلي تصــوير إعداد الساحة من هذا الجانب بغير تقصير نلام عليه وبغير خطأ يخل بما نحن بصدده من إيضاح .

وعلي الله قصد السبيل



ولنـبدأ هذه البشارات بالنبي صلي الله عليه وسلم بإخبار السابقين باسمه عليه الصلاة والسلام .

وإنه لا يغيب عنا جميعا أنه قد جرت عادة العرب كما هي عادات جميع الخلائق على تسمية كل إنسان باسمه عند ولادته .

وأسـماء العـرب محفوظة ، كما أن عادات غير العرب فى أسمائهم لا تكاد تخفى على أحد .

وليـس فى عادة العرب ولا فى عادة غيرهم أنهم يسمون أبناءهم باسم مشتق من المادة (ح . م . د) .

وما يشتق من هذه المادة كثير : **كأحمد ، ومحمد ، ومحمود .**

والـتاريخ لـم يحفـظ لنا اسما واحدا من هذه المادة أطلق على أحد من الناس قبل النبى الخاتم .

وفى إطـار هـذه المسلمة التاريخية والاجتماعية معا ، نجد هذا النص الصـريح ضـمن نصوص الكتاب المقدس فى عهده القديم : **(حسب الكلام الذى عاهدتكم به عند خروجكم من مصر وروحى قائم فى وسطكم لا تخافوا لأنـه هكـذا قال رب الجنود . هى مرة بعد قليل فأزلزل السموات والأرض والـبحر واليابسة . وأزلزل كل الأمم وسوف يأتى حمدا لكل الأمم فأملأ هذا البيت مجدا قال رب الجنود. لى الفضة ولى الذهب يقول رب الجنود . مجد هذا البيت الأخير يكون أعظم من مجد الأول قال رب الجنود وفى هذا المكان أعطى السلام يقول رب الجنود [1]).**

وهذا الكلام الوارد فى الكتاب المقدس قد جاء بصورة أوضح فى القرآن المجيد .

---

(1) حجى – الإصحاح الثان الفقرات ٥ : ٩

وســـوف نركـــز هنا على بعض الكلمات الواردة فى هذا النص قبل أن نجمل الحديث حول المفهوم من سياقه .

وأول هـــذه الكـــلمات التى كانت فى التاريخ الدينى موضع الاهتمام من اليهـــود والنصارى على السواء هى كلمة (حمدا) بكسر الحاء وسكون الميم وفتح الدال بعدها ألف.

ويجـــوز عند الخبراء فى قراءات اللغات القديمة كالعبرية والآرامية أن تكتب الكلمة وتقرأ هكذا (حمد)

وهؤلاء المتخصصون فى اللغات القديمة حين تتبعوا هذه الكلمة ، تتبعوا ترجماتها إلى اللغات المختلفة ووازنوا بين هذه الترجمات .

وكـــانت حصـــيلة تتـــبع هؤلاء العلماء لهذه الكلمة بعد ترجماتها ، أنهم وجـــدوا هذه الكلمة تترجـــم إلـــى (مشتهـــى كل الأمم) ، وقريب من هذه الترجمة أن نقول : (أمنية جميع الأمم)[1].

والـــترجمة عـــلى هذا النحو تعنى أن البشارة لا تشير إلى ذات بعينها ، وإنما تشير إلى حالة من التطلعات غامضة مبهمة .

ونحـــن لا نســـتطيع أن نخـــرج مـــن هذا الغموض وذلك الإبهام إلا إذا اعتمدنا عل نوع آخر من الترجمة لهذه الكلمة يكون أكثر دقة .

وهـــذا مـــا فعله – القسيس دافيد بنجامين كلداني – الأستاذ والمتخصص في علم اللاهوت ، حيث ذهب إلى أن الذي يتتبع كلمة (حمد) فى سياقها لا يمكن له أن يوافق بصفة قاطعة على أنها تدل بدقة على مجرد حالة غامضة من الأشواق النفسية التي لا تتعلق بشخص أو ذات .

عـــلي أن الـــنص الـــذي نقلناه عن الكتاب المقدس لم يقتصر علي ذكر الكلمة (حمدا) أو (حمد) وإنما ضم إلي ذلك كلمة أخري هي كلمة (الإسلام) .

وبعض الترجمات قد وردت فيها كلمة(الإسلام) بدون أداة التعريف (أل)[2]

---

[1] الكتاب المقدس – حجى – الإصحاح الثان فقرة : ٧ فى طبعتها العربية ص ١٣٣٨

[2] راجع الترجمة العربية للكتاب المقدس – السابق فقرة : ٩

وحيـن تنضم كلمة (السلام) إلي كلمة (حمد) أو حمدا) لا يخلو اقترانهما من فائدة ، ذلك أننا لو أخذناهما علي نحو ما هما واردان في النسخة العربية ومـا يشـابهها مـن ترجمات أخري ، لوجدنا سياق الكلام بعد ترجمته هكذا (ويأتي مشتهي كل الأمم) و (وفي هذا المكان أعطي السلام) .

والكـلمة المضـافة هنا التي هي (السلام) يمكن لنا أن نفهمها علي أحد معنيين :

الأول أن نقول إن كلمة (السلام) تعني حالة مطلقة يشعر بها مجتمعات الناس توصف بأنها (السلام) .

وهذا الفهم لكلمة (السلام) علي هذا النحو إذا ما وضع في هذا السياق لا نسـتطيع أن نفهـم مـنه شيئا غير أشياء غامضة ، وهمس حالم لا معني له مـؤداه : أنـه سيأتي مشتهي جميع الأمم لتشعر الأمم بحالة من السلم مطلقة فجة .

والـثاني أن نقـول : إن كلمة (السلام) إنما هي علم علي دين جديد فيه شـرائعه وعقـائده ونظامه الأخلاقي ، أراد الله ظهوره علي يد شخص بعينه يرسله إلي جميع الأمم ومعه هذا الدين الذي يسمي بـ(الإسلام) .

وهـذا النوع من الفهم مقبول جدا من الناحية المنطقية ، لا يشعر المرء معه بشيء من القلق ولا بشيء من الحيرة .

فـنحن إذا فهمنا الكلمتين (حمدا) و (الإسلام) بعد اقترانهما ، يسهل علينا جدا فهم نبوءة حجي .

وفـي اللغة العبرية القديمة هذا التعبير **(في يافو حمداث كول هاجوييم)** وهـو يعـني حرفيا : **(وسوف يأتي حمدا لكل الأمم)** ، الأمر الذي يؤكد ما ارتأيـناه مـن أن النـبوءة لا تعني بـ(حمدا) إلا هذه الفكرة التي تدور حول شخص بعينه منتظر يحمل اسما مشتقا من هذه المادة التي هي : (ح . م . د) ليكون :- أحمد أو محمد أو محمود -

ولـكى تكتمل الصورة وتنسجم من الناحية الفكرية لتصبح النبوءة مقبولة

عقليا ، لابد أن نتصور هذه الخاصية في اللغة العبرية .

ففي اللغة العبرية حرفان هما : (ها) وهذان الحرفان ليس لهما من دلالة إلا أن يكـــون معا أداة تعريف : (أل) أو يكون حرف جر (لـــ) ، فإذا اقترنت (هـــا) بـــ(شالوم) التي تعني (السلام) ، فإن المعني الحقيقي لها لا يفهم إلا أن يكون (الإســـلام) .

وعـــلي هذا فإن المعني الشامل المفهوم من هاتين الكلمتين بعد اقترانهما هـــو مـــا ذكرناه من قبل ،من أن حجي قد أمر من الرب أن يخبر قومه بأنه ميرسل في المستقبل القريب نبيا اسمه مشتق من مادة (الحمد) ، سيأتي بدين لكل الأمم اسمه (الإســـلام) .

وهـــذا المعني المستخلص علي هذا النحو ، هو ما ذكره " القسيس دافيد بـــنجامين كلداني " ولم يقبل غيره من التخريجات البادية من بعض الترجمات للكتاب المقدس .

يقول الرجل : (... فإذا أخذنا هذه النبوءة بالصيغة التجريدية لكلمتي "حمـــدا" و " شالوم " علي أنهما " الأمنية " و " السلام " ، فحينئذ تصبح تلك النـــبوءة لا شيء أكثر من " همس غامض مبهم ولا يفهم معناه " ولكن إذا فهمـــنا المقصود من التعبير بكلمة " حمدا " بأنه فكرة ثابتة عن شخص أو عـــن حقيقة واقعة ، وإذا ما فهمنا المقصود من كلمة " شالوم " بأنها ليست حالة مشروطة ، بل هي قوة فعالة وديانة رسمية ثابتة ومعترف بها عندئذ لابـــد من اعتبار هذه النبوءة على أنها صادقة لا إنكار فيها ، وأنها مطابقة لشخصية " أحمد " وبعثته بالإسلام ، ذلك لأن كلمتـــــى " حمدا " و " شالوم " أو " شـــلاما " تؤديـــان بدقـــة نفس الدلالة والأهمية لكلمتى " أحمد " و " الإسلام "[1].

ومـــا يؤكـــد هذا المعنى في العهد القديم ما جاء في نبوءة (حبقوق)

---

[1] محمد في الكتاب المقدس / تأليف القسيس دافيد بنجامين كلداني – ترجمة فهمي شما – مراجعة وتعليق أحمد محمد الصديق – طبع دولة قطر – الطبعة الثالثة ١٤١٠ هـــ – ١٩٩٠ م – ص ٥٠ .

النـــبي من التبشير برسول الله صلى الله عليه وسلم وهو قوله .(**القدوس من جبل فاران جلاله غطى السموات والأرض امتلأ بحمده وتسبيحه**) .

وهــذا النص على هذا النحو مترجم عن النسخة الإنجليزية ، لقد اقتبسناه مـــترجما مـــن كتاب " محمد في الكتاب المقدس " في نسخته العربية والمشار إليه قريبا .

ويبدو لي أن هناك بعض الاختلافات في نسخ الكتاب المقدس مردها إلى المترجمين .

والـــنص على ما ذكرناه نقلا عن البروفيسور " **دافيد بنجامين كلداني** " يظهـــر أكثر وضوحا من وروده في الكتاب المقدس في ترجمته العربية حيث جاء فيها :

(الله جـــاء من تيماء والقدوس من جبل فاران . سلاه جلاله غطى السموات والأرض امتلأت من تسبيحه) [1].

وهـــذه النـــبوءة فـــي جميع الأحوال وفي مختلف صيغ الترجمات ، تدل دلالة قاطعة على أن النبي حبقوق قد بشر بنبي سيظهر في جبال مكة ، اسمه مشتق من مادة (الحمد) .

ولقـــد نقـــل الماوردي نبوءة النبي حبقوق بعبارة متسقة من نسخة لم تقع تحـــت يـــدي ، أحـــاط بكـــل هذه النبؤة من حيث معانيها ، واستنبط منها ما اســـتنبطناه ســـلفا من أن هذه النبوءة دائرة حول اسم النبي محمد ومتعلقه به باعتباره ذاتا لا فكرة ، وواقعا تاريخيا لا أشواقا متأملة .

وهـــذا هو النص كما أورده الماوردي ، معقبا عليه بما فهمه منه ، وهو فهـــم مســـاو لما فهمه " البروفسور دافيد بنجامين كلداني " مصرحا بأن كل إنسان منصف لا يجوز له أن يجاوز هذا الفهم إلى غيره .

يقول الماوردى [(**فصل من بشائر حبقوق من أنبياء بني إسرائيل**)

---

[1] راجع الكتاب المقدس (حبقوق) الإصحاح الثالث فقرة ٣

(جــاء الله من طور سيناء واستعلن القدوس من جبال فاران وانكسفت لبهاء محمد وانخسفت من شعاع المحمود وامتلأت الأرض من محامده لأن شعاع منظره مثل النور يحفظ بلده بعده وتسير المنايا أمامه وتصحب سباع الطيــر أجــناده قام فمسح الأرض وبحث عنهم فتصفصفت الجبال القديمة واتضــعت الــروابي الدهرية وتزعزع سور أرض مدين ولقد جاز المساعي القديمة قطع الرأس من حب الأثيم ودمغت رؤوس سلاطنيه بغضبه ومعلوم أن محمدا وأحمدا ومحمودا صريح في اسمه وهما يتوجهان إلي من انطلق عليه اسم المحمد وهو بالسريانية موشيحا أي محمد ومحمود ولهذا إذا أراد السرياني أن يحمد الله تعالي قال شريحا لإلهنــا][1].

وإذا كان اسم النبي صلي الله عليه وسلم قد ظهر من هذه النصوص التي اقتبسناها من الكتاب المقدس في عهده القديم علي أنه هوَ المبشر به فعلا فإن الكتب القديمة غير الكتاب المقدس قد ورد فيها اسم النبي صلي الله عليه وسلم والرسالة التي سيأتي بها للعالمين .

ونعــني بالكــتب المقدســة الــتي توارثهــا الأمم من غير أمتي اليهود والنصارى ، ما توارثه أمتا الهند وفارس ونحوهما .

ولقــد اهــتم بعــض العــلماء المسلمين بمطالعة هذه الكتب واستخراج النصوص منها ، والرد علي الشبه التي يصطنعوها معارضو فكرته .

ومــن هــؤلاء الناس " مولانا عبد الحق قد يارتى " في كتاب له سماه " محمــد فى الأسفار الدينية العالمية " وهو كتاب صدر فى اللغة الإنجليزية ولا أعلم أنه قد نقل إلى اللغة العربية .

وسأضع بين يديك نصا من هذا الكتاب والمسئول عن اقتباسه من الكتاب

---

[1] أعلام النبوة (لأبى الحسن على الماردى) ت ٤٥٠ هــ طبعة بيروت الطبعة الثانية ١٤٠١ هــ ١٩٨١ م – ص ١٣٢ .

الأصلي وترجمته إلى العربية أحد الكتاب المسلمين العرب[1].

يقول الأستاذ عبد الحق [**إن اسم الرسول العربي " أحمد " مكتوب بلفظه العربي في " الساما فيدا " من كتب البراهمة ، وقد ورد في الفقرة السادسة والفقــرة الثامنة من الجزء الثاني ونصها أن " أحمد تلقى الشريعة من ربه وهى مملوءة بالحكمة وقد قبست منه النور كما يقبس من الشمس"**]

ولقد كان الأستاذ عبد الحق واعيا بما فعله أتباع هذا الكتاب المقدس من محاولـــة صرف النص عن ظاهره كيلا يفهم الناس منه دلالته على المقصود من ورائه ، فهو لا يخفى وجوه الاعتراض التي قد تأتي من جانب المفسرين الـــبرهميين ، بل ينقل عن أحدهم (سينا إشاريا) أنه وقف عند كلمة " أحمد " فالـــتمس لهـــا معني هنديا وركب منها ثلاثة مقاطع وهي " أهم " و " آت " و "هي " .... وحاول أن يجعلها تفيد " إنني وحدي تلقيت الحكمة من أبي " .

قـــال الأستاذ عبد الحق ما فحواه أن العبارة منسوبة إلي البرهمي " فاتزا كانفا " من أسرة كانفا ، ولا يصدق عليه القول بأنه هو وحده تلقي الحكمة من أبيه .

ويســـتمر مولانـــا عبد الحق في دراسته للكتب المقدسة ، ليستخرج منها أسماء النبي وصفاته في صبر كامل ، وجهد لا تلين قناته معه .

عـــلي أن اســـم " أحمد " صلي الله عليه وسلم قد بشر به كذلك في العهد الحديـــث عـــلي لســـان عيسي بن مريم عليهما السلام بما مجمله : أنه قال لقومـــه: إنني سأذهب لكي يأتي إليكم " البار قليط " ، فهو لن يأتيكم ما دمت معكم والخير لكم أن أذهب وأن يأتيكم " البار قليط " فإذا جاءكم فاتبعوه .

والبار قليط كما يفهمه المنصفون [2]يترجم إلي " أحمد " .

غير أن بعض الترجمات قد نحت في ترجمته منحا آخر ، فقـــالوا : إن

---

[1] راجع مطلع النور أو طوالع البعثه المحمدية – عباس العقاد – ط . دار الهلال – القاهرة – ص ١٧ .

[2] راجع محمد في الكتاب المقدس (مرجع سبق ذكره)

" البار قليط " هو " المعزي " .

والخير لي ولك أن أضع النص بتمامه بين يديك من العهد الجديد .

جاء في إنجيل يوحنا ما نصه : (وأما الآن فأنا ماض إلي الذى أرسلني وليس أحد منكم يسألني أين تمضي ،لكن لأني قلت لكم هذا قد ملأ الحزن قلوبكم ، لكني أقول لكم الحق إنه خير لكم أن أنطلق لأنه إن لم أنطلق لا يأتيكم المعزي ، ولكن إن ذهبت أرسله إليكم ، ومتي جاء ذاك يبكت العالم علي خطية وعلي بر وعلي دينونة ، أما علي خطية فلأنهم لا يؤمنون بي وأما علي بر فلأني ذاهب إلي أبي ولا تروونني أيضا ، وأما علي دينونة فلأن رئيس هذا العالم قد دين .

إن لي أمورا كثيرة أيضا لأقول لكم ولكن لا تستطيعون أن تحتملوا الآن وأما متي جاء ذاك روح الحق فهو يرشدكم إلي جميع الحق لأنه لا يتكلم من نفسه بل كل ما يسمع يتكلم به ويخبركم بأمور آتية ، ذاك يمجدني لأنه يأخذ مما لي ويخبركم كل ما للآب هو لي لهذا قلت إنه يأخذ مما لي ويخبركم)[1].

وبصرف النظر عن هذه الترجمة لهذا النص ، فإن التأمل في فقراته لا يحتاج إلي بذل المجهود في إدراك أن القادم بعد عيسي بن مريم ، هو هذا النبي الخاتم صلي الله عليه وسلم .

إذ القادم بمقتضى هذا النص ، سيأتي ومعه شريعة موحى بها من رب العزة، ولم يأت نبي يحمل شريعة إلي العالمين من رب العزة منذ شريعة موسى عليه السلام ، إلا هذا النبي الذي ملأ الساحة هيبة وجلالا .

وبمقتضي هذا النص فإن النبي المنتظر سيأتي مدافعا عن عيسي عليه السلام وأمه ، ومنحيا عنهما تلك التهمة التي ألصقها بهما اليهود منذ ميلاد عيسي عليه السلام .

ولما أشرق نور محمد صلي الله علية وسلم وتلقي الوحي عن ربه ، كان

---

[1] الإصحاح السادس عشر ، الفقرة : ٥-١٥

مـــن بيـــن مـــا تلقاه قصة مريم عليها السلام وابنها النبي ، ولقد أذاعها النبي بجميع تفاصيلها بين الناس .

ومـــن تفاصـــيل هذه القصة أن اليهود قد اتهموا مريم البتول بالفاحشة ، وأقاموا في وجهها حجة لا يقدر علي مثلها الفكاك منها .

فـــلما جـــاء النبي محمد صلي الله عليه وسلم ، أخبر أن الله عز وجل قد نجاهـــا وابـــنها مما أراده بهما اليهود ، وكان أسلوب النجاة عجيبا ، حيث إن الله عز وجل قد أخرج لهما دليل البراءة من دليل الاتهام .

فـــإذا كان دليل الاتهام هو أن مريم قد أتت قومها وهي تحمل ولدها علي كتفها وهي غير متزوجة ولم ترتبط برجل ارتباطا شرعيا .

وإذا كـــان اليهود قد اعتبروا ذلك الولد ثمرة لقاء غير شرعي ، يتمكنون بواسطته أن يدينوا مريم البتول .

إذا كـــان هـــذا هو موقف اليهود ، فإن الله عز وجل قد أنطق عيسي بن مريم وهو في المهد صبيا .

وهـــو لـــم يـــنطقه بأوائل الحروف ، أو ببعض الكلمات التي يقدر عليها بعـــض النجباء من الأطفال لأول عهدهم باللغة ، وإنما أنطقه بكبريات الأمور ورءوس الفكر ، وعظائم العقائد .

فعيســي عـــندما نطـــق قال : **" إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبيا وجعلـــني مـــباركا أيـــنما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة مادمت حيا وبرا بوالدتـــي ولم يجعلني جبارا شقيا والسلام علي يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا " .**

ثـــم ذكر النبي صلي الله عليه وسلم أن الله قد عقب علي ما قاله عيسي وعـــلي قصـــته بـــتمامها قـــائلا **" ذلك عيسي بن مريم قول الحق الذي فيه يمـــترون مـــا كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه إذا قضي أمرا فإنما يقول له كن فيكون " .**

ثـــم أمـــر النبي صلي اله عليه وسلم أن يقول للدنيا كلها **" وإن الله ربي**

وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم " .

ولـم يلـتفت النبي إلي واقع الناس في عيسي عليه السلام إلا بمقدار ما يصـلحهم، فهـم كما قال الله فيهم " **فاختلف الأحزاب من بينهم فويل للذين كفـروا مـن مشهد يوم عظيم أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا لكن الظالمون اليـوم فـي ضلال مبين وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضى الأمر وهم فى غفلة وهم لا يؤمنون إنا نحن نرث الأرض ومن عليها وإلينا يرجعون** [1] .

هكذا تحدث النبى صلى الله عليه وسلم عن عيسى عليه السلام .

وهـذا الحديـث الـوارد على لسان النبى صلى الله عليه وسلم متصلا بعيسـى ، لـم يتحدث به النبى من عند نفسه ، بل إنه قد أخذه من الله وحيا يوحى على ما هو وارد فى البشارة الإنجيلية .

ولـم تعرف الدنيا مدافعا عن عيسى عليه السلام كما عرفت خاتم النبيين محمدا صلى الله عليه وسلم ، الأمر الذى ظهر بجلاء فى بشارة عيسى (ذاك يمجدنى لأنه يأخذ مما لى ويخبركم) .[2]

ومـا كان لبشر بعد وضوح هذه البشارات أن يوهم الناس أن المبشر به لم يأت بعد .

وما كان لبشر بعد وضوح هذه البشارات أن يقول للناس : إن المبشر به إنما هو عيسى عليه السلام نفسه .

مـا كـان لبشـر أن يدعى هذا ولا ذاك ولا أمثالهما ، لأنه بأمثال هذه الادعاءات يبطل ما جاء فى البشارة ، ويجعلها كلاما قد فرغ من معانيه ، أو قطع عن غاياته ومراميه .

وخلاصـة القـول فى هذا الموضوع كله أنه من بين رعاية الله لساحة النبي أنه قد بشر باسمه " محمد " أو " أحمد " أو " محمود " أو " المصطفى "

---

[1] أقرا هذه القصة فى القرآن الكريم فى نحو سورة مريم الآيات ١٦ : ٤٠

[2] إنجيل يوحنا الإصحاح السادس عشر فقرة ١٤

فيمـــا ســـبق النـــبي صلى الله عليه وسلم من الكتب التى أوحى الله بها إلى الأنبياء .

وأنـــت لا يجوز لك أن تستهين بالتبشير باسمه صلى الله عليه وسلم ، إذا عـــلمت هـــذه المعجزة الكبرى التى مؤدها أن الله عز وجل لم يشأ أن يتسمى أحـــد بهذه الأسماء المشتقة من الحمد أو الاصطفاء قبل النبي صلى الله علين وسلم .

وهذه الخاصية الكبرى قد علمها الأوائل والأواخر لاسم ذات الله وحده .

وهـــذه الخاصية لاسم ذات الله مستمرة إلى أن تقوم الساعة ، وهى دليل لغوى على وجود الله ، حيث أن جميع اللغات قد خلت من إطلاق لفظ " الله " عـــلى غير ذاته سبحانه ، الأمر الذى جعل القرآن يتحدى بقوله عن الله " **هل تعلم له سميا** "

وهذه الخاصية المطلقة لاسم الله قد منحت فى فترة من الزمان لاسم الله قـــد منحت فى فترة من الزمان لاسم النبى صلى الله عليه وسلم ، لكى يكون دليل صدق يؤيد النبى حين يدعى أنه مرسل من ربه .

وهـــذه الملاحظـــة قد أتفت إلى بعضها بعض الكتاب المحدثين ، فأخذت عليه أخطار نفسه وذكرها بحماس بالغ [1]

ويا ليت الناس يعلمون .

---

[1] راجع محمد فى الكتاب المقدس (مرجع سبق ذكره)

رأيــنا أن الشارات قد تضافرت جميعها على التبشير باسم عظيم الساحة القــادم، ورأيــنا أن اسم عظيم الساحة قد احتجزته العناية الإلهية له ، وشاء ربــنا أن لا يلتفت الناس إلى تسمية أبنائهم باسم مشتق من لفظة (الحمد " أو لفظــة " الاصـــطفاء " إلى أن جــاء النــبى صلى الله عليه وسلم ، وتسمى بالمشــتقات مــن الحمــد والاصطفاء جميعا فهو محمد ، وأحمد ، ومحمود والمصطفى صلى الله عليه وسلم فى الأولين والآخرين وإلى يوم الدين .

وإنــه لا يغيب عنا جميعا أن بشارة عيسى بأحمد عليهما السلام مع أنها واردة فى الإنجيل كما رأيت فقد ذكرها الله عز وجل فى القرآن المجيد " **وإذ قــال عيســى ابن مريم يا بنى إسرائيل إنى رسول الله إليكم مصدقا لما بين يــدى مــن التوارة ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين** "[1].

هذا إجمال ما ذكرناه فى المبحث السابق .

أمــا الآن فــإني بصدد أن أطلعك على لون آخر من التبشير على نحو وروده فى الكتب السابقة .

وهــذا النوع الآخر ينقلنا معا إلى الأرض التى هى مطلع النور ، والتى شهدت ميلاد عظيم الساحة النبى الذى انتظره الكون كله أجيال بعدها أجيال .

وســوف أبدؤك بالنص من الكتاب المقدس ، راجيا أن تمنحني شيئا من صــبرك وأنــاتك ، لأني سوف أضع النص بين يديك أكثر من مرة ، وستجد خلافــا فى الــلغة المســتعملة فى النص بالزيادة والنقصان أحيانا ، وبتغيير الألفاظ أحيانا أخرى .

ولكــنه فى جميـــع الأحيــان ســتجد النص يعبر عن المراد منه بغاية الوضوح .

---

[1] الصف : ٦

أما سبب هذا الاختلاف فمرجعه إلى الترجمة والمترجمين ، الأمر الذى جعل بعض الباحثين فى اللاهوت يعرب عن بالغ أسفه لأنه لم يعثر على النسخة الأصلية التى تحتوى على اللغة أو اللغات التى نزل بها الكتاب المقدس بقسميه القديم والجديد .

ونحن سنتجاوز هذا الأسف إلى محاولة الاستفادة من هذه النصوص والكشف عن دلالتها ومراميها .

فى الترجمة العربية التى بين أيدينا للكتاب المقدس هذا النص (**وهذه هى البركة التى بارك بها موسى رجل الله بنى إسرائيل قبل موته ، فقال : جاء الرب من سيناء وأشرق لهم من سعير وتلألأ من جبل فاران و أتى من ربوات القدس وعن يمينه نار شريعة لهم ، فأحب الشعب . جميع قديسيه فى يدك وهم جالسون عند قدمك يتقبلون من أقوالك ، بناموس أوصانا موسى ميراثا لجماعة يعقوب**)[1].

وفى نسخة أخرى نقل عنها الماوردى جاء النص على هذا النسق (**جاء الله من طور سيناء واستعلن القدوس من جبال فاران وانكسفت لبهاء محمد وانخسفت من شعاع المحمود وامتلأت الأرض من محامده**) [2]

أما الأستاذ دافيد بنجامين كلداني فقد نقل النص عن الترجمة الإنجليزية وجاء فيه(**وجاء الرب من سيناء ، وأشرق لهم من ساعير وتلألأ قدما من جبل فاران ، وجاء معه عشرة آلاف قديس ، ومن يده اليمنى برزت نار شريعة لهم**[3]).

ونحن حين نتأمل فى هذه النصوص نجد أن أوضحها وأجلالها هى تلك العبارة التى نقلها صاحب كتاب " **محمد فى الكتاب المقدس** " .

---

[1] الكتاب المقدس – الترجمة العربية – تثنية الإصحاح الثالث والثلاثون – فقرة ١ : ٤ .

[2] الماوردى – أعلام النبوة – (مرجع سبق ذكره) ص ١٣٢ وعبارته عن حبقوق وليست عن موسى .

[3] محمد فى الكتاب المقدس ، الطبعة العربية ص ٣٢ (مرجع سبق ذكره)

وهــذا الكــتاب نفسه هو الذى سار خلف فكرته شوطا طويلا يستنبط ما يســتنبطه مــن الكــتاب المقدس بنصوصه ويستشهد بها على كل مرحلة من مراحل بحثه .

فنراه يقول بعد نقل النص (ففي الكلمات شبه نور الرب بنور الشمس " وهــو قادم من سيناء وقد أشرق لهم من ساعير " ولكنه تلألأ بالمجد من " فــاران " حيث وجب أن يظهر مع عشرة آلاف قديس ، ويحمل بيده اليمنى شــريعة لهم ، ولم تكن لأي واحد من الإسرائيليين ، بما فيهم المسيح ، أية علاقة بــ " فاران " فإن "هاجر" مع ولدها " إسماعيل " تجولا في متاهات " بئر السبع " وهم الذين سكنوا بعد ذلك فى قفار " فاران " .

(سفر التكوين فصل ٢١ الجملة ٢١) :

" واتخــذت له أمــه زوجــة من أرض مصر ، ومن ولده الأول قيدار (عدنــان) انحدر الأحفاد العرب الذين سكنوا منذ ذلك الحين في قفار " فاران " واتخذوهــا موطــنا لهم ، فإذا كان " محمد " وكما هو معروف للجميع قد جــاء من نسل إسماعيل ، وابنه قيدار (عدنان) ، ثم ظهر بعد ذلك نبيا في قفــاز فــاران ، ثــم دخــل مكة مع عشرة آلاف قديس (مؤمن) ، وجاء بالشــريعة النارية إلي شعبه ، أو ليست هذه النبوءة السالفة الذكر هي التي تحققت بالحرف الواحد ؟؟...) [1]

والاســتفهام الذي وضعنا الكاتب عنده قد ترك العقل في طمأنينة والفؤاد علي استقراره .

فمكــة التي شهدت مولد هذا النبي العظيم هي التي أخبر عنها موسى في جزء من نبوءته ، علي أنها ستشهد كلمة الرب الأخيرة للعالمين .

وليــس هــناك من منطقة في جزيرة العرب ينطبق عليها نبوءة موسى عــليه السلام ، سوي هذه المنطقة التي ولد فيها هذا النبي الخاتم وهاجرمنها ثم عاد إليها فاتحا ومعه عشرة آلاف صحابي .

---

[1] محمد في الكتاب المقدس ص ٣٢

ويؤكـد الكـتاب المقدس أن هذا النبي بعد أن يخرج من مكة بعام واحد سينتصـر ويسطع نجمه ويدخل في مملكته جميع أبناء قيدار وهو جد العرب الأعلى واسمه بالعربية عدنان .

وما ذكره الكتاب المقدس قد وقع بالفعل .

ففـي العـام الثاني من الهجرة تقابل النبي مع قريش علي ساحة بدر في معركة سماها القرآن بمعركة الفرقان ، وهي التي التقي فيها الجمعان وانهزم فيهـا المشـركون هزيمة منكرة ، ترتبت عليها أن العرب قد تسامعوا جميعا بنصر المسلمين وهزيمة قريش .

ولم تجد محاولة القرشيين في استعادة هيبتهم بعد هذه المعركة فتيلا ولا قطميرا .

والسـؤال بعد ذلك هو نفس السؤال الذي سأله " **دافيد بنجامين كلداني** " وهـو : إذا لـم تكن هذه النبوءات تنطبق علي محمد صلي الله عليه وسلـم فعلـي مـن تنطبـق إذا ؟

ودعـني أحدثـك عن شيء – قد يلفت نظرك – ويقع من نفسك – علي حسبك من الإيمان موقعه الذي يليق بهـا .

ففي القرآن الكريم حديث صريح عن مثل هذه النبوءة الواردة في الكتاب المقـدس منسـوبة إلي موسى عليه السلام ، من أن الرب سيجيء من سيناء ويشرق من ساعير ويستعلن من جبال فاران .

وأنت قد يرضيك ما سأقصه عليك أو يغضبك .

وأنـت قد يكون ما سأقصه عليك سيقع منك موقع القبول والرضي ، أو يقع منك موقع السخط والرفض .

ومـع هذه الاحتمالات جميعا ، فإني لن، أحجب عنك ما أريد أن أحدثك بـه مخافـة هـذه الإحـتمالات أو مخافة الاختيارات المطروحة أمامك وما ستختاره أنت منها .

حيـــن نزل القرآن على النبي صلى الله عليه وسلم وقرأه على الناس كان مـــن بين ما قرأه النبي صلى الله عليه وسلم قوله تعالى : " **والتين والزيتون وطور سنين وهذا البلد الأمين لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم** "[1].

وأنـــت ترى معى أن الله عز وجل قد أقسم بأشياء ثلاثة على أنه قد خلق الإنسان في أحسن تقويم .

وهذه الأشياء الثلاثة هي :

التين والزيتون

وطور السنين (الذي هو طور سيناء)

وهذا البلد الأمين (الذي هو مكة)

ولقـــد فهـــم الناس جميعا عن القرآن هذا القسم وقيمته ، كما فهموا المقسم عليه ومكانته بين المخلوقين .

كما علم الجميع عن القرآن أن لله أن يقسم بما شاء وعلى ما شاء .

ولكـــنهم قد علموا في ذات الوقت أن الله إذا أقسم بشيء فإن الذي يقسم الله به يكون له وضع معين يتميز به من بين سائر الأشياء .

ثم تساءلوا عن التين والزيتون ، وعن طور سينين ، وعن البلد الأمين .

تساءلوا عن هذه الأشياء ، وعن ميزتها بين جميع الأشياء حيث أقسم الله بها ، ليعلم الناس أن الله قد خلق الإنسان في أحسن تقويم .

والـــذي يظهر لي أن المفسرين لهذه الآيات لم يكونوا على طريقة واحدة فـــي الإجابـــة عـــلى هـــذا التساؤل خاصة إذا كان هذا التساؤل يتعلق بالتين والزيـــتون ، إذ الأمـــــر واضح وضوحا تاما في (طور سينين) و (البلد الأمين) ، فليس هنالك من شك في أن (طور سينين) أو (طور سيناء) هو هذا الجبل الذى كلم الله فيه موسى ، كما أنه ليس هنالك من شك فى أن (البلد الأمين) هو مكة المكرمة التي تضم البيت العتيق .

---

[1] التين : ١ : ٤

الخلاف إذا كله حول أن نفهم المراد من التين والزيتون .

وأوائـــل المفســـرين ومن جاء بعدهم إلى عصور متقدمة قد عرضوا في هـــذه الجمـــلة ومـــا يفهمونـــه منها عدة آراء هي أشبه بالأقوال التي تروى وتحكى.

والكثيرين من المفسرين يتناقلون هذه الآراء من غير ترجيح لإحداها أو تحمس لرأى بعينه .

فمن قائل يقول : إن المراد بالتين والزيتون هو حقيقة هذين اللفظيين في دلالـــتيهما على معنييها ، فالتين هو هذه الشجرة المعروفة والمعروفة ثمرتها والزيتون هو هذا النوع من الشجر الذي يثمر ثمرته المعهودة لنا .

وأصـــحاب هذا الرأي يرون أن القسم بهاتين الشجرتين لما لثمارهما من الفوائد المعروفة .

وهـــم يعمـــدون إلى أهل الطب والخبراء بطبائع الأشياء ليأخذوا عنهما الفوائد التي تبرر إيراد القرآن لهما في مورد المقسم به دون سواهما .

ويعمد البعض إلى ذكر حديث منسوب إلى النبي في الإشادة بثمرة التين لـــم نجـــد له فى كـــتب الحديث أصلا يمكن أن نعتمد عليه فتجنبنا إيراده بين يديك.

ومن قائل من المفسرين يقول : إن هاتين الشجرتين قد وردتا في القرآن الكـــريم في محل المقسم به على تقدير مضاف محذوف ، وهم يقدرونه بكلمة منـــبت ، حـــتى يسير النسق لو قدرنا المحذوف هكذا : ومنبت التين، ومنبت الزيتون ، وطور سينين وهذا البلد الأمين .

وهؤلاء يستندون إلى قاعدة تقول : (وحذف ما يعلم جائز)

والذاهـــبون إلى هـــذا الرأي لم يسيروا في تحليلاتهم إلى ما هو أبعد من ذلك .

ويذهـــب بعـــض المفسرين إلى أن التين والزيتون هنا إنما يرمزان إلى بعض الأماكن التي لها تميز على غيرها من سائر الأرض .

فيقولـــون : إنهما ربما يكونان رمزين إلى جبلين أو اسمين لهما ، لأنهما جـــبلان مقدســـان في أرض الشام يقال لأحدهما بالسريانية طور تبيا وللأخر طور زيتا .

وقـــال قـــتادة : التين الجبل الذي عليه دمشق والزيتون الجبل الذي عليه بيت المقدس .

وقال عكرمة وابن زيد : التين دمشق والزيتون بيت المقدس وهو اختيار الطبري .

وأقـــوال أخـــري قريـــبة مـــن هذه الأقوال ، أو مغرقة إلي حد بعيد في الخيال.

وهي أقوالهم تناقلها المفسرون في مجملهم بغير ترجيح أو إبداء اختيار [١]. وهناك من المفسرين من أبدي بعض الترجيحات .

فالشـــوكانى تحمـــس إلـــي القول بأن اللفظ علي حقيقته ، إذ لا ضرورة لـــلعدول عـــنه ، فالتين هو التين ، والزيتون هو الزيتون ، وشدد النكير علي من خالفوه [٢]

ومـــن الأشـــياء التي لاتنكر أن من بعض المحدثين من رأي أن يرجئ المقصود من فهم هاتين اللفظتين إلي علم الله [٣] .

أمـــا صـــاحب كـــتاب التحرير والتنوير فقد استشعر المشكلة ، وهى أن المقســـم بـــه إن كان متعددا ، فإن المرء ينبغي أن يبحث عم بين وحداته من تناسق ، كما يجب أن يبحث عن التناسق بين المقسم به والمقسم عليه خاصة

---

[١] راجع مطلع سورة التين – البيضاوى تفسير ، وأبا السعود تفسير حـــ ٩ ص ١٧٤ وما بعدها ، والرزازى – تفسير حـــ١٦ ص ٤٩٨ وما بعدها ، وتفسير النووى الشهير بـــ مراح لبيد لكشف معنى قرآن مجيد – حـــ ٢ ص ٤٥٣ وما بعدها ، وكثيرا غيرها .

[٢] الشوكاني – فتح القدير م ٥ ص ٤٦٤ . .

[٣] راجع سيد قطب – الظلال حـــ٦ ص ٣٩٣٢ .

فى المعانى التى تبدوا لنا من كل واحد على حدة .

وهذا أمر جعل صاحب التنوير يميل إلى أن التين والزيتون باعتبارهما لفظين لا يخلوا الواحد منهما فى دلالته على معـــــناه من إلقاء ظلال على المكان الذى ينبت فيه بقصد لفت النظر اليه .

غيـــر أن الرجل لم يكمل فكرته إلى غايتها فيما نرى [1]، وعبارته تشبه إلي حد كبير عبارة الألوسي ومن نقل عنه [2]

وقـــبل أن أذهـــب معك فى الطريق إلى مداه أحب أن أستكمل الصورة بذكر هذا الاتجاه .

وذلك أن بعض العلماء من المفسرين بعد أن استشعر المسألة وأحاط بحدودها نحـــن بتفسير التين والزيتون وطور سينين والبلد الأمين منحنى زمانيا، حيث قسم التاريخ إلى أربع حقب .

من آدم إلى نوح .

ومن نوح إلى موسى .

ومن موسى إلى محمد صلى الله عليه وسلم .

ومن محمد إلى أن تقوم الساعة .

ورأى أصحاب هذا التقسيم أن آدم حين خالف الأمر الوارد إليه من ربه بالأكل من الشجرة ، واستشعر المخالفة ، ذهب يقصف على جسمه من ورق الجنة ، وكانت الشجرة التى عمد إليها ليأخذ من ورقها هى شجرة التين .

وأمـــا نوح عليه السلام فبعد أن ركب فى السفينة هو ومن معه ، أرسل طائـــرا ليـــنظر إليه حال الأرض بعد الطوفان ، فعاد إليه الطائر بغصن من شجرة الزيتون ، ليخبره أن الأرض قد أنبتت ، وأن الله قد أعاد إليها سلامها.

وأما موسى فإن الله قد كلمه من طور سيناء ، وأعطاه التوراة يصلح بها العقيدة والشريعة .

---

[1] التحرير والتنوير – الطاهر بن عاشور م ١٥ ص ٤٢١ ..

[2] راجع الألوسي تفسير – حـ٣٠ – ص ١٧٤ وما بعدها .

وتــوالى الأنــبياء مــن بعده يحملون الناس على الجادة على أساس من شريعة موسى .

وأمــا محمــد صــلى الله عليه وسلم فإن الله قد أرسله بشريعة فى يمينه يصلح بها الناس بعد ما فسد من شأنهم ، ولم تعد التوارة بعد تحريفها صالحة لإصلاح حال الناس .

ولمــا كــانت هذه الحقب على هذا النحو ، ناسب أن يقسم الله بــ التين والزيــتون ، وطور سينين ، وهذا البلد الأمين – رمزا لهذا التقسيم التاريخى فى حقبه المختلفة[1].

هذا إجمال ما قاله المفسرون .

وأبعد ما فيه عندى أن نأخذ اللفظ على حقيقته فى التين والزيتون وجميل مــا صــنعه بعض المفسرين حين استشعروا المسألة بتمامها ، وأنه لابد حين تتعدد الأقسام (المقسم به) فإنه لابد أن يكون هناك علاقة تجمع بين آحادها حــتى ولــو كانت علاقة التضاد ، كما أنه لابد من أن يكون هناك ظلال من المعانى تظلل المقسم به والمقسم عليه فى جو من التناسق .

ولقــد سبق أن قلنا أن الشيخ سيد قطب قد صرح أن هذه الظلال لم تكن بادية له حين كتب ما كتب .

والــرجل معــذور ، فإنــه قد كتب هذا الجزء الأخير فى ظروف غير مواتية .

ولقــد اقترب الشيخ أبن كثير جدا من هذه الظلال الجامعة فيما أرى فى معــرض نقل الآراء المختلفة فى معنى هاتين الكلمتين ، وإن كان لم يشأ أن يرجح منها شيئا ، وسأنقل جزء من عبارته بين يديك .

قــال الشــيخ مــا قال يعرض للآراء المذكورة فى بطون الكتب إلى أن

---

(1) راجع الشيخ أحمد مصطفى المراغى – تفسير – جـ ٣٠ – ص ١٩٤ وما بعدها ، والشيخ عبدالكريم الخطيب تفسير جزء عم ص ١٦١٢ وما بعدها .

وصل إلى هذا النقل المتميز [... وقال بعض الأئمة هذه محال ثلاثة بعث الله فى كل واحد منها نبيا مرسلا من أولى العزم أصحاب الشرائع الكبار .

(فــالأول) محــلة الــتين والزيتون وهى بيت المقدس التى بعث الله فيها عيسى ابن مريم عليه السلام .

(والــثانى) طــور ســينين وهو طور سيناء الذى كلم الله عليه موسى بن عمران .

(والثالث) مكة وهو البلد الأمين الذى من دخله كان آمنا وهو الذى أرسل فيه محمدا صلى الله عليه وسلم .

قــالوا وفى آخــر التوارة ذكر هذه الأماكن الثلاث : جاء الله من طور سيناء – يعنى الذى كلم الله عليه موسى بن عمران .

– وأشــرق من ساعير – يعنى جبل بيت المقدس الذى بعث الله منه عيسى.

– واســتعلن مــن جبال فاران – يعنى جبال مكة التى أرسل الله منها محمــدا صلى الله عليه وسلم فذكرهم مخبرا عنهم على الترتيب الوجودي بحســب ترتيــبهم فى الــزمان ولهــذا أقســم بالأشرف ثم بالأشرف منه بالأشرف منهما][1].

هذا ما نقله ابن كثير وهو نقل يسترعى منا شيئا من الاهتمام .

وأنــا إلى الآن لم أوفق فى الحصول على المصدر الذى نقل ابن كثير منه ، لكنى شخصيا أتحمس إلى هذا الفهم وأميل إليه ميلا شديدا .

أولا : لأنه يحل المشكلة التى أثارها المفسرون ، والتى تبحث عن نوع مــن الــترابط بين الأقسام ، ونوع من الظلال بين المقسم به والمقسم عليه جميعا .

---

(1) ابن كثير ــ تفسير ــ حـ ٤ ــ ص ٢٤٩

وهذا الفهم على نحو ما رأيته يحل المشكلة بما يريح كل مفكر متأمل .

وثانيـــا : لأنـــه يمثل نوعا من الإشارة إلى النسق القرآني فى مثل هذه القضايا.

فـــأنت خـــبير بما ذكرت لك من قبل حيث قلنا : إن عيسى عليه السلام حيـــن بشـــر بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وركز على اسمه تبشيرا به فيما مجمله : إنى ذاهب وسأرسل لكم البارقليط ، وإن لم أذهب لن يأتى إليكم .

إن عيســى حيــن بشر بهذه البشارة جاء القرآن الكريم يؤكدها فى قوله تعـــالى : " **وإذ قـــال عيسى بن مريم يا بنى إسرائيل إنى رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدى من التوارة ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين** " [1] .

واستنادا إلى هذا النسق القرآنى نفسه ، وتلبية للرغبة الفكرية فى إيجاد الظـــلال الـــتى تجمع بين المقسم به والمقسم عليه مع وجود العلاقة الجامعة بين الأشياء التى أقسم الله بها .

انطلاقـــا مـــن هذا كله أقول : إن الله قد أقسم بـــ _ التين والزيتون – عـــلى سبيل حذف المضاف ، والقصد إلى منبتهما فى بلاد الشام إشارة إلى مـــبعث عيسى عليه السلام ، وأقسم بـــ – طور سينين – مشيرا إلى موسى ورســـالته عـــليه الســـلام ، وأقسم بـــ – البلد الأمين – إشارة إلى الرسالة الخاتمة وصاحبها سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .

وبيـــن هـــذا النص فى القرآن وبشارة موسى فى التوراة توافق ، يشبه الـــتوافق الذى بين بشارة عيسى بمحمد فى الإنجيل ، وإخبار النص القرآنى عنها فى الكتاب المجيد .

يقـــول موســـى عليه السلام [**جاء الرب من سيناء ، وأشرق لهم من سعير وتلألأ من جبل فاران**] .

---

[1] الصف : ٦

ويقــول القــرآن المجيد : " والتين والزيتون * وطور سينين * وهذا البلد الأمين * لقد خلق الإنسان فى أحسن تقويم "

فما أعظم مصدر الوحى فى الحالتين وما أحكمه .

وينــتهى بنا المطاف إلى تأكيد هذا القول وهو : أن الله عز وجل حين أراد أن يعــد الســاحة لعظيمها قبل مجيئه فى بعض جوانبها ، بشر به على لســان الأنبياء السابقين ، ومن بين هذه البشارات التبشير ببلده التى ولد فيها وخرج منها وعاد إليها على نحو ما رأيت .

صفات النبى وقومه وبلده

يبقى هنا أن نؤكد بين يديك أن النبى وهو عظيم الساحة القادم ، قد بشرت به الكتب المقدسة من حيث صفته وقومه وبلده .

فالنبي صلى الله عليه وسلم الوحيد من الأنبياء الذى جاء من نسل إسماعيل .

وإسماعيل كان هو – ولفترة من الزمن – الابن الوحيد لإبراهيم عليه السلام .

وقد ذكرت الكتب المقدسة أن الله عز وجل قد بشر إبراهيم بأن ابنه الوحيد (إسماعيل) هو الذى سيرث ملك أبيه .

ولا يعنى ميراث الملك أنه سيرث الخيمة التى كان يقيم فيها أبوه وذووه لأن وقائع الأحداث قد أكدت أن ميراث الخيمة والبقعة التى هى محل إقامة أبيه كانت من حظ يعقوب وبنيه فى كلام طويل تضمنته صفحات الكتاب المقدس .

أما البشرى التى كانت لإبراهيم وخصصت لابنه الوحيد وعقبه من بعده ، فما ذلك إلا أنه تدين له الأمم قاطبة ، وهذا لم يحدث إلا فى إسماعيل وولده من بعده فى بقعة من الأرض كانت البداية منها وهى قفار(فاران) أى (مكة المكرمة) .

ولعله لا يغيب عنا ولا عنك أن قصة إسماعيل وأمه على نحو ما هى فى الكتاب المقدس وغيره ، تفيد أن إبراهيم كان قد تزوج بهاجر المصرية فلما أنجبت إسماعيل أقامها وابنها فى قفار فاران (مكة المكرمة) .

فلما شب إسماعيل عن الطوق وبلغ مبلغ الرجال ، زوجته من فتاة مصرية أقامت معه فى بلاد فاران ، وكان قيدار (عدنان) من ولد إسماعيل عليه السلام ، ومنه كان العرب بجميع شعبهم .

ومن نسل قيدار كان النبى محمد صلى الله عليه وسلم الذى ولد فى مكة المكرمة ، وأوحى إليه بها تحقيقا لبشارة موسى عليه السلام .

فـــفى الكـــتاب المقدس أن موسى عليه السلام قال لقومه : [٠٠ **وجاء الرب من سيناء ، وأشرق لهم من ساعير ، وتلألأ قدما من جبل فاران**] .

وحيـــن نضم بشارة موسى إلى ما جاء فى الكتاب المقدس عن إسماعيل وأمـــه ، من أنهما تجولا فى متاهات " بئر السبع " ، وأنهما اللذان سكنا بعد ذلـــك فى قفـــار " فاران " على نحو ما جاء فى (سفر التكوين) [**واتخذت لـــه أمه زوجة من أرض مصر ، ومن ولده قيدار (عدنان) انحدر الأحفاد العـــرب الذين سكنوا من ذلك الحين فى قفار " فاران " واتخذوهـــا موطنا لهم**]

إنـــنا إذا جمعنا بين هذه المعلومات المنتشرة فى الكتاب المقدس ، تبين لنا بجـــلاء واضـــح أن إبـــراهيم عليه السلام قد أتته البشارة من ربه بأن العالم ســـيدين لأحد أحفاده ، وهذا الحفيد سيكون من ولده الوحيد إسماعيل الذى قد أنجب قيدار ، والذى تفرعت منه العرب جميعها ، وأن هذا الحفيد الذى يأتى بعد زمن بعيد ، سيولد وينشأ ويأتيه الوحى فى " فاران " .

ولـــم تقـــف نصوص الكتاب المقدس عند هذا الحد ولكنها تفيد أن هذا الحفيـــد سيخرج من مكة ، ليعود بعد سنة تشبه سنة الأجير وهى اثنا عشر شـــهرا ليهزم جميع أبناء قيدار ، وتكون له السيطرة الكاملة عليهم وتستبشر مكة به .

فـــفى نصـــوص الكتاب المقدس قول الرب متحدثا عن مكة ومن حولها وســـاكنيها [**قومى استنيري لأنه قد جاء نورك ، ومجد الرب أشرق عليك ٠٠٠ تغطيـــك كـــثرة الجمال ، بكران ومديان وعيفة ، كلها تأتى من شيبا ٠٠٠ كـــل غنم قيدار تجتمع إليك ، وكباش بنايوت تخدمك وتصعد مقبولة على مذبحي ، وأزين بيت جمالي ٠٠٠ إلخ**][1].

وهـــذه نبوءة أخرى فى الكتاب المقدس [وحى من جهة بلاد العرب فى الوعـــر فى بلاد العرب ، تبيتين يا قوافل الدادنيين ، ويا سكان أرض تيماء

---

[1] إشعياء /٦٠

وافـــوا الهارب بخبزه ، فإنهم من أمام السيوف قد هربوا ، ومن أمام القوس المشـــدودة ومن أمام شدة الحرب ، فإنه هكذا قال لى السيد ، وفى مدة سنة كســـنة الأجيـــر ، يفنى كل مجد قيدار ، وبقية عدد الأقواس من أبطال بنى قيدار تضمحل][1] .

وبعد هذا الانتصار العجيب سيجتمع الناس حول هذا النبى ، حتى يبلغ عددهـــم أكثر من عشرة آلاف قديس أو صحابى ، فيعود إلى مكة أو فاران مرة أخرى فاتحا منتصرا ومعه عشرة آلاف من أتباعه وبيده اليمنى شريعته التى هى الشريعة التالية لشريعة موسى عليه السلام .

والكـــتاب المقدس يؤكـــد هـــذا المعـــنى فيما بشـــر بـــه موسى عليه السلام .

[.. وجـــاء الرب من سيناء ، وأشرق لهم من ساعير ، وتلألأ قدما من جـــبل فـــاران ، وجاء معه عشرة آلاف قديس ، ومن يده اليمنى برزت نار شريعة لهم][2]

وهـــذا القـــادم لا يجوز عقلا أن يكون من نسل يعقوب لما قدمناه من شـــواهد ، ولأن نـــبوءة الكتاب المقدس قد صرح الرب فيها أن النبي القادم سيكون من أبناء إخواتهم .

والمـــنحدرون من نسل إبراهيم ليسوا إلا أبناء يعقوب وأبناء إخوتهم من نســـل إسماعيل ، فإذا انتفي أن يكون النبي القادم بعد موسى ، والذي يحمل الشريعة الجديدة من نسل يعقوب ، فلا مفر من أن يكون من نسل إسماعيل.

وليـــس هناك من نسل إسماعيل من تنطبق عليه هذه الأوصاف إلا هذا النبي العربي الذي أعد الله الساحة له .

---

[1] إشعياء الإصحاح (٢١) الآيات (١٣ – ١٧) .

[2] تثنية /٣٢ والنقل عن النسخة الإنجليزية للكتاب المقدس وبينها وبين النسخة العربية شئ من الاختلاف ، وقد قمنا باقتباس النص من كتاب محمد فى الكتاب المقدس (مرجع سبق ذكره)

ونحن لا نستطيع أن نستمر نشارك في الجدل القائل : إن البشري كانت لعيسي بن مريم ، لأن عيسي بن مريم نفسه نفي أن تكون البشري له ، وبين أنــه لــم يأت بشريعة جديدة ، وإنما كل ما جاء به هو انحصار وظيفته في إكمـــال ناموس موسى ، فهو القائل : ما جئت لأنقض الناموس ، وإنما جئت لأكمله .

وهو الذي جاء بالدرجة الأولي لينقذ خراف بني إسرائيل الضالة .

هــذا بالإضافة إلي أنه قد سجل بشارته بالبار قليط ، وأن البار قليط لن يظهــر ، إلا إذا رحــل هــو عــن عالمنا لكي يفسح له الطريق ، كي يأتي بشريعة جديدة ، ويجمع الناس حولها .

هــذه مجموعــة مــن الصــفات تستطيع أن تجدها وتجد غيرها ضمن صفحات الكتاب المقدس .

ومن أجمع الأماكن لهذه الصفات ما تراه عند إشعيا .

ولقــد قــام المــاوردى بدراسة النبوءات الواردة عند إشعيا ، وأبرزها ضمن دراسة له جامعة فى هذا المجال .

وســأقوم بــنقل كلامــه بين يديك قال : [كان بين موسى وعيسى من الأنــبياء الذين أوتوا الكتاب باتفاق أهل الكتابين عليهم ستة عشر نبيا ظهرت كتــبهم في بنى إسرائيل فبشر كثير منهم بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم * فمــنهم إشــعيا بن أموص قال في الفصل الثاني والعشرين (قومي فأزهري مصابحك) يعني مكــــة (فقد دنا وقتك وكرامة الله طالعة عليك فقد تجلل الأرض الظــلام وغــطى عــلى الأمم الضباب والرب يشرق عليك إشراقا ويظهــر كرامــته عليك فتسير الأمم إلى نورك والملوك إلى ضوء طلوعك ارفعــي بصــرك إلى مــا حولك وتأملي فإنهم يستجمعون عندك ويحجونك ويأتيك ولدك من بعيد وتسرين وتبتهجين من أجل أنه يميل إليك ذخائر البحر ويحــج إليك عساكر الأمم حتى تعمرك الإبل المؤبلة ، وتضيق أرضك عن القطــرات التي تجمع إليك ويساق إليك كباش مدين ويأتيك أهل سبأ يحدثون

بنعم الله ويمجدونه وتسير إليك أغنام قاذار) يعنى غنم العرب لأنهم من ولد قـــاذار بن إسماعيل (ويرتفع إلى مديحي ما يرضينني وأحدث حينئذ لبيت محمـــدتى حمـــدا) وهذه الصفات كلها موجودة بمكة فكان ما دعا إليها هو الحق ومن قام بها هو المحق * .

وفـــي فصـــل آخر من كتابه (قال لي الرب فامض فأقم علي المنظرة تخبرك بما تري فرأي راكبين أحدهما راكب حمار) يعني عيسي (والآخر راكب جملا) يعني محمدا (فبينما هو كذلك إذ أقبل أحد الراكبين وهو يقول : هوت بابل وتكسرت آلهتها المنجورة علي الأرض فهذا الذي سمعت الرب إله إسرائيل قد أنبأتكم) .

وفـــي الفصل السادس عشر منه (لتفرح أرض البادية العطشى بمبتهج الـــبراري والفـــلوات ، ولتسر وتزهو مثل الوعل فإنها بأحمد محاسن لبنان ويكمل حسن الدساكر والرياض وسترون جلال الله تعالي بها) .

قال إشعيا وسلطانه علي كتفه يريد علامة نبوته علي كتفه * .

وهذه صفة محمد صلي الله عليه وسلم وبادية الحجاز .

وفي الفصل التاسع عشر منه (هتف هاتف من البدو فقال خلو الطريق لـــلرب وســـهلوا ســـبيل إلهنا في القفر فتستملئ الأودية مياها وتفيض فيضا وتنخفض الجبال والروابي انخفاضا وتصير الأكام دكاكا ، والأرض الوعرة مذللة ملسا ، وتظهر كرامات الرب ويراها كل أحد) .

وفـــي الفصـــل العشرين منه وهو مذكور في ثلاث وخمسين ومائة من مزامير داود (لترتاح البوادي وقراها ، ولتصير أرض قاذار مروجا ويسبح ســـكان الكهوف وليتهتفوا من قلال الجبال بحمد الرب وليرفعوا تسابيحه فإن الـــرب يأتي كالجبار المتلظي المتكبر وهو يزجر ويقتل أعداءه وأرض قاذار هـــي أرض العـــرب لأنهـــم ولد قاذار) . والمروج ما صار حول مكة من النخل والشجر والعيون* .

وفـــي الفصـــل الحـــادي والعشرين منه أيضا (إن الضعفاء والمساكين

يستسقون ماء ولا ماء لهم فقد جفت ألسنتهم من الظمأ وأنا الرب أجيب يومئذ دعوتهم ولن أهملهم بل أفجر لهم في الجبال الأنهار وأجري بين القفار العيون وأحدث في البدو أجساما وأجري في الأرض العطشى ماء معينا وأنبت في البلاقع القفار الصنوبر والآس والزيتون وأغرس في القاع الصفصف السبر ليروها جميعا ثم يتدبروا ويعلموا أن يد الله صنعت ذلك وقدوس إسرائيل إبتدعه) .

وهذه صفات بلاد العرب فيما أحدث الله تعالى لهم فيها بإسلامهم][1].

ترى لمن تكون هذه الصفات إن لم تكن للنبي القادم وأصحابه ، وإن لم تكن لمكة ومن حولها ؟

فأي نبي غير النبي العربي هو هذا الذي خرج من بلده مهاجرا علي يد أبناء قيدار (عدنان) ، وبعد عام واحد من خروجه دقت طبول الحرب ووقعت واقعة الفرقان بين الحق والباطل علي أرض بدر بعد أن مضي عام واحد علي هجرته ، عام واحد كعام الأجير ؟!

ثم من هذا النبي الذي دخل مكة وأشرق علي فاران بنور شريعته ومعه عشرة آلاف رجل ، كلهم قد آمنوا به وصدقوه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه ؟ .

أوصاف محددة ، ووقائع قد شهد عليها التاريخ شهادة لا تخطيء كل منصف ، ولا تعدو رجلا يكون هدفه أن يحق الحق قولا ، وأن يتبعه عملا وسلوكا .

ودعني أزيدك بيانا من الكتاب المقدس فيما نقله بعض الأقدمين عنه .

يقول الماوردي متابعا حديثه ونقله من الكتاب المقدس بشاراته بعظيم الساحة القادم : [(...من بشائر نوال بن نوتال من أنبياء بني إسرائيل)] .

(مثل الصبح المسلط علي الجبال شعب عظيم عزيز لم يكن مثله قط ولا يكون بعده مثله إلي أبد الأبد ، أمامه نار تتأجج وخلفه لهيب وتلتهب

---

[1] أعلام النبوة – الماوردي ص ١٢٩ – ١٣١ (مرجع سبق ذكره)

الأرض بين يديه مثل فردوس عدن فإذا جاز فيها وعبرها تركها برية خاوية رؤيــته كرؤية الجبل رجالته فر سراع مثل الفرسان أصواتهم كصوت لهب النار الذي يحرق الهشيم رجفت الأرض أمامهم وتزعزعت السماء وأظلمت الشــمس وغاب نور النجوم والرب أسمع صوتا بين يدي أجناده لأن عسكره كثير جدا وعمل قوله عزيز لأن نور الرب عظيم مرهوب جدا) .

وهذا نعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ...

(ومن بشائر عوبديا من أنبياء بنى إسرائيل) .

وفى كــتابه (قد سمعنا خبرا من قبل الرب وأرسل رسولا إلى الشعوب ثم يتقدم إليه بالحرب أيها الساكن فى بحر الكهف ومحله فى الموضع الأعلى لأن يوم الرب قريب من جميع الشعوب) .

فهذا مرموز فى نبوته ...

و (من بشائر ميخاء من أنبياء بنى إسرائيل فى كتابه)

(فأمـــا الآن فسيتسلم إلى الوقت الذى تلد فيه الوالدة ويقوم فيرعاهم) يعنى الرب (وبكرامة اسم الله ربه ويقبلون بهم إلى من سيعظم سلطانه إلى أقطار الأرض ويكون على عهده الإسلام)] [1]

ومـــن الأشـــياء التى تلفت النظر بشدة ما جاء فى مزامير داود ضمن الكتاب المقدس ، خاصة المزمور الثامن والستون من هذه المجموعة .

و قد حظى هذا المزمور بترجمات مختلفة .

فلغته الأصلية العبرية .

وقد ترجم إلى عدة ترجمات مختلفة منها :

ترجمة دار الكتاب المقدس – القاهرة (١٩٧٠)

---

[1] الســابق ص ١٣١ وما بعدها

وقد نقل الماوردى بالإضافة إلى ما ذكرناه عن الكتاب المقدس بشارات بالنبى صلى الله عليه وسلم عن الأنبياء : حبقوق وحزقيال ، وبرصفينا ، وزكريا ، ودانيال وغير ذلك ، و راجع مع هذا (محمد فى الكتاب المقدس – لـــ ديفيد بنجامين كلدانى) وترجع أهميته لنقله واقتباسه عن النسخة الإنجليزية للكتاب المقدس .

وترجمة دار المشرق – بيروت (١٩٨٣) و (١٩٨٤)

والترجمة الدولية الجديدة باللغة الإنجليزية – طبعة الجمعية الدولية للكتاب المقدس نيويورك (١٩٨٢)

والترجمة الإيطالية للكتاب المقدس – (إيطاليا (١٩٣١)

والترجمة الفرنسية .

هذا بالإضافة إلى الأصل العبرى [١] .

ومن يتأمل نص هذا المزمور بأمانة القارئ و يتغاضى عما حصل فيه من إدخال معان أفسدت روح النص ، سيجد النص نفسه معلنا عن الحقائق التالية .

أولها : أن النبى القادم الذى يعد الله الساحة لاستقباله سيكون له صلة بوادى عرفات أو جبل عرفات ، وهو هذا المكان الكائن الآن شرقى مكة ويبعد عنها نحو اثنين وعشرين كليومتر تقريبا .

وعرفات الوارد فى المزمور لم يمر فى شريعة النبى المبشر به بغير صدى.

ذلك أن عرفات فى الشريعة الإسلامية يعد مشعرا من مشاعر الحج وركنا ركينا فيه لا يقوم الحج بدونه ، إذ (الحج عرفة) وجميع الحجيج يعرفون أن عرفات مكان لصعود الدعاء فى يوم الوقوف به إلى السماء وإذا تجاوزنا قليلا عن تفسيرات المفسرين للقرآن الكريم لنبحث عن معنى هذه الكلمة على نحو ورودها فى المزمور ، سنجد أن جذرها وأصلها الأصيل موجود فى اللغة المصرية القديمة ، وهى اللغة التى أنبثقت عنها اللغة العبرية لغة الكتاب المقدس.

---

[١] راجع كتاب البشارة بمحمد صلى الله عليه وسلم فى التوارة النص الذى اختفى ألفى عام – عصام راشد العدلي ط . سجل العرب – القاهرة سنة ١٩٨٦ م الطبعة الثانية ص ٢٣ وما بعدها . وفيه إثبات لترجمات المزمور ٦٨ بالإضافة إلى النص العبري .

وكلمة (عرفات) فى اللغة المصرية القديمة ذات مقطعين :

الأول منهمـــا : (عرا) بمعنى الصعود أو مكان الصعود .

والثانى منهما : (بات) بمعنى السماء .

والكلمة بعد التركيب هى (عربات)

بمعنى مكان الصعود إلى السماء أو العروج إليها [1] .

ولقــد كــبر عــلى اليهود أن يفهموا هذا المعنى من المزمور المشار إليه فاضـــطروا إلى أن يدخلوا على هذه الكلمة بذواتهم ليفهموا الناس منها : أن المــراد من كلمة (عرفات) هو : أنها اسم للسماء السابعة ، وساروا خلف هــذه الكلمة فى أدرب من التيه انتهت بهم إلى نوع من التجسيم الغليظ للذات الإلهية لا تتحمله مشاعر المسلمين .

والشئ العجيب أن فيلسوفهم _ موسى بن ميمون) لم يشأ أن يعلق على مــا ذكروه ، بل إنه قد عرضه كما هو عندهم مع شئ من الإضافة الفلسفية ليس لذكرها فى هذا المجال كبير خطر[2].

أمـــا الفهـــم المسيحي لهذه الكلمة (عرفات) فهو الآخر لم يصب كبد الحقيقة .

فـــإن كـــان المسيحيون لم يشاءوا أن يسيروا خلف اليهود في فهمـــهم لكـــلمـــة (عرفات) إلا أنهم في الوقت نفسه لم يريدوا أن يفهموها في سياقها وسباقها من خلال ورودها في النص المشار إليه .

وأيـــا ما كان الأمر فإن كلمة (عرفات) ليست هي الدليل الوحيد علي بشـــارة المزمور بالنبي العربي ، وإنما قد ورد في المزمور أمور أخري تعد صفات للنبي وشريعته لا تخطئه .

---

(1) السابق ص ٦٧

(2) دلالة الحائرين – تأليف الحكيم الفيلسوف موسى بن ميمون القرطبى الاندلسى ٥٣٠ – ٦٠٢ هـ الموافق ١١٣٥ – ١٢٠٥ م تحقيق أ . د / حسين أتاى

ومـــن أراد أن يصرف النصوص عن ظاهرها فيؤولها تأويلا لا يعرب عـــن المراد منها – كما فعل السابقون – فإنه سيصعب عليه ذلك ويعز عليه نوال مقصده وتحقيق مآله .

وتـــبقي كـــلمة (عـــرفات) الواردة في المزمور دالة علي المراد منها دلاله واضحة كحقيقة ساطعة لا تقبل الجدل .

وثـــاني الحقائق التي سيطالعنا بها المزمور الثامن والستون من مزامير داود : هـــي أنـــه قد صرح في المزمور بأن النبي صلي الله عليه وسلم أبو اليتامى .

وليـــس لذلك من معني إلا أن شريعته التي جاء بها قد خصصت جانبا مهما لأحكام اليتامى في نصوص اطلع الفقهاء عليها ، واستخرجوا منها فقها مـــتكاملا يضـــبط ســـلوك المجـــتمع تجاه اليتامى ، وما يلزم لهم من رعاية المشاعر والأموال، والسلوك الاجتماعي .

ودونك هذه النصوص فتأملها :

" لا تعبدون إلا الله وبالوالدين إحسانا وذى القربى واليتامى "[1].

" وآتي المال علي حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين "(١) .

" قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين واليتامى والمساكين " (١).

" وآتوا اليتامى أموالهم ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب ولا تأكلوا أموالهم إلـــى أموالكـــم إنـــه كـــان حوبا كبيرا ، وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طـــاب لكـــم .... "[2].

" وابتـــلوا اليـــتامى حتى إذا بلغوا النكاح فإن آنستم منهم رشدا فادفعوا إليهـــم أموالهم ولا تأكلوها إسرافا وبدارا أن يكبروا ومن كان غنيا فليستعفف ومـــن كـــان فقيرا فليأكل بالمعروف فإذا دفعتم إليهم أموالهم فأشهدوا عليهم وكفي بالله حسيبا " (٢) .

---

[1] البقرة

[2] النساء

" وإذا حضر القسمة أولوا القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم منه وقولوا لهم قولا معروفا وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولا سديدا إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون في بطونهم نارا وسيصلون سعيرا "

" واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا وبذي القربى واليتامى والمساكين ...... " .

" .. والمستضعفين من الولدان وأن تقوموا لليتامى بالقسط "[1].

" ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده. ".[2]

" واعلموا أن ما غنمتم من شيء فإن لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى " [3] .

" فلله وللرسول ولذي القربى واليتامى " [4].

" ويطعمون الطعام علي حبه مسكينا ويتيما وأسيرا "[5].

" أو إطعام في ذي مسغبة يتيما ذا مقربة " [6] .

" كلا بل لا تكرمون اليتيم ولا تحاضون علي طعام المسكين "[7] .

" فأما اليتيم فلا تقهر "[8] .

" أرأيت الذي يكذب بالدين فذلك الذي يدع اليتيم "[9] .

---

[1] النساء

[2] الأنعام

[3] الأنفال

[4] الحشر

[5] الإنسان

[6] البلد

[7] الفجر

[8] الضحى

[9] الماعون

هــذه نمــاذج مــن القرآن الكريم نقلناها هنا ليتضح منها عناية الشريعة الإســلامية باليتامى ، وهي عناية لو تقصينا عناصرها في النصوص الدينية لاكتمل أمامنا نموذج بديع لا تشتمل الديانات السابقة ولا علي عشر معشاره .

وهــذا أمــر يجعل الوصف الوارد في المزمور ينطبق علي النبي محمد صلي الله عليه وسلم دون سواه .

وهــذه هــي الحقيقة الثانية التي تتضح أمام القارئ المنصف ، لا تحتاج لإثباتها شاهدا أو دليلا .

وثالثة الحقائق التي يشتمل عليها هذا المزمور هي : أن النبي صلي الله عليه وسلم مخلص الأرامل من النساء مما أحاط بهن من ظلم صارخ ، يتمثل فيمــا قــرأناه عــن المجتمعات التي يحكمها أنظمة جاهلية ، أو حتى ديانات سابقة.

فهو كما قال عنه المزمور قاضى الأرامل .

وأزيدك بيانا أن الأرامل في الشرائع الماضية كان يحكمهن من القوانين ما يحتاج إلي إعادة نظر .

ففــي المجتمعات الوثنية كانت تورث فيها المرأة مع بقية أملاك المتوفى من عقار وعبيد وأموال إلي ورثته .

ومجــتمع بــني إسرائيل يجعلها إرثا لأخي المتوفى دون أولاده فيرث الأخ التركة والزوجة معا ، وينسب الأولاد الجدد إلي الأخ المتوفى ، وهو ما يسمي بزواج (يبوم) من كلمة (يبم) العبرية ومعناها أخو الزوج ، فإذا لم يكــن للمــتوفى إخوة بالغون انتقلت الأرملة إلي بيت أبيها ، واحتبست حتى يكبر الأخوة الصغار ، وهي تعتبر في تلك الأثناء موقوفة علي ذمتهم ويمتنع عــليها الاتصال بالرجال ، فإن فعلت عدت زانية وعوقبت بالحرق ، وإن لم يكن للمتوفى أخوة علي الإطلاق ذهبت الأرملة إلي أقرب قريب .

أمــا فــي حالة أن أخا المتوفى لم يرض بزواج أرملة أخيه ، فإن سفر تثــنية الاشتراع الإصحاح (٢٥) الآيات (٧ : ١٠) يقول : (وإن لم يرض

الـرجل أن يـأخذ امـرأة أخيه ، تصعد امرأة أخيه إلي الباب ، إلي الشيوخ وتقـول قد أبي أخو زوجي أن يقيم لأخيه اسما في إسرائيل ، لم يشأ أن يقوم لـي بواجب أخي الزوج ، فيدعوه شيوخ مدينته ويتكلمون معه فإن أحد وقال لا أرضـى أن أتخذها ، تتقدم امرأة أخيه إليه أمام أعين الشيوخ وتخلع نعليه من رجليه وتبصق في وجهه وتصرخ وتقول هكذا يفعل بالرجل الذي لا يبني بيت أخيه ، فيدعي اسمه في إسرائيل مخلوع النعل) .

ويضيف التلمود أن علي جميع الحاضرين ، أن يرددوا بعد هذه المراسم (مخلوع النعل .. مخلوع النعل .. مخلوع النعل) .

ولازالت مصداقية هذا القانون الشاذ والغريب الذي تورث فيه المرأة بعد موت زوجها حتى يومنا هذا فيما بين المؤمنين بشريعة التلمود .

أمـا الأرمـلة المسـيحية فيقول لها بولس الرسول : (إن المرأة مقيدة بالناموس ما دام رجلها حيا ، فإن رقد رجلها فهي معتقة ، فلتتزوج من تشاء لكـن فـي الرب في فقط ، غير أنها تكون أكثر غبطة إن بقيت على ما هى عليه بحسب مشورتي ، وأظن أني أنا أيضا في روح الله) .

أي أنـه يحسن لها عدم التزوج والترهب ـ كما نجد أن فقهاء المسيحية كما في قوانين (ابن لقلق) ـ يقولون : (إن الزيجات المكروهة والمستقبحة الـزيجة بالـتي لـم تقضي مدة حزنها علي بعلها وهي عشرة شهور ، وهذه يسقط ميراثها ووصيته لها) .

ولـن أحـاول أن أسـتطرد معك لنتتبع المرأة في جميع الشرائع ، ففيما ذكرناه بين يديك مثال يغني إيراده عن الاستقصاء في مجال معاملة النساء .

ولمـا أشـرق نـور الإسلام كان ما كان من التشريع الواضح للأرامل فالأرمـلة إنسـانة لهـا جميع حقوق الإنسان ، وكل ما هنالك أننا نحاول أن نجعـلها فـي مرتـبة التي تستبرىء رحمها ، وهي في مرتبة الإنسانة التي تحترم شعور أهل زوجها ، فلا تعرض نفسها لزواج ، ولا ترتدي من الثياب والزيـنة مـا يطمع فيها الرجال ويطلق عليها الألسنة ، ولكنها لا تبقى هكذا

دهـــرا بغير نهاية إلا النهاية بالموت أو المهانة ، وإنما تتربص بنفسها أربعة أشـــهر وعشـــرة أيـــام ، إلا أن تجد نفسها حاملا فتنتظر بعد ذلك إلي وضع الحمل .

ولـــك أن تـــتأمل تعبيرات القرآن حين يأمر النساء الأرامل أن يتربصن بأنفسهن، فأنت إذا تأملت ذلك وجدت أن الله قد جعل للمرأة عليها سلطانا من ضـــميرها ، ومـــن مراقبتها لربها ليعطيها قدرا من الثقة يجعلها لا تهبط عن مرتبـــتها كإنســـانة لهـــا ما لجميع الأناسي من حقوق ، وعليها ما عليهم من واجبات .

ولـــولا مخافـــة الخـــروج عما نحن بصدده لزدتك في هذا المجال مقالا يرضيك وينير أمامك الطريق .

ومـــع ذلـــك فـــإني سأضـــع أمامك بعض النماذج من القرآن أقتصد في وضعها بين يديك اقتصادا غير مخل .

ودونك هذه النصوص :

" والذيـــن يتوفون منكم ويذرون أزواجا يتربصن بأنفسهم أربعة أشهر وعشـــرا فإذا بلغن أجلهن فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن بالمعروف والله بما تعملون خبير " [1].

" والذيـــن يـــتوفون مـــنكم ويذرون أزواجا وصية لأزواجهم متاعا إلي الحـــول غيـــر إخراج ، فإن خرجن فلا جناح عليكم في ما فعلن في أنفسهن من معروف والله عزيز حكيم "[1].

" يـــا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها ولا تعضلوهن لتذهـــبوا بـــبعض مـــا آتيـــتموهن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة وعاشروهن بالمعـــروف فـــإن كرهـــتموهن فعسي أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن قنطارا فلا تأخذوا

---

[1] البقرة

منه شيئا أتأخذونه بهتانا وإثما مبينا وكيف تأخذونه وقد أفضي بعضكم إلي بعــض وأخذن منكم ميثاقا غليظا ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلاما قد سلف إنه كان فاحشة ومقتا وساء سبيلا ". (١)

هــاهي ذي الأرمــلة الآن وقــد صبحها الله بالإسلام ، فانتهت عصور الظــلام الرهيبة التي مرت عليها إلي غير رجعة ، الأرملة لا تورث ، وعدة الأرمــلة أربعــة أشهر وعشر ليالي ، وهذه العدة لاستبراء الرحم فقط وليس لإظهار الحزن ، فلا يعلم ما تخفي الصدور إلا الله سبحانه وتعالي ، ولا يحق لأحــد أن يخــرج الأرمــلة من بيتها قبل انقضاء عام كامل مضمونة لها فيه معيشتها وإقامتها من إرث زوجها المتوفى بالإضافة إلي ميراثها الشرعي منه والأرمــلة حــرة من قبل ومن بعد بمجرد انقضاء عدتها أن تفعل بنفسها ما تشاء فى حدود شرع الله .

وأظــنك الآن مــترقب أن أنقل لك المزمور المشار إليه وسأفعل لتكون معى على بينه من أمرك .

[لإمــام المغنين ، لداود ، مزمور ، تسبيحه (١) يقوم (ألوهيم) ، يبدد أعــداءه ويهــرب شــانئوه من أمام وجهه . (٢) كالدخان يتلاشون ويذبون كالشمع من غضبه ويفنى الآثمون .

(٣) لكن الصديقين يفرحون ويتهللون بالسرور أمام (ألوهيم) .

(٤) رنمــوا (لألوهيم) وغنوا لاسمه ، اخضعوا للراكب فى (عرفات باســم الله ، وافــرحوا أمامه . (٥) أبو اليتامى وقاضى الأرامل ، (ألوهيم) بمســكن قدسه (٦) (ألوهيم) مسكن المتوحشين ببيته ، ومخرج الأسرى إلى الــرفاة ، أمــا المــتمردون فليســكنوا اليباب (٧) (ألوهيم) بخروجك أمام العامــلين بصــعودك فى القفــر إلى الأبد (٨) الأرض ارتعدت والسماوات أمطــرت وجهــك ، هــا هى ذى (سيناء) أمام وجهك يا إله إسرائيل (٩) تمطــر وتتضــج لك . وميراثك ها أنت قد استعدته (١٠) رعيتك أسكنت فيه

---

(١) النساء

بفضل جودك للبائسين يا (ألوهيم) .

(١١) (أدوناى) يلقى كلمته المبشرات بها جند كثيف (١٢) ملوك جيوش يفرون ، وملازمة لبيت تقتسم الغنائم .

(١٣).فإذا أويتم إلى مضاجعكم فأجنحة حمامة مغشاة بالفضة ، وريشها بصفرة الذهب .

(١٤) ويشاء القدير أن يشتت ملوكا ، يتجلدون فى الظلام .

(١٥) جبل (ألوهيم) ، جبل باشان ، جبل الأسنمة ، جبل باشان .

(١٦) لم تراصدن أيتها الجبال المسنمة هذا الجبل الذى ابتغاه (ألوهيم) لسكناه ، بلى‌ها هو (يهود) يسكنه إلى الأبد)

هذا هو المزمور بين يديك وكان على أصحاب الديانات السابقة أن يتبعوا هذا النبى المبشر به ، لولا أنهم عرضوا أنفسهم للوم كما جاء فى نبوءة اشعيا تقول :

[(استمعى أيها السموات ، وأنصتى أيها الأرض فإن الرب قد تكلم ، إنى ربيت بنين ورفعتهم ، لكنهم تمردوا على ، عرف الثور قانيه والحمار معلف صاحبه ،لكن إسرائيل لم تعرف وشعبى لم يفهم ، ويل للأمة الخاطئة الشعب الموقر بالإثم ، ذرية البنين الفجار ، إنهم تركوا الرب واستهانوا بقدوس إسرائيل وارتدوا على الأعقاب) .

(لولا أن رب الجنود ترك لنا بقية يسيرة لصرنا مثل سدوم وإشبهنا عمورة)

لقد توليتم عن الميثاق والعهد المقطوع فى طور سيناء " **واذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون ثم توليتم من بعد ذلك فلولا فضل الله عليكم ورحمته لكنتم من الخاسرين** " [1].

---

[1] البقره

والآن فـإن من يريد أن يجدد العهد مع الله فيكن مع من أسكنهم الله فى مسكن قدسه فى (عرفات) ، وها هى ذى الدعوة المفتوحة والدائمة ما دامت الأرض لمن شاء منهم أن يستقيم[1].

تلخيص وإجمال :

بعـد هـذه الوقفـة التى وقفناها معا أحب أن أقول لك إن هذا الطريق الذى سرت فيه معك داخل الكتاب المقدس بعهديه كان طريقا شائكا .

ولعـلك لاحظـت أن الكـتاب المقـدس إنما يبين عن المعانى بالرموز والتشـبيهات والتمثيل ، وهو منهج قد لا يلتفت القارئ فيه إلى ما يرمى إليه من معانى وأهداف .

وهـو منهج مع ذلك ربما يسمح بالجدل والاختلاف حول فهم المراد من النص.

وهـذا الطـريق الذي سلكناه معا داخل الكتاب المقدس شائك كذلك لكثرة الـترجمات وغيـاب النص الأصلي في لغته التي نزل بها ، وبين الترجمات المختلفة للكتاب المقدس اختلافات لا يمكن معها الجمع بينها .

ومـع هذه الصعوبات كلها فقد وجدت الرحلة شيقة إلى حد خفت معه أن أحملك معى على أن نطيل المقام داخل الكتاب المقدس بما ينسينا الهدف الذى جئـنا من أجله إلى الكتاب المقدس ، فعجلت عن أمرى وغرضى ومتعتى فى البحث والنظر إلى غايتى الأولى وهى إعداد الساحة للنبى .

وحين عدت إلى هذا الهدف عدت ومعى حصاد هذه الرحلة .

والحصاد يدور حول ما صدرنا به هذا الحديث .

فـلقد أخبر الكتاب المقدس عن اسم النبى على نحو ما أخبر القرآن بذلك عـن عيسـى عليه السلام ، وما أرسى قواعده من الميثاق الذى أخذه الأنبياء

---

(١) راجع البشارة بمحمد صلى الله عليه وسلم فى التوراة (مرجع سبق ذكره)

على أنفسهم وشهد عليه ربهم .

ولقــد أخــبر الكتاب المقدس عن صفات النبى صلى الله عليه وسلم بما لايدع مجالا للشك .

كمـــا أخبر الكتاب المقدس عن أن النبى هو : **تحقيق البشارة لإبراهيم حيـن وعده ربه أن الأمم ستدين لأحد أبنائه من نسل ابنه الوحيد إسماعيل عليه السلام .**

والكــتاب المقــدس قد أخبر عن شريعة النبى ، وأنها ستعم وتحكم الأمم حارة كالنار ، مضيئة كالنور ، صارمة كالسيف .

وقــد بين الكتاب المقدس أن عظيم الساحة ستدين له أبناء قيدار بعد أن يغلبهم فى موقعة حربية تقع بعد خروجه من بلده بعام واحد كعام الأجير ، ثم يعود إلى مكة فاتحا ومعه عشرة آلاف قديس .

كمـــا أخبر الكتاب المقدس أن اليهود سيعارضون هذا النبى وسيكون له مـــنهم موقــف ارتباطه فى الحقيقة بطبائع اليهود أنفسهم وما جبلوا عليه من الخصال .

ونصـــوص الكـــتاب المقدس تبين أن هذا النبى محمى من القتل والإيذاء على نحو ما قال له ربه فى القرآن " **والله يعصمك من الناس** "

وكلام كثير أطلعناك على بعضه وتركنا البعض الآخر مخافة الإطالة .

ألم أقل لك إن الرحلة شائكة وشائقة معا ؟ !

فإن استهواك هذا الحديث فأنت أحد رجلين .

إما قانع مقتصد فتكتفي بما ذكرنا لك .

وإما طلعة نهم فدونك الكتاب المقدس فتصفحه إن شئت .

أما أنا فذاهب بك الآن إلي مقال آخر .

حديث الناس عن صاحب الساحة القادم

فـــي المقال السابق علي هذا المقال وقفنا وقفة طالت أو قصرت نستخرج من الكتاب المقدس نصوصه الدالة علي عظيم الساحة وزمن خروجه وصفة شريعته وبلده ، والذين اتبعوه .

ومـــع فائدة هذه النصوص في مجالها ، إلا أنها تبقي نظرية مثيرة للجدل لو لم يكن لها تأثير علي أصحاب هذه الديانات ومعتقداتهم .

ومهمـــا قيـــل عن محاولة إخفاء هذه النصوص أو تأويلها ، فإن العقل قـــاض لا محالة بأن هذه النصوص لابد أن تترك أثرا علي الناس ، ولابد أن يـــتحدث معتنقو هذه الديانات السابقة بمقتضاها عن هذا العظيم القادم ، سواء كـــانوا راضين بقدومه أم ساخطين ، وسواء كانوا متحمسين لمطلع النور أم كارهين ليوم خروج هذا العظيم .

وحول حديث الناس عن النبي القادم ، خصصنا هذا المقال لنسد به جانبا من جنبات إعداد هذه الساحة ، بحيث تبقي الساحة ناقصة من هذا الجانب إذا غاب هذا المقال الذي يتضمن حديث الناس حول عظيم الساحة والفرض الذي جاء من أجله .

وسوف نحاول أن نعرض حديث الناس هنا من خلال نماذج قائلوها من المشتغلين بالكتاب المقدس في أحد عهديه القديم والجديد .

ففي مكة المكرمة كان هناك رجل يسمي كعب بن لؤى بن غالب وكان يجمـــع الـــناس في يوم معين من أيام الأسبوع سماه العرب (يوم العروبة) وسماه هو (يوم الجمعة) ، وكان يخطب الناس فيه يجزم بين يديهم بكلام لا يجـــوز له أن يقوله جازما به ، إلا إذا كان قد سمعه من أهل الكتاب وانطبع قلبه علي ذلك .

ومـــن أقواله في خطبه في أيام الجمعة ما تناقله الناس عنه أنه كان يقول

[حرمكم عظموه وتمسكوا به فسيأتي له نبأ عظيم وسيخرج به نبي كريم والله لـو كـنت فيـه ذا سمع وبصر ويد ورجل لتنصبت تنصب الخيل ولا رقلت أرقال الفحل.

ثم يقول :

يا ليتني شاهد فحواء دعوته * حين العشيرة تبغي الحق خذلانا]

وقـد أتـت أو صاف النبي صلي الله عليه وسلم علي ألسنة أناس في مكة عـرفهم الـتاريخ باسم الشكاك ، لأنهم قد طرحوا دين آبائهم وكرهوا عبادة الأصـنام ، ورأوا قـلوبهم وأنفسـهم وعقولهم قد نفرت عن هذا الدين فساح بعضـهم فـي الأرض وقـرأ بعضهم الكتب طلبا لدين يلائم كرامة الإنسان ويرتفع بهمته لأداء وظيفته في هذه الحياة .

ولقـد عاد هؤلاء الشكاك من سياحتهم في الأرض أو قراءتهم في الكتب إلـي مطـلع النور يترقبون نبيا علموا أو صافه واشتاقت قلوبهم إلي متابعته وأعينهم إلي رؤيته.

ومـن هـؤلاء الأكابر (زيد بن عمرو بن نفيل) والد سعيد بن عمرو وأخو الخطاب والد عمر بن الخطاب .

ولقـد حـدث التاريخ أن زيدا كان ذا قلب شيحان علي نبي قرب زمانه ومعـه ديـن يخالف دين الآباء والأجداد ، وظل متربصا في مكة مطلع كل صـباح وغـروب كل شمس يسأل ربه أن يجعل له حظا من مصاحبة النبي القادم ، ويجتهد في الدعاء قائلا لربه : اللهم هيئ لي من يدلني علي الطريق إليك .

والشـيء الغـريب ، بل الطريف المبهج أنه قد عاصر النبي قبل نبوته وكـان يسـتريح لعظمته ويأنس لخلقه ، ولكنه لم يكن يعلم أنه هو البدر الذي ينتظر مطلعه.

فلما أحس بدنو أجله عمد إلي الشباب من الناس ، وحمل بعضهم رسائل لصاحب الساحة إن هم أدركوه ، ومن هؤلاء الشباب الذين استودعهم رسائله

لعظيـم السـاحة : ولده سعيد بن زيد ، وهو الذي أسلم بعد ، وحسن إسلامه وذكره النبي ضمن العشرة المبشرين بالجنة .

ومن هؤلاء الشباب عامر بن ربيعه فهو القائل : [سمعت زيد بن عمرو بـن نفيـل يقـول : أنا أنتظر نبيا من ولد إسماعيل من بني عبد المطلب ولا أراني أدركه، وأنا أؤمن به وأصدقه وأشهد أنه نبي فإن طالت بك مدة فرأيته فأقـرأه مني السلام وسأخبرك ما نعته حتى لا يخفي عليك قلت : هلم ، قال : هـو رجـل ليـس بالقصير ولا بالطويل ولا بكثير الشعر ولا بقليله ، وليس يفارق عينيه حمرة، وخاتم النبوة بين كتفيه واسمه أحمد ، وهذا البلد مولده ثم يخـرجه قومه منها ويكرهون ما جاء به حتى يهاجر إلي يثرب فيظهر أمره فإيـاك أن تخـدع عنه ، فإني طفت البلاد كلها أطلب دين إبراهيم ، فكل من أسـأله عـنه مـن اليهود والنصارى والمجوس يقولون : هذا الدين وراءك وينعـتونه مثل ما نعت لك ، ويقولون : لم يبق نبي غيره . قال عامر : فلما أسـلمت أخبرت رسول الله صلي الله عليه وسلم بقول زيد وأقرأته منه السلام فرد عليه السلام وترحم عليه .

وقال : قد رأيته في الجنة يسحب الذيول] .

وليـس زيد وحده في هذا المجال من حال الشكاك في أهل مكة ، وإنما تابعه غيره على ما كان عليه .

وما أمر ورقة بن نوفل عنا وعنك ببعيد .

فمـا كـان لخديجة أم المؤمنين رضى الله عنها حين فاجأ النبى الوحى وعاد إليها مأخوذا قائلا : دثرونى أو زملوني .

مـا كان لخديجة أن تنشط وتذهب إلى ورقة بن نوفل وتعرض عليه ما كـان مـن حـال رسول الله ، لولا أنها كانت تترقب مع المترقبين قصة هذا النبى الأمين ودخوله إلى الساحة نبيا مرسلا هو خاتم النبيين .

ومـا كـان لورقة بن نوفل أن يعرض طريقة اختبار يميز بها بين رجل يأتيـه الملك وآخر يوحى إليه الشيطان ، لولا علمه الأكيد بأن النبى قد أظل

زمانـــه وطـــلع نجمـــه وكان ورقة رجلا قد كبرت سنه ، وقضى شطرا من عمـــره يقـــرأ بالسريانية فى الكتاب المقدس ، فسار لا تخفى عليه خافية من ناموس الأنبياء ، ولا من صفات الرجل الذي طال انتظار الكون له .

وتشوق لرؤية النبي والسماع منه والتحدث إليه ، وتناقل الناس ما جري بينه وبين النبي من حديث ، شد انتباه النبي منه قوله : لئن أدركنى زمانك إذ يخـــرجك قومـــك لأنصرنك نصرا مؤزرا ، فقال النبي متعجبا : أو مخرجي هـــم؟ وأجابه ورقة بجواب مختصر فحواه : أنه ما من نبي أرسله الله قبله إلا آذاه قومه .

ولـــم يشـــأ الله عز وجل لورقة أن يبقي حتى يشهد علي أرض الواقع ما قرأه من حديث الكتب عن عظيم الساحة المنتظر .

ومع كل هذا الذي ذكرت لك قد انتشرت أحاديث النبي والبشارات به في الكـــتب فـــي أرجاء مكة علي ألسنة أناس أقاموا بها من أهل الكتاب ، أو من خـــلال لقاءات تمت بين زعماء مكة وأناس آخرين لهم صلة بالكتاب المقدس ولكـــنهم لم يتشرفوا بالمقام في مكة ، ومن ذلك ما روي هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة أم المؤمنين قالت : [كان يهودي يسكن مكة فلما كانت الليلة الـــتي ولد فيها رسول الله صلي الله عليه وسلم حضر مجلس قريش فقال : يا معاشـــر قريش هل ولد فيكم الليلة مولود ؟ فقال القوم : والله ما نعلم ، قال : الله أكـــبر أما إذ أخطأكم فلا بأس انظروا واحفظوا ما أقول لكم ، ولد في هذه الليلة نبي بين كتفيه علامة فيها شعرات متواترات كأنها عرف وثن فتصارع القـــوم عن مجلسهم وهم متعجبون من قوله ، فلما صاروا إلي منازلهم أخبر كـــل إنسان منهم أهله فقالوا : ولد لعبد الله بن عبد المطلب غلام سموه محمدا فانطـــلق القـــوم إلى اليهـــودى فأخبروه فقال : اذهبوا بي حتى أنظر إليـــه فأدخـــلوه علي آمنة وقالوا : أخرجي إلينا ابنك ، فأخرجته وكشفوا عن ظهره فرأي اليهودي تلك الشامة فوقع مغشيا عليه فلما أفاق قالوا له :ما لك ؟ قال : ذهـــبت والله النبوة من بني إسرائيل يا معشر قريش والله ليسطون بكم سطوة

يخـرج خـبرها مـن المشرق إلي المغرب ، وكان في القوم الذين أخبرهم اليهـودي بذلـك هشام بن المغيرة والوليد بن المغيرة وعبيدة بن عبد المطلب وعتبة بن ربيعة فعصمه الله تعالي منهم].

وقـريب مـن هـذا ما حدث في مكة في أحد أعيادهم التي خصصوها للنساء يجتمعن فيها دون الرجال حيث أقبل عليهن يهودي غشي اجتماعهن ثم قال لهن وخديجة بينهن تسمع كما تسمع النسوة : يا معشر نساء قريش يوشك أن يـبعث فيكـن نـبي فأيتكن استطاعت أن تـكون له أرضا فلتفعل فحصبنه [1] ووقر ذلك في نفس خديجة حتى حققه الله لها فكانت أول من آمن به .

ولـم تقتصر أخبار النبي في مكة قبل ظهور نبوته علي ما ذكره اليهود بيـن ربوعهـا ، وإنمـا شارك النصارى في رواية هذه الأخبار داخل ربوع مكة.

حكـي المؤرخون قالوا : إن جماعة من النصارى قدموا من الشام تجارا إلـي مكة فنزلوا بين الصفا والمروة فرأوه وهو ابن سبع سنين فعرفه بعضهم بصـفته في كتبهم وسمته في فراستهم فقال له من أنت و ابن من أنت فقال : أنـا محمـد بـن عبد الله بن عبد المطلب . فقال : من رب هذه ، وأشار إلي الجـبال ، فقـال : الله ربها لا شريك له . فقال له : من رب هذه وأشار إلي السـماء ، فقـال : الله ربها لا شريك له . فقال له النصراني : فهل لها رب غيره . فقال : لا تشككني في الله ما له شريك ولا ضد .

ولم يكن الحديث عن النبي صلي الله عليه وسلم قاصرا علي مكة وحدها بوصـفها مطـلع النور ، وإنما يوشك أن يكون الحديث قد عم كل مكان من

---

(١) قذفنه و نضحنه بالحصى - حصى الأرض : حصباؤها
و دلالة الحصباء على الحصى دلالة على جزء المعنى المفهوم من اللفظ إذ هو يدل بالإشتراك على البثور تكون على ظهر الجلد في حالة من حالات المرض يعرفه أهل التخصص باسم : الحصباء

وجه الأرض انتقل إليه أصحاب الديانات السابقة .

ففي حمير علي نحو ما حكاه ابن قتيبة أن : أبا كريب ابن سعد الحميرى آمن بالنبي صلي الله عليه وسلم قبل أن يبعث بسبعمائة سنة وقال :

شهـــدت علي أحـــمد أنه * رسول من الله باري النسم

فلو مد عمري إلي عمره * لكنت وزيرا له وابـــن عم

ويبدو أن كريب قارئ جيد لكتاب العهد القديم .

فـــالذي يظهـــر مـــن تاريخه أن استعماله لكلمة (أحمد) ليس أخذا من بشـــارة عيســـي عـــليه السلام ، ولما كانت كلمة (أحمد) غير مستعملة في العرب ولا في العجم علما علي إنسان بعينه ، لزم أن يكون أبو كريب قد قرأ ذلك في التوراة .

ونحن قد ذكرنا لك فيما سبق أن كلمة (حمدا) الواردة في التوراة ليس لها من معني إلا أحمد ، أو محمد ، أو محمود .

فـــراجع هذا إن شئت في الجزء الذي خصصناه في البحث للحديث عن اسمه .

أما في الحبشة فقد تردد اسم النبي صلي الله عليه وسلم والتبشير به على نطاق واسع .

يقول الماوردي : [ومن هواجس الإلهام – يعني بنبوته – ما حدثنا أبو الحســـن محمد بن علي بن محفل رحمه الله قال] وذكر السند بطوله إلي ابن عـــباس رضي الله عنهما قال : [لما ظفر سيف بن ذي يزن بالحبشة وذلك بعـــد مولـــد النـــبي صـــلي الله عليه وسلم بسنين أتي وفود العرب وأشرافها وشـــعراؤها لتهنئته ومدحه وذكر ما كان من بلائه وطلبه بثأر قومه فأتاه وفد قريش وفيهم عبد المطلب بن هاشم وأمية بن عبد شمس وعبد الله بن جدعان وأسد بن خويلد بن عبد العزى في ناس من أشراف قريش فلما قدموا عليه إذ هو في رأس قصر يقال له غمدان وهو الذي يقول فيه أمية ابن أبي الصلت :

اشرب هنيئا عليك التاج مرتفعا * في رأس غمدان دار منك محلال .

قــال : فاســتأذنوا عليه فأذن لهم فدخلوا عليه فإذا الملك مضمخ بالعنبر يــري ويبص الطيب من مفرقه عليه بردان متزر بأحدهما مرتد بالآخر سيفه بين يديه وعن يمينه وعن يساره الملوك وأبناء الملوك والمقاول .

قال : فدنا عبد المطلب واستأذن في الكلام .

فقــال عــبد المطــلب : إن الله أحلك أيها الملك محلا رفيعا صعبا منيعا شــامخا باذخا ، وأنبتك منبتا طابت أرومته ، وعزت جرثومته ، وثبت أصله وبسق فرعه في أكرم موطن ، وأطيب معدن ، وأنت أبيت اللعن ملك للعرب وربيعهــا الــذي يخصــب به ، وأنت أيها الملك رأس العرب الذي إليه تنقاد وعمودهــا الــذي عليه العماد ومعقلها الذي تلجأ إليه العباد سلفك خير سلف وأنــت لــنا منهم خير خلف فلن يخمل ذكر من أنت سلفه ولن يهلك من أنت خــلفه ونحــن أيها الملك أهل حرم الله وسدنة بيته أشخصنا إليك الذي أبهجنا لكشف الكرب الذي فدحنا فنحن وفد التهنئة لا وفد التعزية فقال ابن ذي يزيد فأيهم أنت أيها المتكلم .

فقال : أنا عبد المطلب بن هاشم .

قال : ابن أختنا ؟

قال : نعم ابن أختكم

قال : ادن فأدناه علي القوم وعليه .

فقــال : مرحــبا وأهلا وناقة ورحلا ومستناخا سهلا وملكا بحلا يعطي عطــاءا جزلا قد سمع الملك مقالتكم وعرف قرابتكم وقبل وسيلتكم فأنتم أهل الليل وأهل النهار لكم الكرامة ما أقمتم والحباء إذا ظعنتم .

قــال : ثم استنهضوا إلى دار الضيافة والوفود فأقاموا شهرا لا يصلون إليه ولا يأذن لهم بالانصراف .

قال : ثم انتبه انتباهة فأرسل إلى عبد المطلب – فأعلاه وأدنى مجلسه – وقــال : يــا عبد المطلب إنى مفوض إليك من سر علمى مالو كان غيرك لم أبح له.

ولكن رأيتك معدنه ، وأطلعتك عليه فليكن عندك مطويا حتى يأذن الله فيه فإن الله بـالغ فيـه أمـره ، إني أجده في الكتاب المكنون والعلم المخزون الذي اخترناه لأنفسنا، واحتجناه دون غيره خبرا عظيما وخطرا جسيما ، فيه شرف الحياة وفضيلة الوفاة للناس عامة ، ولرهطك كافة ولك خاصة .

قـال عبد المطلب : أيها الملك فمثلك من سروبر فما هو فداك أهل الوبر زمرا بعد زمر ؟

قـال : إذا ولـد بـتهامة غلام بين كتفيه شامة كانت له الإمامة ولكم به الزعامة إلي يوم القيامة .

فقال له عبد المطلب : أبيت اللعن لقد أتيت بخبر ما أتي بمثـله وافد (فـلولا هيـبة الملك وإجلاله وإعظامه لسألته من بشارته إياي ما أزداد به سرورا) .

قـال ابـن ذي يـزن : هذا حينه الذي يولد فيه أو قد ولد ؟ اسمه أحمد يمـوت أبـوه وأمـه ويكفلـه جده وعمه قد وجدناه مرارا والله باعثه جهارا وجـاعل مـنا له أنصارا ، يعز بهم أولياءه ، ويذل بهم أعداءه ، يضرب بهم الـناس عـن عرض ، ويستفتح بهم كرائم الأرض ، يكسر الأوثان ، ويخمد الـنيران ويعـبد الـرحمن ويدحر الشيطان ، قوله فصل وحكمه عدل يأمر بالمعروف ويفعله ، وينهي عن المنكر ويبطله .

قـال عـبد المطلب : أيها الملك عز جدك ، وعلا عقبك ، وطاب ملكك وطال عمرك . فهل الملك ساري بإفصاح فقد أوضح بعد الإيضاح .

فقـال ابـن يزن : والبيت ذي الحجب والعلامات علي النصب ، إنك يا عبد المطلب لجده غير الكذب -

قال : فخر عبد المطلب ساجدا .

فقـال ابـن ذي يزن : ارفع رأسك ، ثلج صدرك ، وعلا أمرك ، فهل أحسست شيئا مما ذكرت لك ؟

فقـال : نعـم أيهـا الملك كان لي ابن وكنت به معجبا ، رفيقا أو رقيقا

فزوجـــته كريمة من كرائم قومي آمنة بنت وهب بن عبد مناف ، فأتت بغلام ســميته محمـــدا مات أبوه وأمه ، وكفلته أنا وعمه بين كتفيه شامة وفيه كلما ذكرت من علامة .

قال ابن ذي يزن : إن الذي قلت لك لكما قلت لك فاحتفظ بابنك ، واحذر عــليه من اليهود ، فإنهم له أعداء ، ولن يجعل الله لهم عليه سبيلا ، فاطو ما ذكرته دون هؤلاء الرهط الذين معك ، فإني لست آمن أن تداخلهم النفاسة من أن تكـــون لـــك الرياســـة ، فيبغون له الغوائل ، وينصبون له الحبائل – وهم فاعـــلون وأبـــناؤهم – ولولا أني أعلم أن الموت يجتاحني قبل مبعثه لسرت بخيـــلي ورجـــلي حتى أصير بيثرب دار ملكي ، فإني أجد في الكتاب الناطق والعـــلم السابق أن يثرب استحكام أمره ، وأهل نصرته ، وموضع قبره ولولا أني أقيه الآيات وأحذر عليه العاهات لأعلنت علي حداثة سنه ذكره وأوطيت أسنان العرب عقبه ، ولكن صارف ذلك إليك بغير تقصير ممن معك].

وفي شمال شبه الجزيرة العربية وما بعدها من بلاد الشام ، فكتب السير ملأى بالحديث عن النبي صلي الله عليه وسلم خاصة منها ما ورد علي ألسنة بعض رهبان النصارى .

وأنـــت خبير ولا شك بأن النبي صلي الله عليه وسلم قد ذهب بمصاحبة عمـــه أبـــي طالب والذين معه إلي بلاد الشام في تجارة لهم ، ولم يكن عمره المبارك حينئذ قد تجاوز التاسعة .

وحيـــن حط القوم رحالهم يلتقطون الأنفاس في بعض منازلهم ، شاء الله أن تكون استراحتهم تلك أمام صومعة لراهب يعرفونه يسمي (بحيرا) مكانه في النصرانية أنه عالم عابد .

وتؤكـــد الروايات أن الرجل قد استدعاهم إلي طعام لم يكن من عادته أن يصـــنعه لهـــم ، وانـــتهي به الحال إلي أن انفرد بالنبي صلي الله عليه وسلم وعمه فحين سأله عن اسمه ونسبه أجاب أبو طالب بما يجيب به العم الرحيم فقال له : إنه ابني ، فأنكر الراهب عليه أشد الإنكار ، فقال له : ما ينبغي أن

يكــون أبــوه حيا ، فصارحه أبو طالب بأنه ابن أخيه الذي توفي قبل أن يراه وانتهي المطاف ببحيرة إلي أن فحص النبي وتأمل جسمه من خلف بحثا عن خــاتم النبوة بين كتفيه، فلما لم تخطئه العلامات صارح عمه بنبوته علي نحو ما صارح ابن ذي يزن جده بها من قبل ، ثم طلب إليه أن يعود به .

وأهــل التاريخ والسير يذكرون لنا أنه قد اجتمع إلي الراهب مجموعات من اليهود انتشروا في السكك والطرقات بحثا عن نبي علموا صفاته وعلموا أنــه قد طلع نجمه وأظل زمانه ، فخذلهم الراهب عن النبي وقومه وصرفهم عن ملاحقته بعد أن أعلمهم أنه لا راد لأمر أراده الله وأبرمه .

وعــاد النبي مع عمه وذويه ، أو مع أناس انتدبهم عمه إلي هذه المهمة بعد أن زودهم الراهب بما يبلغون به من زاد للجسد وطمأنينة للنفس .

وأنــا لا أحــب أن أترك شمال الجزيرة وما يليها من بلاد الشام قبل أن أذكــرك بــأن النبي قد ذهب مرة أخري إلي بلاد الشام مضاربا لخديجة في مالها ، تلبية لرغبة عمه تحت إلحاح الظروف التي كان يمر بها .

وقد صحب النبي في سفره ميسرة غلام خديجة أم المؤمنين وقد قص ما رآه في سفره مع النبي من الأحوال المتصلة بــه .

ومــا يتصل بموضوعنا منها ما قصه ميسرة عن الراهب الذي انفرد به وســأله عــن هذا الذي يصاحبه ، فلما أخبره بأنه من مكة المكرمة ، وأجابه عــن أســئلته المتصلة بصفاته وأحواله ، أخبره بأنه نبي هذا الزمان ، وأنهم يجدون ذلك في كتبهم .

وليس بغريب علي خديجة حين سمعت من ميسرة ما سمعت أن يفاجئها أمــر قــد انطــوي عندها في هامش الشعور منذ أزمان ، وعاد إليها صوت اليهــودي الــذي هتف بالنسوة في مكة في يوم عيدهم الذي لا يحتفي به إلا النساء وأخبر المجتمعات يومها أن نبيا في هذا الزمان خارج فمن استطاعت أن تكون له أرضا (أي زوجة) فلتفعــل .

ليــس بغــريب أن تضــم خديجة حديث ميسرة إلي ما استقر عندها في

هـامش الشـعور لـتكون عـن النبي فكرة لا يخطئها الصواب ولا تخطيء الطريق إليه .

وكان ما كان من زواجها به علي نحو ما تعلم ونعلم .

أما يثرب (وما أدراك ما يثرب) فقد شهدت أمرا عجبا .

لقد شاء الله عز وجل أن يقيم بالمدينة وما يليها من شمال جزيرة العرب مجموعـات مـن اليهود قد اغتصبوا الأرض العربية واستوطنوها ، وكادوا لأهلها كيدا فرقوا به صفوفهم ، وصرفوهم به عما لهم من مكانة .

ولقـد شاء الله أن يكون مقام اليهود في هذه البقعة من الأرض مقصودا إليـه قصدا ، لكي يعدوا الأرض للنبي صلي الله عليه وسلم قبل أن يأتي إلي يثرب مهاجرا .

وأنـت خـبير أن من يثير الأرض ويحرثها لكي تكون جاهزة لاستقبال الـبذور، لا يجـوز له أن يـنزل هذه الأرض بعد أن ينبت الزرع أو يؤتي ثماره.

لقد كان هذا هو حال اليهود في المدينة وما وراءها من أماكن تمركزهم فـي الشـمال ، فقد بشروا بالنبي قبل مولده إلي ما قبل مبعثه ، وتفاخروا به علي العرب ، وتوعدوهم بإذلال بعد مبعث النبي وإتباع اليهود له .

لقـد قـالوا لهم متوعدين إن النبي الموعود قد أظل زمانه ، وإننا سوف نتبعه ونقتلكم معه قتل عاد وإرم .

فـلما جـاء النبي وأرسله الله بما أرسله به كان ما كان من عداوتهم له وتقاعسـهم عـن نصـرته ، ووقوفهم في طريقه ، وهم الذين بشروا به قبل مجيـئه ، ومـا ذلك إلا أنهم قد حسدوه ، ونفسوا علي العرب أن تنتقل النبوة إليهم .

ألم أقل لك أن الحيوانات تثير الأرض قبل زرعها فتصلحها ، فإذا نزلت هذه الحيوانات إلي الأرض بعد أن ينبت الزرع فإنها تتلف ما فيها من زروع أو ثمار؟!

وهــذا الحال من أحوال اليهود مع النبي قبل مولده وبعد بعثته قد رصده المؤرخون في قصص ما زالت تروي عن حال اليهود قبل البعثة ، وعلاقات النبي باليهود بعد أن بعثه الله بهذا الدين المتين .

حكــي بعــض المؤرخين عن عبيد الجرهمي – وكان كبير السن عالما بأخــبار الأمم – [أن تبعا الأصغر وهو تبع بن حسان بن تبع سائر بيثرب فــنزل فــي ســفح أحد وذهب إلي اليهود فقتل منهم ثلاثمائة وخمسين رجلا صــبرا وأراد خــرابها فقام إليه رجل من اليهود كبير السن فقال : أيها الملك مثــلك لا يقتل علي الغضب ولا يقبل قول الزور ، أمرك أعظم من أن يطير بــك برق أو يسرع بك لجاج ، فإنك لا تستطيع أن تخرب هذه القرية ، قال : ولــم ؟ قال : لأنها مهاجر نبي من ولد إسماعيل يخرج من هذه الثنية – يعني الــبيت الحــرام – فكف تبع ومضي إلي مكة ومعه هذا اليهودي ورجل آخر عالم من اليهود فكسا البيت ونحر عندها] .

واليهــود برغم ما نراه اليوم منهم من تعنت ، فإن بعضهم قد هتف بهم من قبل ظهور النبي صلي الله عليــه وسلم ، فأعلمهم بأن النبي قادم وبشرهم إن اتبعوه ، وأنذرهم إن هم ازوروا عنه وأعرضوا عن دينه .

وفي ذلك يروي ابن اسحاق من قصة ابن الهيبان وما كان من أمر ثعلبة وأسيد ابنى سعية وأسد بن عبيد قال : [حدثني عاصم بن عمرو بن قتاده عن شيخ من بني قريظة قال : قال لى : هل تدرى عم كان إسلام ثعلبة بن سعية وأســيد ابــن سعية وأسد بن عبيد بن نفر من بنى هذل ، إخوة بنى قريظة ، كانوا معهم فى جاهليتهم ثم كانوا ساداتهم فى الإسلام .

قــال : قلت لا ، قال فإن رجلا من يهود من أهل الشام ، يقال له : ابن الهيــبان ، قدم علينا قبيل الإسلام بسنين ، فحل بين أظهرنا ، لا والله ما رأينا رجــلا قط لا يصلى الخمس أفضل منه ، فأقام عندنا فكنا إذا قحط عنا المطر قلــنا له اخرج يا ابن الهيبان فاستسق لنا ، فيقول . لا والله ، حتى تقدموا بين يــدى مخــرجكم صدقة ، فنقول له : كم ؟ فيقول : صاعا من تمر : أو مدين

مـــن شعير . قال : فنخرجها ، ثم يخرج بنا إلى ظاهر حرتنا ، فيستسقى الله لـــنا ، فو الله ما يبرح مجلسه ، حتى تمر السحابة ونسقى ، قد فعل ذلك غير مرة ولا مرتين ولا ثلاث .

قـــال : ثم حضرته الوفاة عندنا ، فلما عرف أنه ميت ، قال يا معشر يهود ما ترونه أخرجنى من أرض الخمر والخمير إلى أرض البؤس والجوع ؟ قال : قلـــنا إنـــك أعلم ، قال فإنى إنما قدمت هذه البلدة أتوكف خروج نبى قد أظل زمانـــه ، وهـــذه البلدة مهاجره ، فكنت أرجو أن يبعث ، فأتبعه ، وقد أظلكم زمانـــه ، فلا تسبقن إليه يا معشر يهود ، فإنه يبعث بسفك الدماء ، وسبى الذرارى والنساء ممن خالفه فلا يمنعكم ذلك منه .

فـــلما بعـــث رسول الله صلى الله وحاصر بنى قريظة قال هؤلاء الفتية وكانوا شبابا أحداثا : يا بنى قريظة ، والله إنه للنبي الذي كان عهد إليكم فيه بـــن الهيـــبان ، قالوا : ليس به ، قالوا : بلي والله ، إنه لهو بصفته ، فنزلوا وأسلموا ، وأحرزوا دماءهم وأموالهم وأهليهم] .

واســـتمر حـــال اليهـــود علي هذا النحو من التعنت بعد بعثة رسول الله صـــلي الله عـــليه وسلم برغم أنهم كانوا يعرفون اسمه وصفته كما يعرفون أبناءهم .

وليـــس هـــناك أغرب من موقف بعض علمائهم الذين عرفوا الحق أول الأمر وآخره ، ثم تنكروا له بعد أن عرفوه .

فمـــن بعض مرويات ابن إسحاق قال : [حدثني صالح بن إبراهيم بن عـــبد الرحمن بن عوف عن محمود بن لبيد أخي بنى عبد الأشهل عن سلمة بن سلامة بن وقش – وكان سلمة من أصحاب بدر – قال : كان لنا جار من يهود فى بنى عبد الأشهل ، قال : فخرج يوما من بيته ، حتى وقف على بنى عـــبد الأشـــهل – قـــال سلمة : وأنا يومئذ أحدث من فيه سنا ، على بردة لى مضـــطجع فيها بفناء أهلى – فذكر القيامة والبعث والحساب والميزان والجنة والنار ، قال فقال ذلك لقوم أهل شرك أصحاب أوثان ، لا يرون أن بعثا كائن

بعد المـوت ، فقـالوا له : ويحـك يا فلان ! أو ترى هذا كائنا ، أن الناس يبعثون بعد موتهم إلى دار فيها جنة ونار ، يجزون فيها بأعمالهم ؟ قال : نعم والـذى يحـلف بـه ، ويود أن له بحظه من تلك النار أعظم تنور فى الدار يحمونـه ثم يدخلونه إياه فيطينونه عليه ، بأن ينجو من تلك النار غدا ، فقالوا لـه : ويحك يافلان ! فما آية ذلك ؟ قال : نبى مبعوث من نحـو هذه البلاد - وأشار بيده إلى مكة واليمن - فقالوا : ومتى تراه ؟ قال : فنظر إلى ، وأنا مـن أحدثهم سنا فقال : إن يستنفد هذا الغلام عمره يدركه . قال سلـمة : فـو الله مـا ذهب الليل والنهار حتى بعث الله محمدا رسوله صلى الله عليه وسـلم وهو حى بين أظهرنا ، فآمنا به ، وكفر به بغيا وحسدا . قال فقلنا له : ويحك يا فلان ! ألست الذى قلت لنا فيه ما قلت ؟ قال : بلى ولكن ليس به].

هـذا هو حال حاخاما تهم فى علاقاتهم برسول الله صلى الله عليه وسلم قبل ظهوره وبعد بعثته .

وقـد يفهـم مـن حديثى إليك يا صاحبى أن هذه الخصلة قاصرة على حاخامـات اليهـود وليـس الأمر على هذا النحو ، فإن هذه الصفة عامة فى اليهود جميعا إلا من رحم ربك .

ودعنى أستكمل النقل عن ابن إسحاق لأريك حقيقة الأمر وبـعد القول قـال [وحدثنى عاصم بن عمر بن قتادة عن رجال من قومه قالوا : إن مما دعانـا إلى الإسلام ، مع رحمة الله تعالى وهداه لما كنا نسمع من رجال يهود كـنا أهـل شـرك أصحاب أوثان ، وكانوا أهل كتاب ، عندهم علم ليس لنا وكـانت لا تزال بيننا وبينهم شرور ، فإذا نلنا منهم بعض ما يكرهون ، قالوا لـنا : إنه تقارب زمان نبى يبعث الآن نقتلكم معه قتل عاد وإرم ، فكنا كثيرا ما نسمع ذلك منهم .

فـلما بعـث الله رسـوله صلى الله عليه وسلم أجبناه حين دعانا إلى الله تعـالى وعرفـنا ما كانوا يتوعدوننا به ، فبادرناهم إليه فآمنا به ، وكفروا به

ففينا وفيهم نزل هؤلاء الآيات من البقرة : " ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا ، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به ، فلعنة الله على الكافرين "][1] .

هذا ما ذكره ابن إسحاق يشرح به حال اليهود فى يثرب قبل مجئ النبى وبعد أن جاء ينير الأرض ويهدى الناس السبيل .

ومـــا كان لى أن أطيل فى الحديث عن اليهود فى يثرب بعد أن سبق أن كتـــبت فى هذا الموضوع فصلا كاملا ، تناولت فيه قضية قيام اليهود بتمهيد الأرض وتوطئة الأمر للنبى صلى الله عليه وسلم فى يثرب قبل مهجره ، بل من قبل مولده .

وقد ضمنت هذا الفصل كتابا لى ظهر من قبل فليقرأه من شاء[2].

وإنى لأعـــتقد أنـــنى عـــند هذا الحد أكون قد رسمت أمامك صورة من حديث الناس عن النبى قبل مبعثه .

وقد كانت هذه الصورة ضرورية إذا ما فهمنا أننا بذكرنا للنصوص التى تبشـــر بالنـــبي صلى الله عليه وسلم ، والتى تضمنها الكتاب المقدس بعهديه القديم والحديث ، لا نستطيع أن نبلغ الأرب مما نذكره ، إلا إذا كان هذا الذى نذكره قد ترك أثرا على أصحاب هذه الديانات يرددونه بين الخلائق بشئ من الزهو أو بشئ من الحسرة والابتئاس .

ومـــن هـــنا فقط تأتى أهمية هذا المقال الأخير وضرورة إيراده هنا لكى يؤدى دوره فى إعداد الساحة لعظيمها القادم .

وأنـــا أعتقد أنى قد بلغت بك كثيرا مما كنت أريد أن أبلغه ، وشيئا غير قليل مما كنت أريد أن أحصله .

ولا علينا بعد ذلك أن يثير بعض الذين يحتويهم الشنآن على النبى كثيرا

---

(١) سيرة ابن هشام جـــ ١ ـص ١٩٥ ـ ط . شركة الطباعة الفنية المتحدة القاهرة ـ بدون

(٢) انظر كتاب الهجرة بين سنن الله الجارية وسننه الخارقة للمؤلف ـ طبع بالقاهرة .

مـــن الجدل أو قليلا ، لأنى لم اقصد بحال من الأحوال أن أجادل هؤلاء ولا هـــؤلاء ممن يستهويهم الجدل ، وإنما كل الذى قصدته هو إحقاق الحق ، ما أمكنـــنا أن نحق الحق ، وتسجيل شهادة التاريخ ما استطعنا أن نسجل شهادة التاريخ .

والله يقـــول الحـــق وهو يهـــدى السبيـــل

الكعبة ودورها فى إعداد الساحة

حين يصل الحديث بنا إلى الكعبة المشرفة بيت الله الحرام ودورها فى إعداد الساحة لعظيمها القادم ، يكون الحديث قد وصل بنا إلى نقطة هامة وحاسمة ، ذلك أن ارتباط الكعبة بعظيم الساحة القادم هو ارتباط لازم لزوم ارتباط المقدمات بنتائجها أو النتائج بمقدماتها على نحو لا يخطئ الناظر ولا يخطئه المفكر المتأمل .

وإذا أرادنا أن نشرح هذا القول شرحا مفصلا فإننا مضطرون أولا : إلى أن نلقى نظرة على بيوت العبادة فى شبه جزيرة العرب قبل بعثة النبى صلى الله عليه وسلم ، لنعلم ما الذى بقى منها إلى مطلع النور ومشرق الإسلام ، وما الذى درس قبل أن يوحى إلى النبى صلى الله عليه وسلم .

بيوت العبادة فى جزيرة العرب قبل البعثة :

أما بيوت العبادة فى جزيرة العرب قبل البعثة فقد اشتهر منها بيوت ذكرت فى شعر العرب ونثرهم ، و إن كانت مكانتها كلها مجتمعة أو متفرقة لم تدان الكعبة الموجودة فى مكة لا من حيث قدرها ولا من حيث آثارها .

ومن هذه البيوت التى اشتهرت فى جزيرة العرب والتف حولها جيرانها من الناس :

بيت الأقيصر .

وبيت ذى الخلصة .

وبيت صنعاء .

وبيت رضاء .

وبيت نجران .

ثم يأتى بيت مكة أبقاها وأشهرها جميعا .

أما بيت " **الأقيصر** " فكان موقعه على مشارف الشام ، وهو مقصد القبائل من قضاعة ولخم وجذام وعاملة ، يحجون إليه ويحلقون رءوسهم

عنده ويلقون قبضة من الدقيق مع كل شعرة .

وهذا البيت قد طار ذكره فى بعض الأشعار فهو الذى عناه زهيربن أبى سلمى بقوله :

حلفت بأنصاب الأقيصر جاهدا ... وما سحقت فيه المقاديم والقمل .

وأمـــا بيـــت " **ذى الخلصـــة** " فهـــو بيت كانت تعرفه العرب وتدعوه بالكعـــبة اليمانية ، وهو كائن بأرض خثعم بين مكة واليمن على مسيرة سبع ليال من مكة .

وهذا البيت المقدس قد بقى يؤدى دوره إلى أن أمر النبى صلى الله عليه وسلم بهدمه على ما هو وارد فى صحيح الأخبار .

وكان المحيطون به يطلقون عليه اسم الكعبة اليمانية ، كما كانوا يطلقون اسم " الكعبة الشامية " على البيت الحرام تمييزا لها عن بيت " ذى الخلصة " [١].

أما صنعاء نفسها فكان فيها بيت يسمى " **بيت رئام** " ، وكان أهل صنعاء يحجون إليه وينحرون عنده .

ولـــم يطـــل بـــه الأمد لأنه كان بصنعاء حبران يقرآن التوارة فطلبا من المـــلك أن يهدم هذا البيت لأن به شيطان أو لأنه فتنة يفتن الناس ، وما زالا به حتى ، أقنعاه فأذن لهما فى هدمه فهدماه .

ولك يكن بيت " **رضاء** " بأقل ذكرا مما ذكرنا لك من البيوت ، فهو الذى قال فيه المستوغر بن ربيعة بن كعب حين هدمه بعد الإسلام :

ولقـــد شـــددت على رضاء شدة ... فتركتها قفرا بقاع اسحـــــــما.

وأعان عبد الله فى مكـــــروهها ... وبمثل عبد الله أغشى المحـــرما

(١) والكلام فى ذى الخلصة عند المؤرخين يطول ، فهم يختلفون فى مكانه وكنهه ، وفى اسمه وضبط هذا الاسم ، وفيما يدل عليه من المسميات ، وفى الناس الذين اتبعوه وأقاموا الشعائر عنده ـ راجع ابن هاشم سيرة حـــ١ ص ٣٠ ـ وابن كثير بداية ـ وفتح البارى لابن حجر ـ غزوة ذى الخلصة ـ وتاج العروس وغير ذلك وهو كثير .

والـــناس يختـــلفون حول بيت " نجران " فيقولون أنه قد درس واستعفت آثـــاره إلى أن اكتشـــفه الـــرحالة عبد الله فلبـــى فى رحلته (٢٥ يونيه سنة ١٩٣٦ م) وقد قال فيه الأعشى وهو يخاطب ناقته .

فكعبة نجران حتم عليـــك حـــــتى تناخى بأبوابها .

نزور يزيد وعبد المســيح وقيسا همو خيـــر أربابها .

ويقول بعض المؤرخين – ومنهم أبو المنذر – أن هذا البيت وبيت سنداد بيـــن الكوفـــة والبصـــرة لم يكونا من بيوت العبادة وإنما كانا من المزارات الشريفة التى يزورها السياح .

ومـــع هـــذه البيوت كلها فإن الكعبة قد بقيت هى أشهر بيوت العبادة عند العرب ، ما ذكرناه منها وما لم نذكره حتى جاء الإسلام .

يقـــول الحافظ بن كثير : [وقد كانت العرب اتخذت مع الكعبة طواغيت وهى بيـــوت تعظمهـــا كـــتعظيم الكعبة ، لها سدنة وحجاب ، وتهدى لها كما تهـــدى للكعبة وتطوف بها كطوافها بها وتنحر عندها – وهى مع ذلك تعرف فضل الكعبة عليها لأنها بنا ء إبراهيم الخليل عليه السلام ومسجده .

وكـــانت لقـــريش وبنى كنانة العزى بنخلة وكانت سدنتها وحجابها بنى شيبان من سليم حلفاء بنى هاشم وقد خربها خالد بن الوليد زمن الفتح]

ويستمر ابن كثير فى النقل عن ابن إسحق فيقول :

[قال : وكانت اللات لثقيف بالطائف وكانت سدنتها وحجابها بنى معتب من ثقيف ، وخربها أبو سفيان والمغيرة بن شعبة بعد مجئ أهل الطائف .

قـــال : – يعـــنى (ابن إسحق – وكانت مناة للأوس والخزرج ومن دان بديـــنهم من أهل المدينة على ساحل البحر الأحمر من ناحية المشلل بقديد وقد خربها أبو سفيان أيضا ، وقيل على بن أبى طالب .

قـــال : وكـــان ذو الخلصـــة لدوس وخثعم وبجيلة ومن كان ببلادهم من العـــرب بتبالة ، وكان يقال له الكعبة اليمانية ، ولبيت مكة الكعبة الشامية وقد

خربه جرير بن عبد الله البجلي .

قال : وكان قلس لطى ومن يليها بجبلى طى بين أجا وسلمى ، وهما جبلان مشهوران .

قال : وكان رآم بيتا لحمير وأهل اليمن .

قال : وكانت رضاء بيتا لبنى ربيعة بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم ولها يقول المستوغر واسمه كعب بن ربيعة بن كعب .

ولقد شددت على رضاء شدة فتركتها قفرا بقاع اسحما .
وأعان عبد الله فى مكروها وبمثل عبد الله أغشى المحرما.

وكان ذا الكعبة لبكر وتغلب بن وائل وإياد بسنداد .

وله يقول أعشى بن قيس بن ثعلبة :

بين الخورنق[1] والسدير وبارق والبيت ذى الشرفات من سنداد .

وأول هذه القصيدة :

ولقد علمت وإن تطاول بى المدى أن السبيل سبيل ذى الأعواد . . .

والمقصود أن هذه البيوت كلها هدمت فلما جاء الإسلام جهز رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بيت من هذه سرايا تخربه ، وإلى تلك الأصنام من كسرها حتى لم يبق للكعبة ما يضاهيها وعبد الله وحده لا شريك له][2] .

أسماء الكعبة :

وهذا المبنى الكائن بمكة قد عرف له الناس أسماء كثيرة تدل عليه .

وقديما قالوا : إن كثرة الأسماء لمسمى واحد دليل على شرفه وتعدد جوانبه.

١- ومن أشهر هذه الأسماء – الكعبة .

---

(١) قال السهيلى : الخورنق قصر بناه النعمان الأكبر لسابور ليكون ولده فيه عنده ، وبناه رجل يقال له سنمار فى عشرين سنة ولم ير بناء أعجب منه ، فخشى النعمان أن يبنى لغيره مثله فألقاه من أعلاه فقتله .

(٢) ابن كثير ـ البداية والنهاية حـ٢ ـ ص ١٩٢ وما بعدها

ولسـنا نـدرى لماذا يختلف الناس فى سبب تسمية مكان العبادة بمكة بـ- الكعبة – مع ظهور هذا السبب ووضوح دلالة الاسم على مسماه .

ومـن الناس الذين اختلفوا حول تفسير تسمية الكعبة بهذا الاسم من أبعد النجعة ، وسار فى الشطط شأوا بعيدا .

فمـنهم من قال مثلا : إن هذه الكلمة – كعبة – كلمة رومية لا صلة لها باللغة العربية فوق صلة الاستقبال والاستيعاب .

وشـبهتهم أن الكعـبة بناء مكعب له طول وعرض وارتفاع ، ولم يكن لـلعرب بنايات ، وإنما هم قوم أصحاب خيام من أوبار الجمال أو من أشعار الضـأن ، فـلما أرادوا أن يقيموا بيتا للعبادة استقدموا لإنشائه بناء من الروم فأنشأه لهم مكعوبا وسماه – الكعبة – بلغة الروم ، واستقبل العرب هذا الاسم واستحسـنوه ، ولم يجدوا فى لغتهم بديلا عنه ، فلغتهم صدى لحياتهم وتعبيرا عـن أسـاليبهم ، وليس فى حياتهم مثل هذه البنايات ، وبالتالي فإنه ليس فى لغتهم أسماء معبرة عن هذه البنايات .

وأصحاب هذا الرأي قد استفرغوا طاقاتهم فى إثبات وجهة نظرهم .

وقريب من هذا الرأي رأى آخر يحاكيه مع اختلاف يسير .

وأصـحاب هـذا الـرأى الأخير الذى يحاكى الرأى الأول يقولون : إن أصل هذه الكلمة – كعبة – أنها قد انتزعت من لغة فارس .

ولا مـبرر لهم على ما يقولون إلا أنهم قالوا : إن البناء الذى بنى الكعبة فى عهـد قريش كان من بلاد فارس ، وكلمة – الكعبة – كانت مشهورة فى لغة الفرس علما على مثل هذا البناء .

وهـذا الرأي وذاك لا يستقيم الواحد منهما ، ولا يخلص لصاحبه إلا إذا قلنا أن الأسماء توجد أولا ثم نخلق لها المسميات .

وإلا إذا قلـنا إن الاسـم والمسمى فى مثل هذه البنايات يوجدان أولا ثم توجد عقائد الناس المرتبطة به .

على أن هذه الأشياء التى افترضناها افتراضا لا يمكن بحال من الأحوال

أن يكون لها السبق فى الوجود على غيرها .

فــلا يمكن للإسم أن يكون سابقا على المسمى فى أى لغة من اللغات أو مجتمع من المجتمعات .

والبــنايات فى دور العــبادة لا يجــوز لهــا بحال أن تكون سابقة على معــتقدات الناس ، إذ لا بد أن يوجد المعتقد أولا ثم ينشئ الناس دور العبادة التى تمارس الشعائر فيها طبقا لمعتقداتهم التى توجد سابقة على هذه البنايات.

ومــن أجــل هذا فإنه يصعب علينا أن نقول : إن اسم الكعبة ومدلوله قد أخذتهمــا العــرب من لغة الفرس أو الروم ، لا لشئ إلا أن يكون البناء الذى بنى الكعبة روميا أو فارسيا .

أمــا حججهــم التى ساقوها ، أو شبههم التى حجبت عنهم الحقيقة ، فهى مردودة بحكم الواقع المدرك أو المحسوس .

فالقائــلون بــأن لغة العرب قد ضاقت عن أن يكون فيها مثل اسم الكعبة فهذا غير صحيح وغير مسلم .

فالعرب تعرف المكعبات والكواعب والكعب ، وتنتشر هذه الاستعمالات فى لغة العرب نثرا وشعرا بما لانحتاج معه إلى أن نطيل الوقوف(١) .

وننتهى من كل هذا إلى أن اسم الكعبة اسم أصيل فى اللغة العربية ، وقد أطلقه العرب قديما واستعملوه على توالى العصور علما على بيت العبادة فى مكة.

يقــول الأزرقى [حدثــنى جدى عن سفيان بن عيينة عن ابن أبى نجيح قــال : إنمــا سميت الكعبة لأنها مكعبة على خلقة الكعب قال : وكان الناس يبــنون بيوتهم مدورة تعظيما للكعبة فأول من بنى بيتا مربعا حميد بن زهير فقالت قريش : ربع حميد بن زهير بيتا ، إما حياة وإما موتا](٢).

---

(١) راجع ابن منظور فى هذه المادة ، وانظر معه ما يروق لك من كتب المعاجم .

(٢) أخبار مكة للأزرقى حـــ ١ ص ٢٧٩ وما بعدها تحقيق رشدى الصالح ملحس الطبعة الرابعة ١٤٠٣ هـــ ـ ١٩٨٣ م .

ط دار الثقافة مكة المكرمة .

٢- ويسمى هذا البناء فى مكة المكرمة قديما وحديثا بـ " البيت العتيق "

وقـد يفهم بعض الناس أن البيت سمى بالبيت العتيق لقدمه ولطول العهد به وهذا فهم صحيح .

غيـر أنه يفهم كثير من الناس من إطلاق " العتيق " علما على البيت أنه ما سمى بذلك إلا لأنه قد عتق من الجبابرة ، فلم يجعل الله لجبار عليه سلطان فمن أراده من الجبابرة بسوء قصمه الله .

وأوضـح مـن ذلك عند أصحاب هذا الرأى أن البيت قد سمى بالعتيق لأنه عتق من تجبر الجبارين عنده ، فما من جبار يأتى إلى البيت إلا وتذهب عنه صفته ويأتى فى غاية الخضوع لرب هذا البيت ، فلا ينال من أحد ، ولا يتعرض بالبطش لمخلوق من مخلوقات الله .

وهذا الفهم الأخير قد حكى عن كثيرين من علماء المسلمين .

فـفى أخـبار مكة بالسند إلى [محمد بن كعب القرظى قال : إنما سمى البيت العتيق لأنه عتق من الجبابرة]

وفيـه إلى [ابن شهاب الزهرى أنه بلغه إنما سمى البيت العتيق من أجل أن الله عز وجل أعتقه من الجبابرة] .

[وقـال مجـاهد والسدى : إنما سمى البيت العتيق الكعبة أعتقها الله من الجبابرة فلا يتجبروا فيها إذا طافوا] (١).

٣- ومن أسماء هذ البيت أنه " البيت الحرام " .

ودلالـة هـذا الوصف لا تخفى فهو يحرم عنده القتال ، وتتضاعف فيه الذنوب ، ومن يرد فيه بإلحاد بظلم يذقه الله من عذاب أليم .

٤- ومن ألزم صفاته أنه " البيت الشريف " .

ولا مـانع أن نفهم من هذا الشرف علو المكانة فى القلوب وعظمة البيت فى النفوس .

غير أن الكثيرين يضيفون إلى هذا الفهم العلو الحسى ، فلا يجوز عندهم

---

(١) السابق جـ ١ ص ٢٨٠

أن يـــتطاول أهـــل مكـــة عليه بالبناء ، ومن تطاول عليه بالبناء وجب على الحاكـــم أن يزيل كل بناية زادت عليه فى الارتفاع .

قـــال الأزرقى فيمـــا قـــال [حدثني جدي عن ابن عينية عن ابن شيبة الحجـــبى عـــن شـــيبـــة بن عثمان أنه كان يشرف فلا يرى بيتا مشرفا على الكعبة إلا أمر بهدمه][1].

وللبيت أسماء أخرى غير ما ذكرناه ، منها ما هو ظاهر مشهور ومنها ما لا يعرفه إلا الأقلون من نحو أنه يدعى :

قادسا .

وناذرا .

والقرية القديمة[2].

وأنـــت لا يخفـــاك يا صاحبي أن كل اسم من هذه الأسماء له ظلاله التى تخصه وله مدلوله الذى يختلف عما للأسماء الأخرى من مدلولات وظلال .

ولســـت فى حاجة إلى أن أذكرك بالقاعدة التى استقرت فى أذهان الناس وهى أن الشئ إذا كثرت أسماؤه كان ذلك دليلا على تعدد جوانب العظمة فيه وهـــذا مـــا كان بالنسبة للبيت الكائن بمكة المشرفة ، زادها الله شرفا ، وزاد الـــبيت فيهـــا تعظيما وتكريما ومهابة وبرا ، وزاد من زاره تعظيما وتكريما ومهابة وبرا.

ومـــن مكارم هذا البيت وعظمته وبره ، ومن شرف هذا البيت ومهابته أنه اختص من بين البيوت التى ذكرناها لك من قبل بنسبته إلى الله وحده .

إذ مـــا من بيت من هذه البيوت التى تحدثنا عنها إلا كان لها اختصاص بصنم يتعصب له أهله وينتصر له المعتقدون فيه .

وحـــتى هذه الأصنام التى انتصبت قريبا من الكعبة كانت أصناما محلية وعشائرية ، بحيث أننا لا نعدم الأنصار والمتحمسين والأعداء والشانئين لكل

---

(١) السابق حـــ ١ ص ٢٨٠

(٢) وللكعبة أسماء أخرى غير ما ذكرناه ـ راجع نحو سبل الهدى حـــ ١ ص ١٩٧ وما بعدها

صنم على حدة .

وأكثر من هذا أن الحجيج الذين يؤمون البيت الحرام كانوا يأتون وفى قلب كل جماعة اعتقاد فى صنم يخصهم ، أو بيت لصنم يأوون إليه ويتعصبون له .

أما البيت الحرام فقد برئ من ذلك كله كما سنرى ، وخلصت له النسبة إلى الله ، فإذا قيل بين العرب إن هذا هو بيت الله ، فإن هذا القول لا ينصرف إلا إلى الكعبة وحدها دون سواها .

وتلك فضيلة لم تخطئ الكعبة فى عصر من العصور ولا فى زمن من الأزمان .

الكعبة قيام للناس :

وما ذكرناه لك من الحديث عن الكعبة يقربنا من هذه النقطة الحاسمة ، وهى أن الكعبة البيت الحرام قد جعلها الله عز وجل من أوائل الأزمنة قياما للناس وجعل لواحقها والمتعلقات بها قياما للناس كذلك .

وبعد ظهور النبي ونزول الوحي عليه نزل عليه فى القرآن ما يؤكد هذه الحقيقة حيث قال الله تعالى : " **جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما للناس والشهر الحرام والهدى والقلائد ذلك لتعلموا أن الله يعلم ما فى السموات و ما فى الأرض وأن الله بكل شئ عليم** "(١) .

وأول ما نستطيع أن نفهمه فى هذه الآية هو معنى كلمة **قياما للناس** .

وهذه الكلمة كانت بالواو بدلا من الياء ، فأصلها " **جعل الله البيت الحرام قواما للناس** " فلما كانت القاف قبل الواو مكسورة قلبت الواو ياء فصارت قياما .

ونحن إذا أردنا أن نفهم هذه الكلمة لابد أن نرد الياء إلى أصلها وهو – الواو – ثم نسال عن معنى القوامة .

---

(١) المائدة : ٩٧

وليس للقوامة من معنى حسى أو معنوي إلا ما يقابل الإعوجاج .

وعليه فإن الله قد جعل الكعبة تحافظ علي الناس مستقيمين لا إعوجاج فيهم .

والعلماء يقفون عند هذا المعني اللفظي للآية ، ثم يتساءلون عن المراد من تأثير الكعبة بالاستقامة فى الناس هل هى استقامة في الدين والمنهج الأخلاقي ، أم هي استقامة في الحياة وظروف المعيشة ؟

ونحن لا نستطيع أن نفهم المراد علي وجهه الصحيح إلا إذا تأملنا حياة الناس داخل جزيرة العرب قبل الإسلام نوعا ما من التأمل .

وأنت لا يخفي عليك أن العرب لم تكن تحكمهم دولة علي نظام الدول لها قوانينها ولها دستورها ولها ملكها الذي يحمل الناس علي التبعية له وللدولة بهيبة السلطان وسطوة الجند ، وإنما كان العرب قوم رحل ينتقلون خلف الكلأ والماء ، ويعيشون حياة القبائل تستفزهم أبسط الأمور ، فتقع بينهم الحروب التي تستمر أزمنة طويلة حتى أصبحت الرغبة في الحرب والحرص علي النزال ، وما يتصل بهذه الخليقة أمورا تدخل في مكونات الشخصية العربية لا تنفصل عنها ولا تبارحها .

ومجتمع هذا شأنه يحتاج إلي نوعين من الضمانات .

إنه يحتاج إلي الأمن .

وهو يحتاج إلي الكفاية الاقتصادية .

واحتياجه إلي هذين النوعين من الضمانات في الأمن والكفاية الاقتصادية ، إنما هو احتياج الإنسان إلي أسباب الحياة ، فلا حياة مع الجوع ولا حياة مع الخوف .

ولقد جرت عادة الإنسان أن هذين النوعين من الضمانات لا يتوفران للإنسان إلا في ظل دولة ونظام .

والدولة بنظامها لا تتصور إلا من خلال أرض وشعب وسيادة .

وتلك أمور كلها قد غابت عن مجتمع شبه جزيرة العرب ، فما البديل ؟

هنا نأتي إلي النقطة الحرجة في الموضوع كله ، ذلك أننا لا نستطيع أن نملك جوابا في عالم الأسباب يكون معقولا ومرتبطا بهذا النوع من التساؤل .

وكان الأمر الذي أراده الله يدور كله حول الحل القدري الذي يرتفع فوق الأسباب ، مهما تطرف المفكرون في محاولة ربطه بالأسباب .

فمن أجل أن يوفر العربي لقمة عيشه تنقل خلف الكلأ ، وبحث عنه بكل وسيلة ممكنة ، وغيره ممن يساكنونه جزيرة العرب ينتهجون نفس منهجه في الجـري وراء الكلأ ، وكثيرا ما يقع التصادم والاختلاف والاقتتال ، وبوقوع القتال يفقد الإنسان أمنه ولا يستطيع أن يفارق سلاحه ساعة من ليل أو لحظة من نهار .

وإذا غـاب الأمن ووقع الاقتتال عز علي الإنسان في مثل هذه الظروف أن يجد الوسيلة الملائمة لإشباع بطنه أو تغطية جسده أو إقامة مكان لسكناه .

فـلما أراد الله أن يحـافظ لهـؤلاء الناس علي أسباب حياتهم ، ربطهم بالبيت الحرام ربطا وثيقا ، كما ربطهم بمتعلقات هذا البيت .

فالعـربي يستطيع أن يكون آمنا من كل خوف لو أنه جاور البيت الحرام إذ إن فطـرة العربي قد منعته من أن يعتدي علي إنسان أو يأخذ حقه منه ما دام قد جاور البيت الحرام ، إلي حد أن الإنسان في جوار البيت الحرام يري قـاتل أبيـه أو أخيه إلي جوار الكعبة فلا يرفع وجهه في وجهه ، بل إنه لا يقوي علي ترويعه والنيل من أمنه .

وفطرة هذا شأنها قد ارتبطت بالبيت الحرام علي هذا النحو من الارتباط تكـون قـد قامت بوظيفة القوانين والتشريعات المنبثقة من الدساتير التي هي أصول الشرائع في غير بلاد العرب من الأمم .

ومـن لواحـق الكعبة أن الإنسان يأتي من بلده يسوق الهدي إلي البيت الحرام ، وهو يخشى قطاع الطرق فلا يزيد علي أن يقلد الهدي نعلين ، أو ما يشـبههما مـن أنواع القلائد مما تعارف عليه العرب من أنه علامة فى الإبل ترشد الناس إلي أن هذه الأنعام قد خصصت للبيت الحرام ، فإذا ما فعل ذلك

أمــن عــلي الأنعام من قطاع الطرق ، ومن أولئك النفر الذين يحملهم الجوع علي اغتصاب الحيوانات وما تحمله من ثمار أو زروع .

إن التاريخ خير شاهد علي أن العربي يفضل أن يموت جوعا ولا يعتدي علي ذوات القلائد من الأنعام فيأخذها له عدوانا أو اغتصابا .

ومــن القلائد ما يتقلده الإنسان من عقود مصنوعة من الشعر يضعها في عنقه علامة علي أنه قاصد إلي النسك ، أو ذاهب إلي جوار البيت الحرام .

ومــن علائــق الكعبة كذلك هذه الأشهر الحرام ، وهي أشهر أربعة في العام ، واحد فرد وثلاثة سرد أي متواليات .

والأشــهر الأربعة مرتبطة ارتباطا وثيقا بالبيت الحرام لارتباطها بالحج والعمرة .

وهــذه الأشهر الحرم توفر الأمان في أيام الحج حيث يتمكن الحجيج أن يذهــبوا آمنين إلي البيت الحرام في ذي القعدة ، وأن يمارسوا الشعائر آمنين جــوار الــبيت الحرام في ذي الحجة ، ويعودوا إلي منازلهم آمنين بعد أداء المناسك في شهر المحرم .

وفــي شهر رجب تتاح الفرصة لمن يريد العمرة أن يذهب آمنا ، ويؤدي المناسك آمنا ، ويعود آمنا في شهر رجب .

ولــو أنــك تأملت في هذه الأشهر لوجدت أنها تساوي ثلث العام ، تضع فيهــا جميــع الحروب أوزارها ، بحيث يحرم علي الجميع أن يحملوا السلاح محــاربين أو معــتدين ، سواء منهم من كان قد أراد النسك ، أو أقام في بيته أو يتنقل بين الربوع لغرض من أغراض المعايش أو لغير غرض .

إن هــذا الــذي ذكرناه بين يديك من أثر الكعبة في الحفاظ علي أسباب إقامــة المعــايش ، يرجع كله إلي الفطرة الإنسانية التي خلقها الله في العرب وحملها القدر حملا علي أن تمارس مهمتها لا يقوي معها واحد من الناس أن يختان نفسه، فيزعج الآمنين باعتداءاته ، أو ينال منهم بتأثير صلفه وغروره.

والــذي لا أمل من أن ألفت نظرك إليه هو أنه لم تكن هناك دولة لا في

مكــة ولا في غيرها تفرض احترام الكعبة بصارم القدرة أو سلطان الاقتدار مما يجعلنا نؤكد المرة بعد المرة علي أن الكعبة وملحقاتها قد جعلها الله قياما للناس .

وأعــود فأذكــرك بالآيــة الكريمة " **جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما للــناس والشهر الحرام والهدي والقلائد** " لتتأملها من جديد وتطمئن إلي ما قدمناه بين يديك من تحليل .

وهــناك قضــية أخــري متعلقة بمسألة الكعبة وأنها قيام للناس يطرحها العــلماء عــلي أنفسهم ، وهي متصلة بكلمة – جعل – في الآية الكريمة التي ذكرتك بها الآن والعلماء يتأملون كلمة – جعل – فيتساءلون : هل هذا الجعل قــدري ، أم أنــه جعل تكليفي علي الناس أن يقوموا به ، فمن فعله فقد أطاع ومن لم يفعله فقد عصي ؟

ودعــك مــن الخلافــات الــتي تقع من العلماء عند الاختيار بين هذين الأمــرين ، إذ المسألة غاية في الوضوح ، ذلك أن الكعبة قد مرت بمرحلتين في علاقة الناس بها .

المرحلة الأولي : ما قبل بعثة النبي صلي الله عليه وسلم .

وفــي هذه المرحلة كانت الكعبة تؤدي دورها باعتبارها قياما للناس هي ولواحقها من الزمان والمكان والأحياء بطريقة قدرية بحتة .

وعليه فالجعل هنا جعل تكويني ، حيث إن الله قد جعلها في هذه المرحلة قياما للناس من غير أن يكونوا مكلفين بجعلها كذلك .

والمرحــلة الــثانية : مــا بعد بعثة النبي صلي الله عليه وسلم وتأسيس الدولة الإسلامية ، ونزول الشريعة علي النبي صلي الله عليه وسلم التي كلف الناس بالعمل بمقتضاها .

وفي هذه المرحلة أصبح الناس مسئولين مسئولية مباشرة عن نشر الأمن حــول الكعــبة ، وعــن نشر الأمن في الأشهر الحرم وغيرها ، وعن توفير الأمــن لمــن يسلكون الطريق إلي البيت الحرام ولمن يسلكون الطريق لغير

البيت الحرام علي السواء .

وصاحب الظلال يتحدث عن المرحلة الأولي من هاتين المرحلتين فيقول :

[ولقد ألقي الله في قلوب العرب حتى في جاهليتهم حرمة هذه الأشهر . فكانوا لا يروعون فيها نفسا ، ولا يطلبون فيها دما ، ولا يتوقعون فيها ثأرا حتى كان الرجل يلقي قاتل أبيه وابنه وأخيه فلا يؤذيه ، فكانت مجالا آمنا للسياحة والضرب في الأرض وابتغاء الرزق .. جعلها الله كذلك لأنه أراد للكعبة ــ بيت الله الحرام ــ أن تكون مثابة أمن وسلام . تقيم الناس وتقيهم الخوف والفزع . كذلك جعل الأشهر الحرم لتكون منطقة أمن في الزمان كالكعبة منطقة أمن في المكان . ثم مد رواق الأمن خارج منطقة الزمان والمكان ، فجعله حقا للهدي ــ وهو النعم ــ الذي يطلق ليبلغ الكعبة في الحج والعمرة ، فلا يمسه أحد في الطريق بسوء . كما جعله لمن يتقلد من شجر الحرم ، معلنا احتماءه بالبيت العتيق][1].

وصاحب المنار يتناول المعنيين جمعيا حكاية عن العلماء ، ثم يختار ما اخترناه لك من التوفيق بين الاتجاهين .

فيقول : [الجعل هنا : إما خلقي تكويني وهو التصيير ، وإما أمري تكليفي وهو التشريع ...

والمعني علي الوجه الأول في الجعل : أن الله تعالي جعل الكعبة التي هي البيت الحرام قياما للناس الذين يقيمون بجوارها والذين يحجونها ، أي سببا لقيام مصالحهم ومنافعهم بإيداع تعظيمها في القلوب ، وجذب الأفئدة إليها ، وصرف الناس عن الاعتداء فيها؛ وعلي مجاوريها وحجابها وتسخيرهم لجلب الأرزاق إليها .

---

(1) في ظلال القرآن – سيد قطب – م الثاني – الأجزاء ٥-٧-ط دار الشروق . الطبعة السابعة ١٣٩٨ هـ – ١٩٧٨ م ص ٩٨٢ .

فهذا هو الجعل الخلقي التكويني ....

والمعـــني عـــلي الوجـــه الـــثاني : أنه جعلها قياما للناس في أمر دينهم المهـــذب لأخلاقهم المزكي لأنفسهم ، بما فرض عليهم من الحج الذي هو من أعظـــم أركـــان الدين لأنه عبادة روحية بدنية مالية اجتماعية ، وما شرع في مناسك الحج من الصدقات والذبائح التي تطهر فاعلها من رذيلة البخل وتحببه إلي الفقراء ، وتحبب إليه الفقراء والمساكين ، ويتسع بها رزق أهل الحرم .

وهذا هو الجعل الأمري التشريعي ....

والمخـــتار أن جعـــل الله تعـــالي هـــذه الأشياء قياما للناس هو جعل تكويني تشـــريعي معـــا، وهو عام شامل لما تقوم به وتتحقق مصالح دينهم و دنياهم وشـــامل لـــزمن الجاهلية وعهد الإسلام ، لكن له في كل من العهدين صورة خاصة به .

ففـــي عهـــد الجاهلية كان التكويني أظهر والتشريعي أخفي ، لأنهم علي إضـــاعتهم لشـــريعة إبـــراهيم وإسماعيل صلي الله عليهما وسلم إلا قليلا من مناســـك الحج مزجوها بالوثنية والخرافات الوضعية ، وكانت آيات الله تعالي التكوينية ظاهرة فيهم .

وأما في عهد الإسلام فالتشريعي أظهر][1].

أمـــا أنا فبحكم البحث الذي نحن بصدده ، فإني مضطر إلي أن ألفتك إلي المعـــني الأول من هذين المعنيين ، وهو الجعل التكويني أو الخلقي فيما قبل البعثة المحمدية .

وأنـــا حيـــن ألفـــتك إلي هذا النوع من الجعل أستطيع أن أقول لك : إن الكعـــبة بهـــذه المـــثابة قد أصبحت قلادة العقد في اهتمامات الناس ، ومحط الأنظـــار في تعلقات العرب وبؤرة الشعور بين كل مدرك يدركه الناس هنا

---

[1] تفسير المنار – الإمام رشيد رضا المجلد الرابع ٧ ، ط الهيئة العامة للكتاب ص ٩٨ وما بعدها .

أو هـــناك . ولم يأت النبي صلي الله عليه وسلم إلا وكانت مكة محط الأنظار وموضع الاهتمام وغاية الأرب

أهمية مكة والبيت العتيق قبل الإسلام :

وتفصـــيل ما ذكرناه أن نقول : إن لمكة والبيت العتيق أهمية بالغة في نفوس الناس قبل الإسلام .

فهي بحكم موقعها وسط بين أطراف شبه الجزيرة العربية خاصة ما كان منها ذو أهمية تجارية .

فالقادم من الشام إلي اليمن ، أو من اليمن إلي الشام .

والقـــادم مـــن الشرق إلي الغرب يتخذ من مكة إلي جوار البيت العتيق مكانا آمنا يلوذ به ، ومكانا روحيا يسعد بالمقام فيه .

وهي من حيث نظامها السياسي تتميز بأنها ليست قيصرية ولا كسراوية وإنما هي لها نظام متميز يرضي القادم إليها والخارج منها علي السواء .

وهي من حيث موقعها الروحي بين العرب تتميز بميزة ليست لمدينة من المـــدن أو قـــرية مـــن القرى ففيها بيت الله الحرام نسبته الى الله عز وجـــل وليـــس لصـــنم مـــن الأصنام ، يقصده عباد الله جميعا للنسك والخدمة ، ولا تقصـــده قبيـــلة دون قبيـــلة فمكة علي الجملة - كما يقولون - : مثابة عبادة وتجارة وليست حوزة ملك يستبد بها صاحب العرش فيها ولا يبالي بمن عداه وهـــي إن لم تكن كذلك من أقدم أزمانها فقد صارت إلي هذه الحالة بعد عهد جرهم والعماليق الذين روي عنهم الرواة أنهم كانوا يعشرون [1] كل ما دخلها من تجارة .

كـــانت " مكة : عربية لجميع العرب ولم تكن كسروية ولا قيصرية ولا تبعية ولا نجاشـــية كمـــا عساها كانت تكون لو استقرت علي مشارف الشام أو عند

---

[1] يأخذون العشر من التجارة ضريبة يحصلها الناس مقابل الأمن والمرور ، أو لغير ذلك من الأسباب ، أو لغير سبب علي الإطلاق .

تخـــوم الجنوب ، ولهذا تمت لها الخصائص التي كانت لازمة لمن يقصدونها ويجـــدون فيها من يبادلهم ويبادلونه علي حكم المنفعة المشتركة لا على حكم القهر والإكراه .

البيت الحرام بين غيرة الساسة وحقد أصحاب المصالح :

ومكـــة قد اشتهرت بموقعها ومكانتها منذ قديم الزمان ، ومن قبل ميلاد عيسي عليه السلام بعشرات السنين .

فـــلقد عرفها من قرأ التوراة قديما حيث ورد اسمها في سفر التكوين ، إذ هـــي المشار إليها بالاسم " ميشة " وهي التي قد ذكرها الرحالة علي اختلاف مواطنهم باسم " ميشا " فهي التي كان يقصدها الهنود ويمكثون فيها يمارسون عقائدهم لا يشوش عليهم أحد ، ولا ينال منهم معتدى ، فالقوافل التجارية التي تـــأتي مـــن الهـــند كانت تجد راحتها الدينية في مكة يتنفسون فيها الصعداء ويجتهدون في عبادتهم ما وسعهم الاجتهاد .

وليس الهنود وحدهم هم الذين كانوا يجدون راحتهم الدينية حين يقصدون مكـــة بتجارتهم فالصابئون من جنوب العراق ، والعباد من بلاد فارس كانوا يجـــدون فـــي مكة ملاذا أمينا حين يصلون إلي مكة يمارسون عبادتم دون خـــوف مـــن ســـلطان مناوئ أو ملك مشاكس ، أو شعب يعكر عليهم صفو عبادتهم أو ما سوي ذلك من الأسباب التى تنغص المعايش وتحيل بين الناس وبين أن يكونوا أحرارا فى عبادتهم.

وهـــذا الجو النقى فى مكة قد أحفظ أرباب السياسة وأدعياء التدين على الســـواء ، فوقعـــت محاولات لصرف الناس بتجارتهم عن أن يسلكوا طريق مكـــة وهـــم ذاهبون إلى اليمن وما وراءها ، أو وهم يقصدون إلى الشام فى عمـــق أعماقها ، أو حين ذهابهم إلى العراق وما وراءها من بلاد الفرس ، أو إلى الهند .

كمـــا حدثت محاولات مماثلة لصرف العباد والمتدينين عن البيت الحرام إلى غيره من البيوت ، التى أنشئ بعضها إنشاء لهذا الغرض .

وهذه المحاولات جميعا قد فشلت فشلا ذريعا لوضوح غرضها ولمصادمتها لطبيعة الإنسان أو لطبيعة الأحوال .

مثل من الواقع :

ومن هذه المحاولات تلك المحاولات التى قامت بها دولة الروم وإمبراطورية الحبشة تتوسلان الى غرضهما مرة بقوة السلاح ، ومرة عن طريق الحيلة والسياسة .

وأنت تعلم ما جرى عام الفيل فقصة ذلك ظاهرة لك لا تحتاج منا إلى بيان .

غير أن ما ينبغي أن ننبهك إليه هو أن أبرهة حين خلص له حكم اليمن لم يفكر فى شئ قدر ما فكر فى صرف العرب عن " بيت الله العتيق " ، الذى هو محل تقديرهم ، وعماد قوامهم فى المعايش والدين على نحو ما رأيت .

ونحن لانلتفت إلى الأسباب التى لا تؤدى إلى نتائجها ، ثم نبنى عليها وهما من صروح الاستنتاجات لا تثبت أمام النقد ولا تقوى على محاكمة المنطق وتحليل العقل . وليس بغريب أن نسمع من روايات المؤرخين أن أبرهة سأل المحيطين به وهو يعلم الجواب -عن السبب الذى يحمل الناس على الذهاب إلى مكة والتعلق بها .

وليس بغريب أن نسمع كذلك أن إجابة الناس كانت موحدة حين قالوا لأبرهة: إن الذى يشد أفئدة الناس وقلوبهم إلى مكة هو البيت الحرام الكائن بها .

ونحن لا نستغرب هذا القرار الذى اتخذه أبرهة ولم يكن ابن الوقت كما لم يكن وليد الانفعال ، أو أثرا من آثار ردود الأفعال .

فأبرهة قد اتخذ قرارا أن يبنى للناس بيتا بصنعاء ، يعد تحفة فنية تتحاكى بها الركبان ، بحيث يجمع لبنايته وتزيينه أنفس المواد ، وأكرم أنواع الطلاء .

وقرار كهذا لابد له من الدوافع التى تؤدى إليه .

إنــنا لا نسـتغرب كل ما ذكرنا لك لأن ما من شئ ذكرناه لك إلا وهو منســجم مــع المــنطق والعقل ، ومع طباع الناس ودوافعهم المنبثقة من هذه الطباع .

لكــن الذى ننكره هو أن يقول القائلون : إن إبرهة بعد أن انتهى من بناء مبــناه قد ذهب إلى هدم البيت الحرام فى ستين ألف مقاتل ، معهم من العتاد والســلاح ما يعرفه العرب ، وما ليس للعرب به عهد ، وكان الذى دفعه إلى ذلــك فعــلة أعرابي غاضب قد أحزنه أن يقيم أبرهة للكعبة بناء ينافسها فى القداســة ، أو يصــرف الناس عن أن يحجوا إلى كعبتهم ، أو فى أقل القليل يضــع الــناس فى موضع الاختيار بين بناءين أحدهما قديم : تحيط به الهيبة والجلاء ، وثانيهما حديث يأخذ بالألباب كما يأخذ بالأبصار .

إنــنا نــنكر على التاريخ أن يجعل فعلة الرجل الغاضب الذى جاء فعله عــلى فــرض وقوعه ، رد فعل لما يجده فى قلبه من الغضب وما يجده فى نفسه من الغيرة ؟

والحقيقة المتسقة عندي هى ما أقول لك .

والــذى أحب أن أقوله لك هو أن أبرهة قد انتهى من بنايته على أحسن نظــام وأحــدث طراز ممكن فلما انتهى منها سماها : " القليس " من الكلمة اليونانيــة الــتي تعــني البناء الذي يتخذ للعبادة ، أو المجمع الذي يعد لنفس الغرض .

وقد يجوز أن الكلمة " قليس " مأخوذة من " الكلس " بمعني الطلاء الذي هــو التكليس ، أو أن الكلمة لها صلة بالقلنسوة " ، وصلتها بهذا المعني : أن البــناء قــد أصــبح شامخا بحيث لو رفع الناظر رأسه لينظر آخره ، تسقط قلنسوته عن رأسه إذا لم يحتط لها .

والأقــرب عندي أنه سماها " القليس " لهذا الاشتقاق من الكلمة اليونانية فالــرجل نصراني ، وارتباط النصارى باللغة اليونانية في ذاك الوقت ارتباط ظاهر لا سترة به .

انتهي أبرهة علي أية حال من بنايته ، واختار لها الاسم الدال عليها ، ثم أرسـل خطابا إلي ملكه في الحبشة يبلغه أنه لا يود أن ينتهي إلا بعد أن يهدم الكعبة ، ويصرف الناس إلي " القليس " بصنعاء .

والمـرء يتسـاءل تـري ما الذي يجعل أبرهة يخاطب ملكه في الحبشة ويكتب إليه بعزمه الأكيد علي هدم الكعبة ويطلب منه المعونة ؟

ومـن خـلال الإجابـة علي هذا التساؤل يظهر لنا السبب الحقيقي الذي ترتب عليه جميع الفعال التي قام بها أبرهة .

والسـبب الحقيقـي هو أن دولة الحبشة تخشى علي طريق التجارة من الجنوب إلي الشمال أن يقصده أهل فارس ويسيطروا عليه .

ومـن أجل ذلك السبب لم يتردد ملك الحبشة في تقديم المعونة إلي أبرهة لـتحقيق غرضه ، وتحصيل غاياته في إطار من رضي مليكه ومباركة أفعاله لتحقيق الغرض المنشود من وراء هذا العمل .

ومـن هنا تعلم ونعلم معك أن هذا السبب ليس سببا هزيلا يقصر عن أن يرتـبط بنـتائجه ، وإنما هو سبب يتصل ببعض الطباع قديما وحديثا لا يؤثر فيه تقدم ولا تأخر مثلما يؤثر فيه تربية الطباع أو التنشئة بالتربية والتهذيب.

وسـواء نجحـت هـذه المحاولة أو لم تنجح فإن دلالتها في الحالتين لا تخطئك ، ومقصودها في الحالتين لا يخفي عليك .

ومع ذلك فقد كانت هناك محاولة أخري من قبل الرومان ، حيث أرادوا بالحيـلة والـتدبير أن يسـتولوا عـلي هذا الطريق الذي يربط بين الشمال والجـنوب ، فيكون أهله لهم تبع ، وتكون الطريق لهم معبدة يسير الناس فيها آمـنين ، وتصـل فيها التجارة إلي غاياتها من الشمال إلي الجنوب ، أو من الجنوب إلي الشمال .

ومـلاك الأمر كله وناصيته في البيت الحرام ومكة المكرمة وسكان هذا البلد الأمين .

وكانت الحيلة السياسية علي النحو التالي :

لقــد ارتضي قيصر الروم [لملك مكة رجلا من ساداتها هو " عثمان بن الحويرث " ابن أسد بن عبد العزى ، وكتب له رسائل يبلغها قومه ، فعاد بها وجمع القوم إليه يرغبهم في حسن الجزاء من قيصر ، وينذرهم بسوء العاقبة في الشام إذا هم عصوه ، وأهون ما هنالك أن يغلق أبوابها في وجوههم وهم يذهــبون إليها ويعودون منها كل عام . قال : " يا قوم ! إن قيصر قد علمتم أمــانكم ببلاده وما تصيبون من التجارة في كنفه ، وقد ملكني عليكم وأنا ابن عمكــم وأحدكــم ، وإنمــا آخــذ منكم الجراب من القرظ والعكة من السمن والأوهــاب فأجمع ذلك ثم أذهب إليه ، وأنا أخاف إن أبيتم ذلك أن يمنع منكم الشام فلا تتجروا به وينقطع مرفقكم منه " .

وهــذه المحاولــة السياسية غرضها كما هو ظاهر كغرض تلك المحاولة العســكرية ، وكلتاهما يثبتان شيئا واحدا وهو قيام كعبة الحجاز علي كره من ذوي الســلطان في الجنوب ، وإن دولة الروم لم تكن تريدها باختيارها وإنما كــانت مشغولة بها معنية بتحويلها إلي حوزتها فلم تستطع أن تنال منها منالها واستطاعت " الكعبة " أن تحفظ مكانها علي الرغم من خلو مكة من العروش الغالــبة عــلي أنحاء الجزيرة بجميع أطرافها ، بل استطاعت ذلك لخلوها من تــلك العــروش وقيام الأمر فيها علي التعميم دون التخصيص ، وعلي تمثيل جمــلة العرب بمأثوراتهم ومعبوداتهم ، دون أن يسخرهم المسخرون من أن يســتبد بهم فريق يسخرهم تسخير السادة للأتباع المكرهين علي الطاعة وبذل الإتارة] .

أساس القوامة المرتبط بالبيت :

ونعود من جديد لنجمل أساس القوامة المرتبط بالبيت العتيق .

وأساس القوامة المرتبط بالبيت العتيق يرجع كله إلي ما للبيت العتيق من قداسة ، لا يختلف عليها بدوي ولا حضري .

فالكعـــبة كـــانت تحيط بها الأصنام ، ولكل صنم منها أناس يتحمسون له وأنـــاس يعترضـــون عليه ويزدرون عباده ، غير أن التاريخ لم يسجل أنه قد وقـــع خـــلاف بين العرب علي قداسة البيت العتيق ، فالجميع كانوا يقدسونه ويدينون لربه بالولاء .

وكـــان لكـــل جماعة من العرب إله خاص يتوددون إليه ، ويتبتلون بين يديـــه ، لكـــنهم جميعا يرجعون بنسبة البيت الحرام إلي رب إبراهيم ، ورب غير إبراهيم من الناس والأشياء .

والعـــبادات العـــليا والفرائض الناضجة كانوا إنما يبتغون بها وجه رب البيت ، فهم كانوا يعرفون الصلاة ، وقبلتهم فيها البيت العتيق .

فهـــذا زيـــد بـــن عمرو بن نفيل قد سجل له التاريخ أنه كان يقول وهو مستقبل الكعبة في صلاته :

لبيك حقا حقا تعبدا ورقا

....

عذت بما عاذ به إبراهم مستقبـــل الكعبة وهو قائم .

يقول إني لك عان راغم مهما تجشمنـــي فإني جاشم .

وكما عرفوا الصلاة يتوجهون بها إلي رب البيت ، عرفوا كذلك الصيام كما عرفوا مناسك الحج .

ولقد بلغ العرب في التبتل أقصي مداه يتشددون في عبادتهم تشدد الزهاد ويتحامـــلون عـــلي أنفســـهم تحـــامل العظماء الذين تشقي بعظمتهم نفوسهم وأجسامهم .

فالكعبة المشرفة كانت تسمي عندهم بـــ (الحمســـاء) ، وانفرد طوائف مـــنهم باســـم (الحمـــس) وهـــم طوائف متشددون في فرائضهم وخلائقهم يأخذون أنفسهم بالتقشف والزهد في مواسم العبادة ، فيقضون زمنا في العراء لا يحول بينهم وبين السماء حائل من سقف أو ستار ، ويحرمون علي أنفسهم

فـي الأشهر الحرام أكل الأقط والسمن ولبس النسيج من الوبر والشعر ، ولا يجيـزون لغيـرهم أن يطـوف بالبيت في غير الثياب الأحمسية ، ويجعلون المطاف بالليل للنساء إذا لم تكن عليهم هذه الثياب .

والعلاقات الاجتماعية عندهم كانت ترتبط في معظم الأحيان وفي أسماها بقداسة البيت العتيق .

ومـن أنصع الأمثلة علي ذلك ما سجله التاريخ عن بعض العرب ، أنهم قد أخذوا أنفسهم بحلف الفضول ، وهو حلف بمقتضاه قد التزم من دخلوا فيه بـأن لا يسـمحوا بالظلم يرتكب وهم ينظرون ، ولا بالحقوق تضيع دون أن تستثير هممهم فيقومون جميعا يردون الظلم عن المظلوم ، ويعودون بالحقوق لأصحابها ضاربين علي يد الظالمين بيد من حديد .

والكلام هنا يطول .

ولكـن الأمـر قـد أصبح جليا في أن الكعبة وعلاقة الناس بها وتدخلها بالقوامـة فـي حياة العرب ، قد أصبحت من الممهدات لظهور صاحب هذه السـاحة ولـتهيأة الأجواء لاستقباله تماما كسائر الممهدات والمعدات للساحة الـتي ذكـرناها فيمـا سبق ، غير أنه هنا يمكننا أن نقول : إنه ما من مقدمة لـلدعوة المحمدية كانت ألزم ولا أكرم من هذه المقدمة تيسيرا لاجتماع الكلمة عـلي الخير وتوحيد أبناء الجزيرة العربية في دعوة واحدة ليست لذي سلطان مـن مـلوك اليمـن أو خـليج فارس أو مشارف الشام الذين يدينون بالولاء للأكاسـرة وللقياصرة وللنجاشيين ، بل هي دعوة الله يتلقاها أصحاب التيجان والعروش كما يتلقاها عامة الخلق من عباد الله .

فيمـــا سطرناه إلى الآن من أحاديث وأفكار تسجل جميعها إعداد جوانب للساحة التى تنتظر عظيمها أن يدخل إليها .

وما من جانب من هذه الجوانب إلا وقد كان واضح الدلالة على مقصوده المناط به والمترتب عليه .

فأبـــاء النبى وأجداده تميزوا بجانب من الأريحية التى لم تتوافر لغيرهم حملــتهم عـــلى أن يـــأخذوا أنفسهم بجوانب من الشدة ، ظهرت فى خدماتهم الاجتماعية ، وإصلاحاتهم الاقتصادية ، وممارساتهم الدينية .

وهذا الجانب سوف يظهر فى عظيم هذه الساحة بأجلى ما يكون وأعمق مـــا يتصـــور مـــع توجيهه الوجهة التى تليق به فى صنع الحضارة وصياغة الشخصية .

وغيـــاب الأمـــن الداخـــلى والخارجى أمران عظيمان ترتبا على نقص الوعى بالتوحيد ، وعلى غياب الشريعة التى تحفظ الحقوق وترد المظالم .

وهـــذه أمـــور قـــد وعاهـــا عظيم الساحة القادم ، وتحددت وظيفته فى إصـــلاحها إصـــلاحا يناسب العصر الجديد والمستمر إلى قيام الساعة ، فجاء بمـــبادئ ونصـــوص تـــرفع درجـــة الوعى بالتوحيد وتصلح العقيدة ، وجاء بالدستور الذى انبثقت منه منظومة القواعد التشريعية التى أريد لها أن تصلح الناس فى أشخاصهم وفى معايشهم جميعا .

والعصـــبية العـــربية كانت قد وصلت إلى غايتها ، حتى أصبح العربى حـــرا حـــرية الأسد فى عرينه ، يهيج إذا ما داسه أحد و يثور إذا ما استثار ويخرج من هدوئه إذا ما ناله أحد بأذى .

وعظيـــم الساحة القادم قد وعى هذه العصبية أشد الوعى ، ولكنه أرساها على قاعدة تختلف كثيرا عن القاعدة التى أرسيت عليها أيام الجاهلية الأولى .

والبيت العتيق كان ملاذا للناس ، وقياما لمعايشهم وعقائدهم ، وأمنا لحركتهم.

وعظيم الساحة قد وعى هذه الأمر وعيا شديدا ، فحافظ للكعبة على قداستها ، ولكنه قد نحى عنها كل معتقد غريب ، وكل صنم من شأنه أن يفرق ولا يجمع ، وحمل الناس على استقامة الطريق وجادة السبيل .

والكتب السابقة على النبى صلى الله عليه وسلم وكتابه قد بشرت به وبدينه ، وأخبرت الناس أن الكون ينتظر عظيما من العظماء هو آخر لبنة فى صرح الأنبياء .

وعظيم الساحة المنتظر قد وعى هذه الإخبارات بقدومه ، فوجهها فى اتجاهين:أحدهما للمؤمنين : يرسى بها اعتقادهم فيه ، وثانيهما لأرباب الديانات والعوام منهم فى اليهودية والنصرانية وغيرهما من الديانات الكتابية يحملهم المسئولية إن أعرضوا عنه ، ويعدهم بالأجر مرتين إن هم اتبعوه وساروا على هداه .

هذه هى جنبات الساحة التى أعدت لعظيمها القادم ، وهذا هو وعى عظيمها القادم بها ، نرقب الجميع من شرفات هذه الساحة لنتمكن من خلال بحث قادم من رؤية عظيم الساحة وهو يدخلها .

وإجمال القول أن ما ذكرناه من إعداد الساحة قد مهد لعظيمها الطريق ولكنه خرج من الساحة يهدى الناس إلى طريق مغاير لهذا الطريق الذى رآه مرسوما أمامه .

فمن هو عظيم الساحة القادم وكيف دخلها ؟

هذا هو موضوع الجزء الثانى من هذه السلسلة .

نسأل الله أن يوفر الهمة و يطلق الأسباب ويرفع المعوقات حتى يخرج هذا الجزء قريبا تحت مظلة رضى الله وغفرانه .

اللهم آمين ،،،،،،

محتويات الكتاب

كتب للمؤلف

١) نظرية الشخصية فى فكر الامام الغزالى مخطوطة بمكتبة كلية أصول الدين.

٢) مشكلة الألوهية بين أبن سينا والشهرستانى مخطوطة بمكتبة كلية أصول الدين.

٣) مصارع المصارع مخطوطة محققة بمكتبة كلية أصول الدين.

٤) نظرية النبوة فى الإسلام.

٥) الأخلاق فى إطار النظرة التطورية.

٦) عقيدتنا وصلتنا بالكون والحياة.

٧) الجانب الألهى فى فكر الأمام الغزالى عرض وتحليل.

٨) النبوة والتنبؤ قراءة جديدة فى مسائل العقيدة

٩) الإعتبار ببقاء الجنة والنار.

١٠) الحقائق الجلية فى الرد على إبن تيميه فيما أورده فى الفتوى الحمويه.

١١) مسليمة فى مسجد توسان (الظهور الجديد وراء المحيطات).

١٢) البهائية وسائل وغايات.

١٣) القاديانية ومصيرها فى التاريخ.

١٤) العلمانية بين الحقيقة والخيال.

١٥) الإسلام واستمرار المؤامرة الجزء الأول: الدفاع عن السنة.

١٦) الإسلام واستمرار المؤامرة الجزء الثانى: السنة فى مواجهة أعدائها.

١٧) الإسلام واستمرار المؤامرة الجزء الثالث: ضلالات منكرى السنة.

١٨) الصراع بين الثقافة الإسلامية والثقافات الأخرى.

١٩) الهجرة بين سنن الله الجارية وسننه الخارقة.

٢٠) اللعاب الأخير فى مجال انكار سنة البشير النذير.

٢١) المرأه والولاية.

٢٢) حوار مع الدكتور/ مصطفى محمود - فى الشفاعة.

٢٣) الإسلام والعقيدة

٢٤) شيطان منكرى السنة يعبث بمواقيت الصلاة !